



شعراء الوطنية

عبد الرحمن الرافعي

شعراء الوطنية

تأليف

عبد الرحمن الراجحي



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: منى عزالدين

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٠٤٧ ٥

صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٤.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	مقدمة
١١	رفاعة رافع الطهطاوي
١٩	عبد الله نديم
٢٥	محمود سامي البارودي
٣٩	إسماعيل صبري
٥١	أحمد شوقي شاعر الوطنية الأكبر
١٠٩	حافظ إبراهيم شاعر النيل
١٧١	خليل مطران شاعر الحرية
٢٠١	أحمد محرم
٢٢٥	أحمد نسيم
٢٤٥	أحمد الكاشف
٢٦٣	محمد عبد المطلب
٢٨٣	أحمد زكي أبو شادي
٣٠٣	عبد الحليم المصري
٣٠٩	عزيز فهمي شاعر الحرية والشباب
٣٢١	علي الغياي

مقدمة

عندما أَرَحْتُ الحركة الوطنية في أدوارها المتعاقبة، تبيَّنتُ مبلغ رافعة الطهطاوي ما للشعر الوطني من أثر عميق في التمهيد لها وبعثها، وإذكاء الروح الوطنية في نفوس المواطنين، وتسجيل الحوادث الهامة في تاريخ مصر القومي، ومن يومئذٍ وأنا تَوَّاقٌ إلى أن أُخَصَّصَ لشعراء الوطنية سَفَرًا مُنفَرِدًا، يجمع معظم ما جادت به قرائحهم من الشعر الوطني، مع التعريف بشخصياتهم، وذكر المناسبات التي أنشئوا فيها قصائدهم الوطنية. ولقد كنت أرجو أن أضْمَنَ ما أخرجته من سلسلة تاريخ الحركة الوطنية قصائد أولئك الشعراء، وعُنَيْتُ فعلاً بأن أقتبس بعضها في شَتَّى المناسبات، ولكنني وجدت أن هذا الاقتباس لا يكفي للتنويه بفضلهم، وإبراز مبلغ مساهمتهم في غرس الشعور الوطني في نفوس الأجيال المتعاقبة، فواعدت نفسي أن أتفرغ يوماً لإخراج كتاب خاص بهم وبأشعارهم الوطنية، وها أنا ذا أُوفِّي بوعدي.

وإني لأشعر أنني بإخراج هذا الكتاب، أُؤدِّي واجباً نحو أولئك الشعراء ونحو الحركة الوطنية ذاتها؛ فالشعراء الذين استلهموا حيي الوطنية في قصائدهم، واهتزت لها مشاعرهم، واستجابوا إلى نداء الوطن في عالم الشعر والفن والخيال، وتجاوبوا مع الحركة الوطنية، وكانوا مرآة صادقة لعصرهم، ومصدر إلهام وتوجيه لمواطنيهم، وترجماناً لهم في آمالهم وآلامهم، وأحاسيسهم وأهدافهم؛ هؤلاء خليقون جميعاً بتقدير الوطن وثنائه، وإن من أبسط علامات التقدير لهم أن تُجْمَعَ قصائدهم في سجل واحد.

على أنني لا أقصد تقديرًا لهم فحسب، بل أقصد إلى تغذية الروح الوطنية بَمَدٍّ من شعرهم وإلهامهم، وإذا كان مما تعتمد إليه الأمم أن تُغذِّي نفوس أبنائها بالأناشيد الوطنية، فأجدر بنا أن نُشيع الشعر الوطني ونجعله في مُتناول المواطنين جميعاً، رجالاً ونساءً، شبيهاً

وشبّاناً، فكلنا في حاجة إلى أن نستذكر تلك القصائد الغُرى التي تملأ النفوس وطنية وإيماناً، وتغرس فيها فضائل الصدق والإخلاص والشجاعة والتفاني في أداء الواجب الوطني، فلعلها تدفعنا إلى السير دائماً إلى الأمام، غير مُتوانين ولا مُتنازحين، مُستمسكين بالمثل العليا في حياتنا القومية.

إن حياة هؤلاء الشعراء وقصائدهم الوطنية — إلى جانب أنها عماد للأدب وتاريخه — هي قطعة من تاريخ الحركة الوطنية وعنصر من عناصر بعثها وتطوُّرها، ولا غرو فالشعر فرع من دوحة الأدب، والأدب الوطني له الأثر الذي لا يُنكر في تكوين المواطن الصالح، والشعر بما يطبع في نفس الشاعر من التحليق في سماء الخيال، والتطلع إلى المثل العليا، يُمهد للنهضات الوطنية ويبعثها ويغذيها؛ إذ يهيب بالأمة أن تتمسك بالحرية والكرامة، ويستحثها على النفور من الذل، وإبَاء الضيم، ويُحبب إليها الثورة على الاستعمار والاستبداد، وشعراء الوطنية في مصر لهم في هذه الناحية فضل عظيم؛ فكم ناصروا الحركة الوطنية في مختلف عهودها، وغدّوها بقصائدهم وروائع شعرهم، وسجّلوا حوادثها الهامة، وأشادوا بمفاخر الشعب، وأهابوا به أن ينهض ويستعيد مجده القديم، وكم استصرخوا الإنسانية أن تهبّ لنصرته، وتنتصف له من المظالم التي حاقت به، وإن كثيراً من روائع الأدب التي جادت بها قرائح أولئك الشعراء كانت معالم للحركة الوطنية، وكان الشباب يحفظها عن ظهر قلب، فتذكى في نفوسه روح الوطنية والإخلاص والإقدام والتضحية.

وكم من قصيدة أو بيت من الشعر قد حرّكت المشاعر في نفوس المواطنين وسُحرّكها على الدوام، مهما تقادمت عليها الأعوام. ألسنت ترى إلى نشيد المارسليليز؟ كيف أنه رغم تقادم العهد على وضعه لا يزال يُلهب شعور الفرنسيين ويثير في نفوسهم روح الجهاد والفداء، ويقدِّرون له قدسيته الفنية والوطنية.

ولعل في جمع عيون الشعر الوطني في كتاب واحد ما يُبرز لنا فضل أولئك الشعراء في إمدادهم الروح الوطنية بغذاء معنوي يتجدد على تعاقب العهود والعصور، ولعلنا بذلك نكون أكثر عرفاناً لفضلهم، وتقديراً لذكرياتهم، وما أجمل وفاء الأمم للمُجاهدين السابقين من بنيتها، في مختلف الميادين، ولا غرو فالحركة الوطنية ليست وليدة الجيل الحاضر، ولا هي وقف عليه، بل هي ثمرة الجهود المتواصلة التي يتوارثها المواطنون جيلاً بعد جيل، وما أضعف الروح الوطنية إذا حُدّد مولدها بجيل واحد؛ لأنها بذلك تكون رخوة البناء، مُقفرة المعالم، أما الوطنية الوطيدة الأساس، العالية الدُّرى، فهي التي تجمع بين مجد الماضي، وجهاد الحاضر، وأمل المستقبل.

إن في قيثاره الشعر سلوى للقلب، وغذاءً للروح، وإنها لتُوحى إلى النفوس أسمى معاني الإنسانية، وما أجمل هذه القيثاره حينما تُغرد للناس ألحان الوطنية!

هذه المعاني والخواطر هي التي ألهمتني إخراج هذا الكتاب، وكم يطيب لي أن أنشر فيه صفحات لشعراء تكاد أحداث الزمان تُنسينا شعرهم، بل تُنسينا أسماء بعضهم، في حين أن فضلهم لا يصح أن يُنسى، وآثارهم في بعث الوطنية لا تمحى، والأدب في حاجة إلى استذكار أشعارهم؛ فإنها حقاً عماد الأدب الرفيع وكيانه، وهذه الأشعار هي في ذاتها سبيل لنشر الثقافة الوطنية بين أفراد الشعب في مختلف طبقاته.

من أين نبدأ؟

لقد ساءلت نفسي قبل أن أرسم خطوط الكتاب: من أين نبدأ تاريخ الشعر الوطني؟ أنبدؤه من يوم أن قرأنا قصائد شوقي وحافظ وسمعناها ووعيناها وكان لها صداها في إحياء مشاعرنا الوطنية؟ إننا إذ نُحدّد هذه البداية نكون قد اجتزأنا تاريخ الشعر الوطني، وأغفلنا مرحلة سبقت شوقي وحافظ، وهذا ما لا يُقره الحق والإنصاف، ولا يرضاه شوقي وحافظ، على علو كعبهما وبلوغهما الذروة بين شعراء الوطنية.

فلنبحث إذن عن بداية سابقة على شوقي وحافظ.

إنني عندما أرّختُ مصطفى كامل بحثت في بداية الحركة الوطنية الحديثة، وتساءلت: هل تبدأ هذه الحركة بظهور مصطفى كامل فيكون تأريخه تأريخاً لها؟ أم أن لها بداية سبقت ظهوره؟ وعلى أنني تلميذ لمصطفى كامل وكان تتلمذي له هو من البواعث على إخراجي لتاريخه، كما نوّهتُ إلى ذلك في مقدمة كتابي عنه، فإني قد وجدت من الإنصاف أن أبحث عن الأدوار التي تقدمت عصر مصطفى كامل؛ لأقف عند حدٍّ يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية الحديثة. وانتهى بي البحث إلى أن بدايتها — في تاريخ مصر الحديث — ترجع إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر؛ ومن ثم تطوّرت الفكرة عندي من تأريخ لمصطفى كامل إلى تأريخ للحركة القومية، وعلى هذا الأساس أخرجت سلسلة هذا التاريخ.

وأراني في تأريخ الشعر الوطني أميل إلى سلوك هذا المنهج، فرجعت في بدايته إلى الماضي، ووجدت أن روح الوطنية — بمعناها الحديث — قد بدأت تدخل الشعر المصري، وتبعث فيه من حياتها وبهائها، وتُضفي عليه من جمالها وجلالها منذ أوائل القرن التاسع

عشر، وأول رائد لهذه النهضة هو رفاة رافع الطهطاوي، فإلى هذا العهد يجب أن نرجع ظهور الشعر الوطني في مصر، وهكذا يبدو التقارب بين ظهور الحركة الوطنية وظهور الشعر الوطني في تاريخنا الحديث.

فلنبدأ إذن برفاة رافع الطهطاوي، ولندرس تطوُّر الشعر الوطني من بعده إلى وقتنا الحاضر.

ويطيب لي في صدد التنويه بشعراء الوطنية، أن أعتذر عما فاتني من تأريخهم، وأعوزني الحديث عنهم؛ فإنني أقصد من شاعر الوطنية مَنْ تغلب عليه النزعة الوطنية في شعره، فإذا كان قد فاتني أن أتحدث عن بعض الشعراء الممتازين، فالأمر لا يعدو أن يكون رأياً تقديرياً، وأن يكون شعرهم الوطني قد بدا لي مغموراً في بحر شعرهم الفياض، وهذا لا يغضُّ بدهاءة من منزلتهم في عالم الشعر والأدب، وحسبي عذراً لي أن رأيي التقديري في تخيُّر شعراء الوطنية كان نتيجة دراسات مُستفيضة، عكفت عليها سنين عديدة، ولم أقتصر على ما وعته ذاكرتي من الشعر الوطني في مختلف المناسبات، ولا على دواوين الشعراء، بل ذهبت أستقصي الشعر الوطني في مجاميع الصحف والمجلات، عامّاً بعد عام، قرابة نصف قرن من الزمان، بحيث اكتملت لديّ مجموعة من أشعار الوطنية، بعضها لم يُنشر من قبل في كتاب أو ديوان، ومع ذلك فإذا نبّهني القارئ الكريم إلى شاعر فاتني الحديث عنه، ضمن شعراء الوطنية، فإنني على أتم الاستعداد لتدارك هذا النقص في الطبعة التالية من الكتاب؛ لأنني أود حقّاً أن أستكمل أي نقص بدا مني في هذه الناحية، وليس أحب إلى نفسي من أن أُسجّل في كتابي كل قصيدة بل كل بيت من الشعر الوطني. والله أسأل أن يكون في هذه الدراسة ما يُعين على نشر الأدب الوطني وإذاعته وتعميمه بين المواطنين، والحمد لله أولاً وأخيراً.

عبد الرحمن الراجعي

يونيو سنة ١٩٥٤

رفاعة رافع الطهطاوي

١٨٧٣-١٨٠١



مصريُّ صميم، من أقصى الصعيد، نشأ نشأة عادية، من أبوين فقيرين، قرأ القرآن، وتلقَّى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره، ودخل الأزهر كما دخله غيره، وصار من علمائه كما صار الكثيرون، ولكنه بَدَّ الأقران، وتفرَّد بالسبق عليهم، وتسامت شخصيته إلى عُليا المراتب؛ ذلك أنه كان يحمل بين جنبَيْه نفسًا عالية، وروحًا مُتَوَثِّبة، وعزيمة ماضية، وذكاءً حادًا، وشغفًا بالعلم، وإخلاصًا للوطن وبنيهِ، تهيَّأت له أسباب

الجِد والنبوغ، فاستوفى علوم الأزهر في ذلك العصر، ثم صحب البعثة العلمية الأولى من بعثات محمد علي، وارتحل إلى معاهد العلم في باريس، واستروح نسيم الثقافة الأوروبية، فزادت معارفه، واتسعت مداركه، ونفذت بصيرته، لكنه احتفظ بشخصيته، واستمسك بدينه وقوميته؛ فأخذ من المدنية الغربية أحسنها، ورجع إلى وطنه كامل الثقافة، مُهذَّب الفؤاد، ماضي العزيمة، صحيح العقيدة، سليم الوجدان، عاد وقد اعتزم خدمة مصر من طريق العلم والتعليم؛ فبرَّ بوعده، ووفَّى بعهده، واضطلع بالنهضة العلمية تأليفاً وترجمة، وتعليماً وتربية، فملأ البلاد بمؤلفاته ومُعَرِّباته، وتخرَّج على يديه جيل من خيرة علماء مصر، وحمل مصباح العلم والعرفان يُضيء به أرجاء البلاد، ويُنير به البصائر والأذهان، وظل يحمله نيلاً وأربعين سنة، وانتهت إليه الزعامة العلمية والأدبية في عصر محمد علي، وامتدت زعامته إلى عهد إسماعيل، ذلك هو رفاعة رافع الطهطاوي.^١

وُلد في طهطا بمديرية جرجا سنة ١٨٠١م/١٢١٦هـ، وبدت عليه مخايل الذكاء والنباهة منذ صباه، ودخل الأزهر سنة ١٨١٧، ولم يمض عليه به بضع سنوات حتى صار من طبقة العلماء، وتولى التدريس فيه سنتين، وصنَّف وألَّف ودَرَس وهو في الحادية والعشرين من سنه، ثم عُيِّن واعظاً وإماماً في أحد آليات الجيش المصري، ولما جاء عهد البعثات العلمية كان من حسن التوفيق أن اختاره محمد علي ضمن أعضاء البعثة الأولى التي سافرت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦؛ فجمع إلى ثقافته الأزهرية ثقافة أوروبا وعلومها وآدابها، فاقتبس منها الشيء الكثير، وازدهرت روحه الأدبية على ضوء الحضارة الغربية. ولما عاد إلى مصر سنة ١٨٣١ تولى عدة مناصب في التعليم، وأنشأ مدرسة الألسن سنة ١٨٣٦، وكانت أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق في مصر، وكان رفاعة يتولى نظارتها ويُلقِي فيها دروسه على الطلبة؛ فكانت أكبر معهد لنشر الثقافة في مصر، وتنقَّل في المناصب العلمية، وكان لا يفتأ يُؤلِّف ويُخرِج من حين لآخر مُصنَّفات ومُعَرِّبات في العلوم والآداب إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٨٧٣.^٢

وهو أول رائد لنهضة العلم والأدب في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان شاعراً رقيقاً بالقياس إلى عصره، أُشربت نفسه الوطنية منذ نعومة أظفاره، تلقَّاه من إيمانه الصادق (وحب الوطن من الإيمان)، ومن فطرته السليمة، وخلص نيته. وقد استثار

^١ عن ترجمته في كتابنا «الحركة القومية» (الجزء الثالث: عصر محمد علي).

^٢ راجع ترجمته تفصيلاً في كتاب «تاريخ الحركة القومية» (الجزء الثالث: عصر محمد علي).

رحيله عن مصر إلى فرنسا عاطفته الوطنية العميقة المتأصلة في نفسه الحساسة؛ فجادت قريحته وهو في باريس بقصيدة عبّر فيها عن الحنين إلى الوطن وأهله، والإشادة بمفاخره، قال في مطلعها:

ناح الحمامُ على غصون البانِ فأباح شيمةً مُغرِمَ وَلهَانِ

وانتقل إلى التغني بمصر وذكر محاسنها وقال:

هذا لعمري إن فيها سادةً قد زُيِّنوا بالحسن والإحسان
يا أيها الخافي عليك فخارها فأليك أن الشاهد الحسانِ
ولئن حلفتُ بأن مصر لَجَنَةٌ وقطوفها للفائزين دوانِ
والنيل كوثرها الشهي شرابه لأبُرُّ كلَّ البر في أيّمانِي

وله قصائد ومنظومات وطنية قالها في مناسبات مختلفة.
فانظر إلى القصيدة الآتية تجدها تُعبّر عما يجيش في نفسه من أكرم العواطف وأنبلها، وقد قدّمها هو بقوله: «وقلت أيضًا وطنية.» فالروح الوطنية تتمشى حتى في تقديمه لقصائده، قال:

يا صاحِ حُبُّ الوطنِ حِلْيَةٌ كُلِّ فِطْنِ

* * *

مَحَبَّةُ الأوطانِ من شُعْبِ الإيمانِ
في أوفر الأديانِ آية كل مؤمنِ

* * *

مَسَاقِطُ الرءوسِ تلذ للنفوسِ
تُذهِبُ كل بُوسٍ عنا وكلَّ حزنِ

* * *

ومصر أبهى مَولِدِ لنا وأزهى مَحْتَدِ
ومَرَبِيعٍ ومَعْهَدِ للروح أو للبدنِ

شعراء الوطنية

* * *

شُدَّتْ بِهَا الْعِزَائِمُ نِيَطَتْ بِهَا التَّمَائِمُ
لَطَبَعْنَا تُلَائِمُ فِي السِّرِّ أَوْ فِي الْعَلَنِ

* * *

مَصْرُ لَهَا أَيْارٍ عَلِيَا عَلَى الْبَلَارِ
وَفَخْرَهَا يُنَادِي مَا الْمَجْدُ إِلَّا دِيدَنِي

* * *

الْكُونُ مِنْ مِصْرٍ اقْتَبَسَ نَوْرًا وَمَا عَنْهُ احْتَبَسَ
فَخَرُّ قَدِيمٍ يُؤَثِّرُ عَنْ سَادَةٍ وَيُنَشِّرُ
زَهْوٍ مَجْدٍ تُنَثِّرُ مِنْهَا الْعُقُولُ تَجْتَنِي

* * *

دَارُ نَعِيمٍ زَاهِيهِ وَمَعْدَنُ الرِّفَاهِيهِ
أَمْرَةٌ وَنَاهِيهِ قَدَمًا لِكُلِّ الْمَدَنِ

* * *

قُوَّةُ مِصْرٍ الْقَاهِرَةِ عَلَى سِوَاهَا ظَاهِرِهِ
وَبِالْعِمَارِ زَاهِرِهِ خُصَّتْ بِذِكْرِ حَسَنِ

* * *

أَبْنَاؤُهَا رِجَالٌ لَمْ يُثْنِ لَهُمْ مُحَالٌ
وَجُنْدُهُمْ صَنَدِيدٌ وَقَلْبُهُ حَدِيدٌ
وِخْصَمُهُ طَرِيدٌ بَلْ مُدْرَجٌ فِي كَفَنِ

وقال من قصيدة أخرى يدعو إلى افتداء الوطن بالنفس والمال:

وعزیز الوطن نخدمه برضاً في النفس نَحْكُمُهُ
مالُ المصري كذا دمه مَبْذُولٌ فِي شَرَفِ الْوَطَنِ

تفديه العين بناظرها والنفس بخير ذخائرهما
تُهدى في نيل نظائرها بِشرا العليا أعلى ثمن

وقال يصف الجيش المصري ويشيد بمفاخره:

نُنظِّمُ جندنا نظماً عجباً يُعجز الفهما
بأسدٍ تُرعبُ الخصما فمن يقوى يُناضلنا؟

* * *

رجالٌ ما لها عدوٌ كمال نظامها العدو
حُلاها الدرع والزرْدُ سنان الرمح عاملنا

* * *

وهل لخيولنا شَبُه كرائم ما بها شُبُه
إليها الكل مُنتَبِه وهل تخفى أصائلنا؟

* * *

لنا في الجيش فُرسانُ لهم عند اللِّقا شأنُ
وفي الهيجاء عنوانُ تهيم به صواهلنا

* * *

فها الميدان و«الشقرا» سَقَتِ أذنُ العدى وَفُرا
كأننا نُرسل الصقرا فمن يبغي يُراسلنا

* * *

مَدافعنا القضا فيها وحُكم الحتف في فيها
«وأهونها وجافيتها» تجود به مَعاملنا»

* * *

لنا في المدن تحصينُ وتنظيم وتحسينُ
وتأييد وتمكينُ مَنيعاتُ مَعاقلنا

وهذه الأبيات لَمَن خير ما قيل في وصف الجيش المصري، ولا شك أن رفاعة قد استلهم شعره من مفاخر الجيش في عهده؛ فهو يُصوِّر العصر الذي عاش فيه تصويرًا صحيحًا، لا مبالغة فيه ولا إغراق، وإن قصيدته لتُشبه أن تكون لوحة فنية يُخَيَّل لمن ينظر إليها أنه يلمح فيها كتائب الجيش المصري تسير إلى ميادين الحرب، تحفُّ بها أعلام النصر والظفر، تخوض غمار القتال، بقلوبٍ ملؤها الشجاعة والإقدام، وتُجابه الأخطار قوية الإيمان، ثابتة الجنان، مُجَهَّزة بالسلاح والمدافع «تجود به معاملنا». ولو لم يشهد رفاعة مفاخر الجيش المصري في ذلك العصر، لما جادت قريحته بهذا الشعر، وهكذا يتأثر الشاعر والأديب بالعصر الذي يعيش فيه، والبيئة التي تُحيط به، ويُصوِّر الحياة على عهده، فكأنما هو قطعة من عصره، أو مرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية، ومظاهر الحالة الفكرية والأخلاقية.

وإنك لتلمح أيضًا عظمة الجيش المصري من قول رفاعة في قصيدة أخرى يُخاطب فيها الجنود:

يا أيها الجنودُ	والقادة الأسودُ
إِنْ أَمَّكُمْ حسودُ	يعود هامي المدمع
فكم لَكُمْ حروبُ	بنصركم تئوبُ
لم تثنِكم خطوبُ	ولا اقتحامُ مَعمع

* * *

وكم شهدتم من وغي	وكم هزمتم من بغى
فمن تعدَّى وطغى	على حماكم يُصرعُ

وتتجلى روحه الوطنية المُتطلَّعة إلى الحرية في تعريبه نشيد الحرية (المارسليز)؛ فإن النفس لا تميل إلا إلى ما هو مُحَبَّبٌ إليها، فهذا النشيد قد استثار ولا شك إعجاب رفاعة رافع، حتى مالت نفسه إلى تعريبه، وإظهار ما احتواه من العواطف الوطنية الفدائية في حلة عربية قشبية.

وإذا تأملت في شعر رفاعة رافع الذي نقلنا طرفًا منه وجدت فيه تقدمًا نسبيًا إذا قارنته بأسلوب شعراء المدرسة القديمة التي سبقتها، كالشبراوي والطار والخشاب

رفاعة رافع الطهطاوي

وغيرهم، ويُعدّ شعره دور الانتقال إلى دولة الشعر الحديثة التي حمل لواءها البارودي، وإسماعيل صبري، وشوقي، وحافظ.

حقاً إننا إذا وضعناه إلى جانب شعر شوقي مثلاً، لَجاء في المرتبة الثالثة، أو الرابعة، ولكن يجب ألا ننسى أن رفاعة رافع نشأ في عصر كانت اللغة العربية وآدابها في دور تأخُّرها واضمحلالها، فله على نهضة الشعر والأدب فضل لا يُنكر.

عبد الله نديم

١٨٩٦-١٨٤٥



ظل الشعر في مصر بعد وفاة رفاعة رافع الطهطاوي خلوا من المعاني الوطنية، إلى
أن تجددت في شعر عبد الله نديم.

هو خطيب الثورة العربية، وهو أيضًا شاعرها، انطبعت في خطبه وقصائده روح الوطنية المُتدفِّقة، وروح الثورة.

وُلد سنة ١٨٤٥ بالإسكندرية، وبدأ عليه منذ صباه مخايل الذكاء اللامع، وظهرت مواهبه في الترسل في الكتابة والشعر والزجل، والقدرة الخطابية، مع خفة في الروح، وميل إلى الفكاهة، وجراءة وإقدام، واستخفاف بأحداث الزمان.

ولما ظهرت الثورة العربية أوائل ١٨٨١، انضم إليها بطبعه؛ إذ كانت نفسه تتأجج وطنية، وتتطلع إلى الحرية والمجد، وتجلّت مواهبه الخطابية، فصار خطيب الثورة العربية.

ومما يُذكر عنه في صدد الحديث عن شعره الوطني أنه لما سافر الألاي السوداني الذي كان يقوده الأميرالاي عبد العال حلمي أحد زعماء الثورة من القاهرة إلى دمياط، في أوائل أكتوبر سنة ١٨٨١، كان سفره يومًا مشهودًا، فاحتشدت الجموع في محطة العاصمة لتحية الألاي حين سفره، وكان من بين المؤدّعين عرابي والبارودي وعبد الله نديم، فوقف النديم وسط هذا الجمع الحاشد وألقى خطبة حماسية فياضة، بدأها بقوله مُخاطبًا رجال الجيش:

حماة البلاد وفُرسانها!

من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف وما كُتب لكم في صفحات التاريخ من الحسنات.

إلى أن قال: وهذا وطنكم العزيز أصبح يُناديكم ويُناجيكم ويقول:

إليكم يُرد الأمر وهو عظيم	فإنني بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى	فمن أين يأتي للديار نعيم؟
وإن الفتى إن لم يُنازل زمانه	تأخّر عنه صاحبٌ وحميم
فردوا عنان الخيل نحو مُخيم	تُقلّبه بين البيوت نسيم
وشدوا له الأطراف من كل جهة	فمشدود أطراف الجهات قويم
إذا لم تكن سيفًا فكُن أرض وطأة	فليس لمغلول اليدين حريم

وختم خطبته بقوله: وأحسن ما يُؤرّخ به اسم الجهادية عند النوازل أن يقال: «مات شهيد الأوطان!» فنادى الجميع: «رضينا بالموت في حفظ الأوطان!»

ولما شَبَّت الحرب العربية لازم النديم عرابي في كفر الدوار ثم في التل الكبير، وكانت مجلته «الطائف»، تصدر في معسكر الجيش المصري.
وبعد أن وقعت الهزيمة، ظل مُخْلِصاً للثورة في محنتها، فبرهن على وفاء نادر ووطنية أصيلة عميقة، وكان ممن أَمَرَت الحكومة باعتقالهم، وعجزت عن التعرف إلى مقره والقبض عليه، وظل مُخْتَفِياً عن عيونها وجواسيسها نحو تسعة أعوام، وأُعيَا الحكومة أمره، وجعلت ألف جنيه لمن يُرشد عنه، ولكنها لم تهتدِ إليه.
وقد وصف ما لقيه من الشدائد أثناء اختفائه في قصيدة تفيض وطنية وإيماناً وفخراً وشجاعة، وهي من غَرَر قصائده. قال:

أُحَسِّبُنَا إِذَا قُلْنَا بُلَيْنَا	بَلَيْنَا أَوْ يَرُومُ الْقَلْبَ لَيْنَا
نَعْمَ لِلْمَجْدِ نَقْتَحِمُ الدَّوَاهِي	فِيحَسِبُ خَامِلٌ أَنَا دُهَيْنَا
تُنَاوِشُنَا فَتَقْهَرُنَا خُطُوبٌ	تَرَى لَيْثَ الْعَرِينِ لَهَا قَرِينَا
سِوَاءَ حَرْبِهَا وَالسَّلَامِ إِنَا	أُنَاسٌ قَبْلَ هَدْنَتِهَا هُدَيْنَا

إلى أن قال:

إِذَا مَا الدَّهْرِ صَافَانَا مَرَضْنَا	فَإِنْ عُذْنَا إِلَى خَطْبٍ شَفِينَا
لَنَا جِلْدٌ عَلَى جِلْدٍ يَقِينَا	فَإِنْ زَادَ الْبَلَاءُ زِدْنَا يَقِينَا
أَلْفْنَا كُلَّ مَكْرُوهِ تَفْدَى	لَهُ فَرَسَانَهُ بِالرَّاجِلِينَا
فَأَعْيَا الْخَطْبُ مَا يَلْقَاهُ مِنَا	وَلَكِنَّا صَحَاحٌ مَا عَيْنَا

* * *

سَلِينَا يَا خُطُوبُ فَقَدْ عَرَفْنَا	بَأَنَا الصَّلْبَ صَلْنَا أَوْ صَلِينَا
وَقَرِّيْ فَوْقَ عَاتِقِنَا وَقُولِي:	نَزَلَتْ الْيَوْمَ أَعْلَى طُورِ سِينَا
عَلِينَا لِلْعَلَا دِينَ وَضَعْنَا	عَلَيْهِ الرُّوحَ لَا الدُّنْيَا رَهِينَا
فَهَلْ يُمَسِّي رَهِينٌ فِي سُرُورِ	وَهَلْ تَلْقَى بَلَا كَدَرِ مَدِينَا؟
إِذَا مَا الْمَجْدِ نَادَانَا أَجَبْنَا	فَيُظْهِرُ حِينَ يَنْظُرُنَا حَنِينَا
يُغَنِّيْنَا فَيُلْهِينَا التَّغْنِي	عَنِ الْبَاكِ وَيُنْسِينَا الْحَزِينَا
وَلَسْنَا السَّخَطِينَ إِذَا رُزِّنَا	نَعْمَ يَلْقَى الْقَضَا قَلْبًا رَزِينَا

فإنّا في عداد الناس قوم بما يرضى الإله لنا رضىنا
إذا طاش الزمان بنا حلُّمنا ولكنّا نُهينا أن نهينا

إلى أن قال:

سلوا عنا «منابرنا» فإنّا تركنا في منصتها فطينا
لحكمتنا تقول إذا هذرتم ألا هُبي بصحنك فاصبحينا
سَرى فينا من الآباء سرُّ يسوق البرّ نحو المُعوزينا
فإن عشنا منحنًا سائلينا وإن متنا نفحنًا الزائرينا

وقال يصف إحاطة الجند بالمنزل الذي كان فيه يريدون اعتقاله فنجاه الله من

شرهم:

أنسى يوم مصر والبلايا تُطارِدي ولا ألقى مُعينا
فكنت^١ الغوث في يوم كربه أخاف الشهم والحبر السمين
مُدحنا فيه في إشراق شمس فلما جاء مغربه هُجيناً!
وهل أنسى هجوم الجند عمراً بلا علم وقد كنا فُجيناً
أحاطوا بي وسدوا كل باب وصرنا بين أيدي الباحثين
وكان السطح مملوءاً بجند وخلف البيت كم وضعوا كميناً
فأدركت الوحيد وكان صيداً قريباً من فخاخ الطالبين
وأرشدت النديم إلى مكان رآه بعد حيرته مَكيناً
وأعمى الله عنا كل عين وكنا للعساكر ناظرين
وصرنا فوق سطح فيه علو يُحطّم هاوياً منه مَتيناً
فلم أهرب وثوبي من طمار ولم أنظر شمالاً أو يميناً
ويوم الغيظ كنتَ لنا مُجيراً بسطوته من البلوى حُميناً
فقد كنا بلا ستر يرانا أمام العين كلُّ القاصدين

^١ الخطاب هنا وفي الأبيات التالية مُوجّه إلى الرسول عليه السلام، والنديم شريف النّسب.

وكم سرنا بلا خوف جهازاً
وإني الآن في خطب عظيم
أتانا مُخبر عن قوم سوء
وخاف الضرُّ أحبابي جميعاً
فعجّل بالرحيل بلا توان
فأدرك يا أبي نجلاً دهاه
فما خفت المنون ولا الأعادي
ركبنا الخيل أو جئنا السفينا
أرى في طيّه داءً دفيناً
أرادوا وصفنا للحاكمينا
وقالوا بالوشاية قد رُمينا
ولا تُخبر صديقاً أو خدينا
من الأهوال ما يُوهي البدينا
نعم خفت انشراح الشامتينا

* * *

فسرتُ الليلَ يصحبني ثبات
ورافقني خليل كان قبلاً
وأدركنا القطار بغير خوف
وألقي الله ستر الحفظ فضلاً
وكان الخِل مُنتظراً قُدومي
«ونجّى الله بعد اليأس عبداً»
لخل نحو منزله دُعينا
يُوافي حين كنا ظاهرينا
وكنا بالثياب مُنْغرينا
فلم ترنا عيون المُبْلِسينا
بخيل أوصلتنا سالمينا
يرى الرحمنَ خير المُنْقِذينَا

وإنك لترى هذا الشعر أقوى في الروح والأسلوب من شعره إبان الثورة، وهكذا يبدو أن الهزيمة لم تنل منه، بل زادته قوة وحيوية، وصلابة وبلاغة، وأن الشدائد صقلت مواهبه كما تُصقل المعادن وتُجلى جواهرها في لهب النار، فاحتفظ النديم في سني المحنة بما حباه الله من إيمان صادق، وعزم ثابت، وصمود على الأيام، وكذلك الشدائد والمحن، يختلف أثرها في نفوس الناس؛ فبينما تبعث اليأس والجزع في النفوس الضعيفة، نراها على العكس تزيد النفوس الكبيرة ثباتاً وصبراً، وشجاعة وإيماناً، ومن هنا جاء شعر النديم بعد هزيمة الثورة أقوى منه في أوج انتصارها.

وفي الحق أن النديم هو الزعيم الوحيد بين الزعماء العربيين الذي استمر في جهاده ضد الإنجليز ونضاله عن مصر في عهد الاحتلال، وتلك لعمري ميزة كبرى جدية بأن تُحيط اسمه بهالة من المجد والخلود، وقد اهتدت الحكومة إلى مكانه سنة ١٨٩١ وقرّرت نفيه إلى خارج القطر، وفي أوائل عهد الخديو عباس الثاني عفا عنه ورخص له بالعودة إلى مصر، فعاد إليها، وأنشأ مجلة «الأستاذ» سنة ١٨٩٢، فتجلّت فيها روحه الوطنية التي لم تُضعفها الهزيمة ولم تنل منها الشدائد؛ مما أحفظ عليه الإنجليز وصنائعهم، فتدخل

اللورد كرومر، وأمر بإبعاده من مصر ثانية، فاضطر إلى تعطيل صحيفته سنة ١٨٩٣،
وودّع قراءه وداعاً مؤثراً في آخر عدد صدر منها (في ١٣ يونيو سنة ١٨٩٣) قال:

ما خُلِّقَت الرجال إلا لمُصَابَرَةِ الأهوال ومُصَادِمَةِ النوائب، والعاقل يتلذذ بما يراه
في فصول تاريخه من العظمة والجلال، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرًا في أعين
الواقفين عند الظواهر؛ وعلى هذا فإني أودع إخواني قائلًا:

أودِّعكم والله يعلم أنني أُحِبُّ لقاكم والخلود إليكم
وما عن قَلِيَّ كان الرحيل وإنما دَوَاعٍ تَبَدَّتْ فالسلام عليكم!

وانتهى به المطاف في منفاه إلى الآستانة حيث تُوفي سنة ١٨٩٦، وشُيِّعت جنازته في
احتفال مهيب مشى فيه كثير من العلماء والكبراء، يتقدمهم السيد جمال الدين الأفغاني،
ودُفِنَ هناك.

بالأمس كان غريبًا في ديارهم واليوم صار غريب اللحد والكفن!

محمود سامي البارودي

١٨٤٠-١٩٠٤



محمود سامي البارودي هو إمام الشعراء المُحدثين قاطبة، وباكورة الأعلام في دولة الشعر الحديث، وأول من نهض به وجارى في نظمه فحول الشعراء المُتقدِّمين، فبعث النهضة الشعرية من مرقدِها بعد طول الخمود.

وُلِدَ سنة ١٨٤٠، وهو ابن حسن بك حسني من ضباط المدفعية في الجيش المصري، وحفيد عبد الله الجركسي أحد الكشاف في عهد محمد علي، وسُمي البارودي نسبة إلى إيتاي البارود التي كان أحد أجداده الأمير مراد البارودي مُلتزماً لها في عهد الالتزام. وقد تلقى العلم أول ما تلقاه على أيدي أساتذة خصوصيين في سراي والده بغيط العدة (القريبة من باب الخلق) والمعروفة بسراي البارودي، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره انتظم في المدرسة الحربية، وتخرّج منها سنة ١٨٥٥، والتحق بخدمة الجيش المصري، وأخذ يترقى حتى بلغ رتبة أميرالاي، وخاض غمار الحروب في ثورة كريد سنة ١٨٦٦؛ إذ كان ضابطاً في الجيش الذي أنفذته مصر لإخماد تلك الثورة وانتصر على الثوار في مواقع عدة.

ولما شبّت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٨٧٧ أنفذت مصر جيشاً لنجدة تركيا كان البارودي من ضباطه، وأبلى في الحرب بلاءً حسناً، وصقلّت المعارك مواهبه الشعرية، ولما عاد إلى مصر رُقي إلى رتبة اللواء، وعُيّن مديراً للشرقية، وكان محافظاً للعاصمة حين أُلّف شريف باشا وزارته الثانية سنة ١٨٧٩ في أوائل عهد الخديو توفيق، فاختره فيها وزيراً للمعارف والأوقاف، واشترك في حوادث الثورة العربية، وكان من زعمائها المُشار إليهم بالبنان، وتولّى رئاسة وزارة الثورة سنة ١٨٨٢، ثم كانت الهزيمة، ونُفي مع زملائه إلى جزيرة سيلان (سرنديب)، وظل في منفاه نيّفاً وسبعة عشر عاماً، وأسبغ عليه النفي سمات التضحية والبطولة.^١

الحنين إلى الوطن

كانت حياة زعماء الثورة العربية في منفاهم حياة أَلَم وحزن؛ إذ انقطعت صلتهم بالناس، وطال اغترابهم عن أرض الوطن، وبعدت الشُّقة بينهم وبين أهليهم ومُواطنيهم، ولم يكثر لهم أحد، ولم يعطف عليهم أحد (والناس مع الغالب)، وجادت قريحة البارودي بشعر مُؤثّر في الحنين إلى الوطن، والحزن على فراقه، مما يُعد آية في البلاغة، وبلغت سليقته الشعرية في منفاه ذروة العظمة والجلال.

^١ راجع ترجمته تفصيلاً في كتابنا «الثورة العربية، والاحتلال الإنجليزي».

قال يصف الرحيل عن أرض الوطن:

محا البين ما أبقت عيون المَها مَنِيَّ
عناء ويأس واشتياق وغربة
فَشِبْتُ ولم أَقْضِ اللُّبَانَةَ من سَنِيَّ
ألا شَدَّ ما ألقاه في الدهر من غَبِنِ

إلى أن قال:

ولما وقفنا للوداع وأَسْبَلْتُ
أهْبْتُ بصبري أن يعود فَبَزَنِي
وما هي إلا خطوة ثم أَقْلَعْتُ
فكم مهجة من زفرة الشوق في لُظَى
وما كنت جَرَبْتُ النوى قبل هذه
ولكنني راجعت حلمي وردَّنِي
ولولا بنيات وشيب عواطل
مَدامعنا فوق الترائب كالمزِنِ
وناديتُ حلمي أن يثوب فلم يُغِنِ
بنا عن خطوط الحي أَجْنَحَةُ السفِنِ
وكم مُقْلَةً من غزرة الدمع في دَجِنِ
فلما دهنتني كدت أَقْضِي من الحزِنِ
إلى الحزم رأي لا يحوم على أَفْنِ
لما قرعت نفسي على فائتِ سَنِيَّ

الصبر على الشدائد

وتجلَّت في منفاه صفاته العالية من الشَّمَم، وعلو النفس، واحتمل آلام النفي بشجاعة وإباء، وصبر وإيمان، وله في ذلك شعر يفيض بهذه المعاني السامية.
قال وهو في سرنديب (سيلان):

لم أَقْتَرِف زِلَةَ تقضي عليَّ بما
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني
فلا يظن بي الحُسَاد مَندَمَةٌ
أثريتُ مجداً فلم أعبأ بما سَلَبَتْ
لا يخفض البؤس نفساً وهي عالية
أصبحت فيه فماذا الويل والحرَبُ؟
ذنبٌ أَدان به ظلمًا وأَغْتَرِبُ؟
فإنني صابر في الله مُحْتَسِبُ
أيدي الحوادث مني فهو مُكْتَسَبُ
ولا يشيد بِذِكر الخامل النَشَبُ^٢

^٢ النشِب: المال والعقار.

وقال مُشيرًا إلى مُصادرة أملاكه:

يا ناصر الحق على الباطلِ	خُذْ لي بحقي من يَدَي ماطلي
أُخْرِجَنِي عما حوته يدي	من كسبي الحر بلا ناطلٍ ^٣
من غير ما ذنب سوى منطق	ذي رونق كالصارم القاطلِ ^٤
«فإن أكن جُرِّدت من ثروتي	ففضل ربي حلية العاطلِ»

وقال من قصيدة أخرى في مقاومة الظلم والصمود في المحن والخطوب:

إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت	عليه فلا يأسف إذا ضاع مَجْدُهُ
وَمَنْ ذل خوف الموت كانت حياته	أضر عليه من حمام يؤدُّهُ
وأقتل داء رؤية العين ظالمًا	يُسيء ويُتلى في المحافل حمْدُهُ
علام يعيش المرء في الدهر خاملاً	أيفرح في الدنيا بيوم يَعُدُّهُ؟
عَفَاءً على الدنيا إذا المرء لم يعش	بها بطلاً يحمي الحقيقة شَدُّهُ

وقال في هذا المعنى:

أمطري لؤلؤًا جبالَ «سرندي	ب» وفيضي آبارَ «تكرور» تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتًا	وإذا مت لست أعدم قبرًا
هَمَّتِي همة الملوك ونفسي	نفس حُر ترى المذلة كفرًا

ومن قوله في الحنين إلى الوطن والصبر على الشدائد:

فيا دموع القطر سيلِي دَمًا	ويا بنات الأيك نُوحِي معي
وأنت يا نسمة «وادي» الغضا	مُرِّي برِّيك على مربعي
وأنت يا عصفورة المُنحني	بالله غنيَّ طربًا واسجعي

^٣ الناطل: الشيء القليل.

^٤ القاطل: القاطع.

وأنت يا عين إذا لم تفي بذمة الدمع فلا تهجعي
أبيت أرعى النجم في سُدفَة ضل بها الصبح فلم يطلع

* * *

فهل إلى الأشواق من غاية أم هل إلى الأوطان من مرجع؟
لا تأس يا قلبُ على ما مضى لا بد للمحنة من مَقْطَعِ

يتمنى أن يرى مصر

وقال في منفاه يتمنى أن يرى مصر:

يا حبذا جرعةٌ من ماء محنية وضجةٌ فوق برد الرمل بالقاع^٥
ونسمةٌ كشميم الخلد قد حملت ريًا الأزاهر من ميثٍ وأجرع^٦
يا هل أراني بذاك الحي مجتمعا بأهل ودي من قومي وأشياعي؟

وقال في هذا المعنى:

أبيت حزيناً في «سرنديب» ساهراً طوال الليالي والخَلِيون هَجْدُ
إذا خطرَت من نحو «حلوان» نسمة نَزَتْ بين قلبي شعلَةً تتوقدُ
شبابٌ وإخوانٌ رُزئتُ ودادهم وكل امرئ في الدهر يشقى ويسعد!

ومن قصيدة له في هذا المعنى قالها في منفاه يتشوق إلى الوطن:

هل من طبيبٍ لداء الحب أو راقٍ يشفي عليلاً أخا حزن وإيراق^٧
قد كان أبقي الهوى من مهجتي رمقا حتى جرى البين فاستولى على الباقي

^٥ المحنية: ما انحنى من الأرض.

^٦ الميث: جمع ميثاء الأرض اللينة.

^٧ الراقى: اسم فاعل من رقاها يرقيه؛ أي عوّذه فهو راقٍ.

وفيهما يقول:

يا روضة النيل لا مَسَّتْكَ بائقة
ولا برحتِ من الأوراقِ في حُلَلٍ
يا حبذا نسَمُ من جوها عَبِيقُ
مرعى جيادي ومأوى جيرتي وجمي
أصبو إليها على بُعْدٍ ويُعْجِبُنِي
وكيف أنسى دياراً قد تركتُ بها
ولا عدَّتْكَ سماءُ ذاتِ إغْداقٍ^٨
من سندس عبقرى الوشي برَّاقٍ
يسري على جدول بالماء دَفَاقٍ
قومي ومَنبت أدابي وأعراقي
أني أعيش بها في ثوب إِملاقٍ
أهلاً كراماً لهم ودي وإشفاقي

* * *

فيا بريدَ الصِّبَا^٩ بلِّغْ ذوي رحمي
وأنت يا طائرًا يبكي على فننٍ
أذكرتني ما مضى والشمْلُ مُجْتَمِعُ
أنى مُقيم على عهدي وميثاقي
نفسى فداؤك من ساقٍ على ساقٍ
بمصر والحربُ لم تنهض على ساقٍ

وقال أيضا في منفاه:

رُدُّوا عَلَيَّ الصِّبَا من عصري الخالي
ماضٍ من العيش ما لاحت مخايله
أدهى المصائب غدر قبله ثقة
وهل يعود سوادُ اللَّمة البالي؟
في صفحة الفكر إلا هاج بلبالي
وأقبح الظلم صدُّ بعد إقبالٍ

* * *

لا عيب فيَّ سوى حريةٍ ملكتُ
قلبي سليم ونفسي حُرَّةٌ ويدي
بلوتُ دهري فما أحمدتُ سيرته
حلبتُ شطريه من يسر ومَعْسرةٍ
لم يبقَ لي أرْبُ في الدهر أطلبه
أعِنَّتِي عن قبول الذلِّ بالمالِ
مأْمونةٌ ولساني غير ختَالِ
في سابق من لياليه ولا تالي
وذقت طعميه من خصب وإمحالِ
إلا صحابة حر صادق الخالِ

^٨ البائقة: الداهية والبلية. ولا عدتك: أي لا تجاوزتك.

^٩ الصبا بالفتح: ريح معروفة.

وَأَيْنَ أُدْرِكُ مَا أَبْغِيهِ مِنْ وَطَرٍ وَالصَّدَقُ فِي الدَّهْرِ أَعْيَا كُلِّ مُحْتَالٍ؟

* * *

لا فِي «سَرَنْدِيبٍ» لِي إِلْفٌ أَجَاذِبُهُ فَضْلُ الْحَدِيثِ وَلَا خِلَ فِيرَعَى لِي
أَبِيتُ مُنْفَرِدًا فِي رَأْسِ شَاهِقَةٍ مِثْلُ الْقِطَامِيِّ فَوْقَ الْمَرْبَأِ الْعَالِي
إِذَا تَلَفْتُ لَمْ أَبْصِرْ سِوَى صُورِ فِي الذَّهْنِ يَرْسُمُهَا نَقَاشُ أَمَالِي

* * *

عِلَامٌ أَجْزَعُ وَالْأَيَّامُ تَشْهَدُ لِي بَصْدَقُ مَا كَانَ مِنْ وَسْمِي وَإِغْفَالِي
رَاجِعْتُ فَهَرَسُ أَثَارِي فَمَا لِمَحْتِ بِصِيرَتِي فِيهِ مَا يُزْرِي بِأَعْمَالِي
فَكَيْفَ يُنْكَرُ قَوْمِي فَضْلُ بَادِرَتِي وَقَدْ سَرَتْ حِكْمِي فِيهِمْ وَأُمَثَالِي
أَنَا ابْنُ قَوْلِي وَحَسْبِي فِي الْفَخَارِ بِهِ وَإِنْ غَدَوْتُ كَرِيمَ الْعَمِّ وَالْخَالِ
وَلِي مِنَ الشَّعْرِ آيَاتٌ مُفَصَّلَةٌ تَلُوحُ فِي وَجْنَةِ الْأَيَّامِ كَالْخَالِ
يَنْسَى لَهَا الْفَاقِدُ الْمَحْزُونُ لَوْعَتَهُ وَيَهْتَدِي بِسَنَاهَا كُلُّ قَوَّالِ
فَانْظُرْ لِقَوْلِي تَجِدُ نَفْسِي مُصَوَّرَةً فِي صَفْحَتَيْهِ فَقَوْلِي خَطُ تِمَثَالِي
وَلَا تَغْرَنْكَ فِي الدُّنْيَا مُشَاكَلَةٌ بَيْنَ الْأَنَامِ فَلَيْسَ النَّبْعُ كَالصَّالِ
إِنْ ابْنُ آدَمَ لَوْلَا عَقْلُهُ شَبْحُ مُرْكَبٍ مِنْ عِظَامِ ذَاتِ أَوْصَالِ

ومن قصيدة له يتشوق إلى مصر:

خَلِيلِي هَذَا الشُّوقُ لَا شَكَّ قَاتِلِي فَمِيلًا إِلَى «الْمِقْيَاسِ» إِنْ خِفْتُمَا فَقَدِي
فَفِي ذَلِكَ «الْوَادِي» الَّذِي أَنْبَتَ الْهُوَى شِفَائِي مِنْ سَقَمِي وَبِرِّي مِنْ وَجْدِي

وقال في هذا المعنى:

طَالَ شَوْقِي إِلَى الدِّيَارِ وَلَكِنْ أَيْنَ مِنْ «مِصْرَ» مَنْ أَقَامَ «بَكَنْدِي»^{١٠}
حَبْذَا «النَّيْلِ» حِينَ يَجْرِي فَيُبْدِي رَوْنَقَ السَّيْفِ وَاهْتِزَازَ الْفِرْنِدِ

^{١٠} كندى: مدينة صغيرة في جزيرة سيلان (سرنديب).

تنثني الغصون في حافتيه
قلدتها يد الغمام عقوداً
كيف لا تهتف الحمام عليه
كلما صوّرتة نفسي لعيني
كالعذارى يسحبني وشي الفرند
هي أبهى من كل عقد وبند
وهي تسقي به سلافة قنـد
قدح الشوق في الفؤاد بزند

الحنين إلى الأهل والولد

وقال في منفاه وقد رأى في المنام ابنته الوسطى:

تأوب^{١١} طيف من «سميرة» زائر
طوى سُدفة^{١٢} الظلماء والليل ضارب
فيا لك من طيف ألم ودونه
تخطى إلي الأرض وجداً وما له
ألم ولم يلبث وسار وليته
تحمل أهوال الظلام مخاطراً
«خماسية»^{١٣} لم تدّر ما الليل والسرى
فيا بُعد ما بيني وبين أحبّتي
ولولا أمانى النفس وهي حياتها
«فإن تكن الأيام فرّقن بيننا

وما الطيف إلا ما تربه الخواطر
بأرواقه والنجم بالأفق حائر
مُحيط من البحر الجنوبي زاهر
سوى نزوات الشوق حادٍ وزاجر
أقام ولو طالت عليّ الدياجر
وعهدي بمن جادت به لا تُخاطر
ولم تنحسر عن صفحتيها الستائر
ويا قرب ما التفت عليه الضمائر!
لما طار لي فوق البسيطة طائر
فكل امرئ يوماً إلى الله صائر»

إلى أن قال:

فلا يشمت الأعداء بي فلربما
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه
ولي أمل في الله تحيا به المني

وصلت لما أرجوه مما أحايزُ
وتنهض بالمرء الجدود العوائر
ويُشرق وجه الظن والخطب كاشرُ

^{١١} تأوب: أي أتى ليلاً.

^{١٢} السدفة: الستر.

^{١٣} أي بنت خمس سنوات.

«إذا المرء لم يركن إلى الله في الذي
وإن هو لم يصبر على ما أصابه
ومن لم يذُق حلو الزمان ومُره
عليّ طَلابُ العز من مُستقره

يُحاذِرُه من دهره فهو خاسرُ»
فليس له في معرض الحق ناصرُ
فما هو إلا طائش اللَّب نافرُ
ولا ذنب لي إن عارضتني المقادرُ

إلى أن قال:

فإن كنتُ قد أصبحت فل^{١٤} رزية
فكم بطلٍ فلَّ الزمان شباته
فسوف يبين الحق يوماً لناظر
«وما هي إلا غمرة ثم تنجلي
فقد حاطني في ظلمة الحبس بعدما

تقاسمها في الأهل بادٍ وحاضرُ
وكم سيدٍ دارت عليه الدوائرُ
وتَنزَو^{١٥} بعُوراء الحقود السرائرُ
غيابتها والله مَنْ شاء ناصرُ»
ترامت بأفلاذ القلوب الحناجرُ

* * *

فهملًا بَنِي الدنيا علينا فإننا
تطول بها الأنفاس بُهراً^{١٦} وتلتوي
هنالك يعلو الحق والحق واضح
وعما قليل ينتهي الأمر كله

إلى غاية تَنفَتْ فيها المرائرُ
على فلكة الساقين فيها المآزرُ
ويسفُل كعب الزور والزور عاثرُ
فما أول إلا ويتلوه آخرُ

يُشيد بعظمة الأهرام

قال يصف «الأهرام» ويُشيد بعظمتها:

سل «الجيزة» الفيحاء عن «هرمي» مصرِ
ببناء أن رداً صولة الدهر عنهما
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا

لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري
ومن عَجِبَ أن يغلبا صولة الدهرِ
لبانيهما بين البرية بالفخرِ

^{١٤} فل: أي مُنهزم.

^{١٥} تنزَو: تطمح، يقال: نزا به قلبه؛ طمح.

^{١٦} بهراً بالضم: تتابع الأنفاس من الإعياء في اللسان.

فكم أُمم في الدهر بادت وأعْصُر
تلوح لأثار العقول عليهما
رموز لو استطلعت مكنون سرها
فما من بناء كان أو هو كائن
وختمها بقوله:

فيا نسمات الفجر أدِّي تحيتي
ويا لمعات البرق إن جُزّت بالجمي
عليها سلام من فؤاد مُتيمِّم
ولا برحت في الدهر وهي خوالد
إلى ذلك البرج المُطل على النهر
فصُوبي عليها بالنثار من القطر
بها لا بربات القلائد والشذر^{١٧}
خلود الداراري والأوابد من شعري

شعر القتال

ومن قصيدة له في وصف إحدى المعارك التي خاضها، ويبدو منها مبلغ شجاعته وصبره على أهوال القتال:

ولما تداعى القوم واشتبك القنا
وزُيِّن للناس الفرار من الردى
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا
صبرتُ لها حتى تجلّت سماؤها
ودارت كما تهوى على قطبها الحربُ
وماجت صدور الخيل والتهب الضربُ
سُقينا بكأس لا يُفَيِّق لها شربُ
وإني صبور إن ألمَّ بي الخطبُ

الفساد في عهد إسماعيل

وقال من قصيدة يصف سوء الحُكم وظلم الحكام في عهد إسماعيل، وينصح قومه بالمطالبة بحقوقهم والمبادرة بإصلاح شئونهم قبل أن تسوء العقبي، وهي من شعره السياسي الوطني الرائع:

قامت به من رجال السوء طائفة
أدهى على النفس من بؤس على ثكل

^{١٧} الشذر: صغار اللؤلؤ.

من كل وغد يكاد الدست يدفعه بغضًا ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعد الملك حتى ظل في خلل

إلى أن قال:

فبادروا الأمر قبل الغوث وانتزعوا شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضًا لكل مُنتزع سهمًا ومُختلِل
حتى تعود سماء الأمن ضاحية ويرفل العدل في ضافٍ من الحلل

الجيش والدستور

وقال في أوائل عهد الخديو توفيق يدعو إلى الشورى وتقوية الجيش:

أمران ما اجتمعا لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار السؤدد
«جمع» يكون الأمر فيما بينهم «شورى» وجند للعدو بمرصد

يندد بالدسائس

وقال من قصيدة يشكو فيها من الدسائس التي كانت تُحاك حوله:

نقموا عليّ حميتي فتألبوا حزبا عليّ وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فلما صادفوا سمعًا يميل إلى الملام توسّعوا
لا عيب فيّ سوى حمية ماجد والسيف يغلبه المضاء فيقطع

يحث على الاعتدال، ويستنكر الذل

قال في هذا المعنى:

إذا شئت أن تحيا سعيدًا فلا تكن لدودًا ولا تدفع يد اللين بالقسر
ولا تحتقر ذا فاقة فلربما لقيت به شهماً يبرُّ على المُثري

فَرُبُّ فَقِيرٍ يَمْلَأُ الْقَلْبَ حِكْمَةً وَرُبُّ غَنِيٍّ لَا يَرِيشُ وَلَا يَبْرِي^{١٨}
وَكُنْ وَسْطًا لَا مُشْرَبًّا إِلَى السُّهَى وَلَا قَانَعًا يَبْغِي التَّزْلِفَ لِلصُّفْرِ^{١٩}
فَأَحْمَدُ أَخْلَاقَ الْفَتَى مَا تَكَافَأَتْ بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ التَّوَاضُعِ وَالْكِبَرِ
وَلَا تَعْتَرِفُ بِالذَّلِّ فِي طَلَبِ الْغَنَى فَإِنَّ الْغَنَى فِي الذَّلِّ شَرٌّ مِنَ الْفَقْرِ

العودة إلى الوطن

وقد عاد إلى الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيّه في منفاه، فاستقبل مصر بقصيدته التي مطلعها:

أَبَابِلُ مَرَأَى الْعَيْنِ أَمْ هَذِهِ مِصْرُ فَإِنِّي أَرَى فِيهَا عَيُونًا هِيَ السَّحَرُ؟
فَإِنَّ يَكُ مُوسَى أَبْطَلَ السَّحَرَ مَرَّةً فَذَلِكَ عَصْرُ الْمَعْجَزَاتِ وَذَا عَصْرُ

إلى أن قال:

وَإِنِّي أَمْرُو تَأْبَى لِي الضِّيمَ صَوْلَةً مَوَاقِعُهَا فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ حَمْرُ
أَبِيَّ عَلَى الْحَدَثَانِ لَا يَسْتَفْزِنِي عَظِيمٌ وَلَا يَأْوِي إِلَى سَاحَتِي نَعْرُ

عبرة الحوادث

ومن قصيدة له قالها بعد عودته من المنفى تفيض توجعًا لحالة البلاد بعد أن جثم الاحتلال على صدرها، وقد تذكّر عندما مر بقصر الجزيرة أيام إسماعيل حين كان في أوج سلطانه، وما انتهى إليه أمره من خلع وخسران، وتذكّر أخطاءه التي كان لها أثرها في التمهيد للاحتلال، فلم يترحم على عهده، ونظم هذه القصيدة مُعْتَبِرًا وَمُذَكِّرًا، وهي من آيات الشعر في العظة والاعتبار، قال:

هَلْ بِالْجَمَى عَنْ سَرِيرِ الْمَلِكِ مِنْ يَزْعُ؟ هَيِّهَاتِ قَدْ زَهَبَ الْمَتْبُوعُ وَالتَّبْعُ!

^{١٨} أي لا ينفع ولا يضر.

^{١٩} القانع هنا: السائل المُتَذَلِّل. والصُّفْر: الذهب.

هذي «الجزيرة» فانظر هل ترى أحدًا
أضحت خلاءً وكانت قبلُ منزلة
فلا مُجيب يرد القول عن نبأ
كانت منازل أملك إذا صدعوا
عاثوا بها حقبة حتى إذا نهضت
لو أنهم علموا مقدار ما فغرت
دارت عليهم رحا الأيام فانشعبوا
كانت لهم عصبٌ يستدفعون بها
ينأى به الخوف أو يدنو به الطمُعُ؟
للملك منها لوفد العز مرتبُعُ
ولا سميع إذا ناديت يستمعُ
بالأمر كادت قلوب الناس تنصدعُ
طير الحوادث من أوكارها وقعوا
يد الحوادث ما شادوا ولا رفعوا
أيدي سبًا وتخلَّت عنهم الشيعُ
كيد العدو فما ضروا ولا نفَعوا

* * *

أين المعازل بل أين الجحافل بل
لا شيء يدفع كيد الدهر إن عصفت
«زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر
لو كان للمرء فكر في عواقبه
وكيف يُدرِك ما في الغيب من حدث
دهر يغمر وآمال تسر وأعد
يسعى الفتى لأُمور قد تضر به
أين المناصل والخطية الشرعُ؟
أحدثه أو يقي من شر ما يقعُ
ولا تعطلت الأعياد والجمعُ»
وإنما صفوه بين الورى لمعُ
ما شاب أخلاقه حرص ولا طمعُ
من لم يزل بغرور العيش ينخدعُ
ـمار تمر وأيام لها خدعُ
وليس يعلم ما يأتي وما يدعُ

* * *

يا أيها السادر المزور من صلف
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
إن الحياة لثوب سوف تخلعه
مهلاً فإنك بالأيام مُنخِرعُ
لعل قلبك بالإيمان ينتفعُ
وكل ثوب إذا ما رث ينخلعُ

وظل البارودي بعد عودته من المنفى في عزلة عن الناس، لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة من الأدباء والحافظين لعهد، إلى أن كانت وفاته سنة ١٩٠٤، فخلف مجداً لا يبلى على الزمان.

إسماعيل صبري

١٨٥٤-١٩٢٣



شاعر بطبعه وسليقته، وطنيٌّ بفطرته وحسن سيرته، أدرك عهد الاحتلال في إبان قوته وسطوته، فتحرّكت شاعريته، تُجاهد الاستعمار، وتُمجّد معاني الوطنية، وتُخلّدُها في قصائد غُر تُشبه أن تكون تغاريد من نبع القلب الصافي وفيض الإحساس المُرهِف والذوق الرفيع.

كان شاعرًا رقيقًا مُجيدًا، عميق الوجدان، مُقلًا في شعره، مُحْتَاطًا في نشر ما تجود به قريحته، كان عَلمًا من أعلام الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث، وثانيهم بعد البارودي.

ولد سنة ١٨٥٤ بمدينة القاهرة، والتحق بمدرسة المبتديان سنة ١٨٦٦، ثم بمدرستي التجهيزية والإدارة (الحقوق)، وأتم دراسته بمصر سنة ١٨٧٤، ثم ألحق بالبعثة المصرية إلى فرنسا، ونال شهادة الليسانس في الحقوق من كلية «إكس» سنة ١٨٧٨، ولما عاد إلى مصر التحق بالمناصب القضائية حتى عُيِّن وكيلاً لوزارة الحقانية (العدل) سنة ١٨٩٩، واعتزل الخدمة في سنة ١٩٠٧.

ظهرت مواهبه الشعرية منذ نعومة أظفاره، وظلّت تنمو وتزدهر طول حياته، وكانت شاعريته ووطنيته عنوان مجده وموضع فخاره. كان مُعاصِروه يُلقّبونه «شيخ الشعراء»، واعترف له بذلك زملاؤه شوقي وحافظ ومطران وعبد المطلب ونسيم وغيرهم، وإنك لتلمح تقدير شوقي لزعامته من قوله في رثائه:

أيامَ أَمْرُحُ في غبارك ناشئاً نهج المهار على غبار خصاف^١
أَتَعَلَّمُ الغايات كيف تُرام في مضمار فضل أو مجال قواف

ومن قول حافظ في رثائه أيضاً:

لقد كنت أغشاه في داره وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعري على مسمع لطيف يُحس نبو الوتر

تتجلى في شعره القومي روح الحب الخالص للوطن، والشجو الحزين على مآسيه، والاستمسك بالعزة والكرامة، والشمم والإباء، ولقد عبّر بآرُق القصائد عن شعور مواطنيه، وترجم عن آمالهم وآلامهم.

كانت وطنيته عميقة الجذور، عاش حياته لم يَزُرْ إنجليزياً قط، ولم يذهب يوماً إلى الوكالة البريطانية، في حين أنها كانت مع الأسف مقصد الكبراء والعظماء في ذلك العهد، وطالما استماله اللورد كرومر إلى زيارته ليكسبه إلى صف المُناصِرِينَ للاحتلال، فاستعصم

^١ المهار: جمع مهرة. وخصاف: فرس مشهور في العرب.

وأبى، ولما قيل له لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيسًا للوزارة، قال: وماذا تُفيدني رئاسة الوزارة غير إغضاب ضميري وإرضاء ذوي المطامع وأصدقاء الجاه؟^٢
كان صديقًا صدوقًا للزعيم مصطفى كامل، أيده في جهاده منذ الساعة الأولى، ولم يكن يكتم مناصرته إياه في أي منصب تولاه.

كان محافظًا للإسكندرية سنة ١٨٩٦-١٨٩٩، وأراد مصطفى كامل أن يُلقى بها خطبة من خطبه الوطنية الكبرى، فأوعزت إليه الحكومة أن يمنع إقامة الاجتماع الذي أُعد لإلقاء الخطبة، بحجة المحافظة على الأمن والنظام، فأبى صبري على الحكومة ما أرادت، ورخص بإقامة الاجتماع، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام، وألقى مصطفى كامل خطبته.

ولما عُيِّن وكيلاً لوزارة الحقانية (العدل) في نوفمبر سنة ١٨٩٩ ظل على مودته لمصطفى، وكان في غالب الأيام يخرج من الوزارة ويُعَرِّج بدار اللواء المُقابِل لها ليزور صاحب اللواء ويقضي معه الوقت الطويل، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة ب صداقته له ومناصرته إياه في الوقت الذي كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به، وإلى ذلك يُشير شوقي في رثائه لإسماعيل صبري إذ يقول:

ويح الشباب وقد تخطرَ بينهم	هل مُتَّعوا بتمسح وطواف؟
لو عاش قدوتهم ورب «لوائهم»	نكس «اللواء» لثابت وقاف
فلكم سقاه الود حين وداده	جرب لأهل الحكم والأشراف

دعوته إلى الدستور

وإنك لتجد في شعر إسماعيل صبري انسجامًا مع سياسة مصطفى كامل، وتمجيديًا للوطنية، ومُناصرةً للأمة في جهادها للحرية والاستقلال.
قال في قصيدة وجَّهها إلى الخديو عباس حلمي الثاني يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ يدعو إلى الدستور:

سدَّ سهام الرأي بـ «الشورى» يُحِط	بك منه في ظلم الحوادث فَيَلِقُ
واسبق به واضرب به وافتح به	ما شئت من باب أمامك يُغْلَقُ

^٢ ذكر هذه الواقعة الأستاذ أحمد الزين في مقدمته لديوان إسماعيل صبري ص ٣٢.

حادثة دنشواي

وقال فيها يُصوّر حادثة دنشواي، ويصف فظائع الإنجليز فيها، والعفو الذي أصدره الخديو عن مسجونيه:

وأقلتَ عشرةَ قريةٍ حَكَمَ الهوى إنَّ فيها بائسَ مما به وارحمنا لجُناتهم ماذا جنوا؟ ما زال يُقذني كل عين ما رأوا حتى حكمتَ فجاء حكمك آية نزلت تُرفرف حول كاتب نصها شكرتكَ مصر على سلامة بعضها ذكرت لك الصفح الجميل ولم تزل قانون «دنشواي» ذاك صحيفة هل يُرتجى صفو ويهدأ خاطر ومضاجع القوم النيام أواهل لن تبلغ الجرحى شفاءً كاملاً فاحكم بغير العنف واكسر سيفه	في أهلها وقضى قضاءً أخرق أو رنَّ جاوبه هناك مُطوّق ^٣ وقضاتهم ما عاقهم أن يتقوا؟ فيها ويؤذي كل سمع ما لقوا للناس طيِّ صحيفة تتألق زمرًا ملائكة الرضا وتُحلّق شكرًا يُعرب في الورى ويُشرّق ترمي إلى أمر أجل وترمق ^٤ تُتلى فترتاع القلوب وتخفق والموت حول نصوصها يترقرق؟ بمُعذب يُردى وآخر يُرهق ما دام جارحها المُهند يبرق فالحلم أجمل والمكارم أليق
---	--

رثاؤه لمصطفى كامل

وقد جزع لوفاة مصطفى كامل جزعاً شديداً، وشيّع جثمانه إلى مرقدّه الأخير (يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨)، ووقف على قبره يُلقي قصيدته في وداعه، ولم يكد يُلقي البيت الأول منها وهو:

أداعي الأسى في مصر ويحك داعيا هددت القوى إذ قمت بالأمس نايعا

^٣ المطوّق: السجين.

^٤ قضاتهم: أي قضاة المحكمة المخصوصة التي حكمت عليهم.

^٥ يريد الدستور.

حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء، ولم يستطع أن يُتم القصيدة، وقد ألقاها في حفلة تأبينه، وتدل هذه القصيدة على مبلغ حبه له وإخلاصه لصداقته، وإعجابه به، وشدة حزنه عليه؛ فجاءت آية في بلاغة الرثاء، ورقة التعبير عن الحزن والألم، وكأن كل بيت فيها دمة وفاء تذرفها عين الصديق على صديقه الحميم. قال:

أجل أنا من أرضاك خلًّا مُوافيا	ويُرضيك في الباكين لو كنت واعيا
وقلبي ذاك المَورد العذب لم يزل	كما ذقت منه الحب والود صافيا
سوى أنه يعتاده الحزن كلما	رآك عن الحوض المُهدّد نائيا
ويعثر في بعض الخطوب إذا مشى	إلى بعض ما يهوى فيرجع داميا
وإن رامه سرب المسرات لم يجد	محلاً به من لاعج الهم خاليا
ألا علّلاني بالتعازي وأقنِعا	فؤادي أن يرضى بهن تعازيا
وإلا أعيناني على النوح والبكا	فشأنكما شأني وما بكما بيا
وما نافعي أن تبكيا غير أنني	أحب دموع البر والمرء وافيا

* * *

أيا «مصطفى» تالله نومك رابنا	أمثلك يرضى أن ينام اللياليا؟
تكلم فإن القوم حولك أطرقوا	وقل يا خطيب الحي رأيك عاليا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة	تخالك أعواد المنابر فانيا
وتبكيك لولا أن فيها بقية	تعلّلها من ذلك الصوت داويا
فهل ألفت ما بين جفنيك والكرى	مُحالفَة أم قد أمنت الأعاديا؟

* * *

فقدناك فقدانَ الكمي سلاحه	وساري الدياجي كوكب القطب هاديا
وبتنا وقد باتت رفاتك في الثرى	سقاها الحيا ^٦ نستبطئ الدمع هاميا
ولولا تراث من أمانيك عندنا	كريمٌ بكينا إذ بكينا الأمانيا
طواك الردى طيَّ الكتاب تضمّنت	صحائفه من كل فخر معانيا

شعراء الوطنية

مضاءً إذا البيض انتمت لأصولها غَضِبْنَا إذا سَمَّاكَ قوم يمانيا
ورأيي يُجَلِّي اليأس واليأس ضارب على الأفق ليلاً فاحم اللون داجيا
إذا ما تقاضينا ولم تك بيننا ذكرناهما حتى نُجيد التقاضيا
فليتكَ إذ أعيتت كل مُساجِل قنعت فلم تُعي الطبيب المُداويا
وليتكَ إذ ناضلتَ عن مصر لم تُفَض مع الحبر قلباً يعلم الله غاليا

* * *

لقد ضاع إخلاص الطبيب وحذقه سدّى فبكى الفخر الذي كان راجيا
ولم تنتهز تلك العقاقير فرصة ترى الناس فيها فضل «بقراط» باديا
نُحييك سيفاً بات في الترب مُغمداً تقلّده فيما مضى الحق ماضيا

مواساته لجرحى الحرب

ولقد كان له شعر حماسي يملأ القلوب أملاً وشجاعة.
قال من قصيدة له مُحاطباً الأمير عمر طوسون يشكره على مواساته جرحى الحرب:

وكم تعهّدت جرحى من أسودٍ وغى إن يكشّر الدهر عن أحداثه كشروا
مُستنجداً من بني مصر إلى شمم إذا رأوا ثلثة في حوضهم جبروا
مُستهيماً هامياً و«النيل» في وجل من أن تجود به أيما نكم حذراً

الوحدة بين العنصرين

وقال داعياً إلى الوحدة الوطنية بين عنصرَي الأمة:

عينيّ فيك اليوم قبطيّة تروي الأسى عن مسلم مُوجع
ويأخذ البرّ وآي الوفا عن الكتاب الطيّب المشرع

ومن قصيدة له حين اشتد الخلاف بين المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ يدعو إلى
الوحدة الوطنية:

خففوا من صياحكم ليس في مصر — لأبناء مصر من أعداء

دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمد يأمراننا بالإخاء
مصر أنتم ونحن إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعي الشقاء
مصر ملكٌ لنا إذا ما تماسك لنا وإلا فمصر للغرباء!

تنديده بصنائع الاحتلال

وقال في نوفمبر سنة ١٩٠٨ يُندد بسياسة مصطفى فهمي حين سقطت وزارته وكان
مُوالياً للاحتلال خاضعاً له:

عجبتُ لهم قالوا سقطتَ ومن يكن مكانك يأمن من سقوط ويسلم
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى وحرمتَ خوف الذل ما لم يُحرّم
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة على الصخر لم تُصدع ولم تتحطم^٧

في الإباء وعزة النفس

ومن قوله في الإباء وعزة النفس، والزراية بالمتكبرين:

أيها التائه^٨ المذل علينا ويكُ قل لي: من أنت؟ إنني نسيْتُ
لو فرشت الطريق درّاً لأخطو فوقه نحو داركم ما رضيتُ
أنا أغنى من أن يُقال فلان وفلان تزاورا ما حييتُ!

وقال في الاستمساك بالكرامة:

لكسرةً من رغيف خبز تُؤدَم بالملح والكرامة
أشهى إلى الحر من طعام يُختم بالشهد واللمامة

^٧ أي أن مصطفى فهمي كان في منزلة دانية لا يؤلمه السقوط منها، بحيث لو أسقطوا زجاجة من ذلك

المكان المنخفض لم تنكسر!

^٨ التائه: المتكبر من التيه بكسر التاء.

يستنكر تعدد الزوجات

وقال يذم تعدد الزوجات:

يا من تزوّج باثنتين ألا اتنُدُّ ألقيتَ نفسك ظالمًا في الهاويه
ما العدل بين الضرتين بممكن لو كنت تعدل ما أخذت الثانيه!

التوحيد والحرية

وله في تمجيد التوحيد والحرية كلمات بليغة وإن لم تكن شعراً إلا أنها تُشبهه في النغم والرنين وقوة الأثر، وهي من الشعر المنثور البليغ. قال:

أُحِبُّ التوحيد في ثلاثة: الله، والمبدأ، والمرأة.
وأحب الحرية في ثلاثة:
حرية المرأة في ظل زوجها،
وحرية الرجل تحت راية الوطن،
وحرية الوطن في ظل الله.

تنديده بالظلم والاستعمار

قال في قصيدة له يُخاطب «الدواة»:

وإذا الظُّلم والظلام استعانا يومَ نحس بأجهل الجاهلينا
واستمدّا من الشرور مداً فاجعليه في قسمة الظالمينا

إلى أن قال:

وإذا كان فيك نقطة سوء كُؤنت من خيانة تكويننا
«فاجعليها قسط الذين استباحوا في السياسات حرمة الأضعفينا»

تنديده بالمستعمرين

قال ينعى على إيطاليا عدوانها على طرابلس (ليبيا) سنة ١٩١١ ويُنَدِّد بما في فعلتها من الغدر ونقض العهود والمواثيق:

راقبي الله أمةَ الطليان!	بعضَ هذا الجفاء والعدوان
وتسَنمتِ غاربِ الطغيانِ	قد ملأتِ الفضاءَ غدرًا وجهلاً
س بحربِ مشبوبةِ النيرانِ	وبعثتِ السفينِ ترمي طرابلسَ
د جهارًا وذمةَ الجيرانِ	تخرقِ البحرَ والمواثيقَ والعهدَ
سَلِموا من دناءةِ الأضغانِ ^٩	سَيَّرَتها أضغانِ قومٍ لقومِ
قوم همُّوا للثأرِ للأوطانِ	من رآها تجري توهمُ أن الـ
طول جيشًا إلى جمى الحباشِ ^{١٠}	لا وربِّ الأسطولِ ما حمل الأسـ
يُفضِّحوا مرتينِ في ميدانِ	إن قومِ الطليانِ أحرص من أن

الامتيازات الأجنبية

وقال في هذه القصيدة يُشير إلى الامتيازات الأجنبية التي منحتها الدول الشرقية للأوروبيين، فقابلوها بالغدر والعقوق، واتخذوها وسيلة للعدوان على هذه الدول:

م فعقُّوا ما كان من إحسانٍ؟	ويحهم ما لصنعهم أبطر القو
ب لظاها يشوي الوجوه عوانٍ؟	ولماذا تمخَّضَ السلمُ عن حر
كنَّ مذ كنَّ من منبتِ الكفرانِ	منحٌ قد بُذرنِ في شرٍّ أيدٍ
ر البهاليل من بني الرومانِ!	هكذا فلتكُ المروءات في عصـ

^٩ يريد بالذين سلموا من دناءة الأضغان العرب وهم المعتدى عليهم في هذه الحرب.

^{١٠} يُشير بهذا البيت والذي يليه إلى هزيمة الطليان أمام الأحباش في معركة عدوة المشهورة سنة ١٨٩٦ ويُعَيِّرهم بالسكوت عن الأخذ بثأرهم في هذه المعركة.

القوة سياج الاستقلال

وقال فيها يدعو إلى التسلح بالقوة للدفاع عن الزمار وصد مطامع الاستعمار، ويُحذّر أمم الشرق من غدر الدول الاستعمارية وعدوانها وتببييتها الشر تحت ستار الود والصدقة:

لا يثْقُ بعضنا ببعض وهذا ما أعد الإنسان للإنسان
إن تُسَلِّم على الغريب فسَلِّم في ظلال السيوف والمران^{١١}
ربما أصبح العناق صراعًا في زمان الآداب والعرفان^{١٢}

التغني بعظمة مصر

وله قصيدة خالدة يتغنى فيها بعظمة مصر ومفاخرها، ويستحث مصر الحديثة على إحياء مجدها، قالها سنة ١٩٠٩ على لسان فرعون مصر يُخاطب قومه ويبعث فيهم روح العمل لبناء مجد الدولة. قال:

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني إذا ونى يوم تحصيل العلا واني

إلى أن قال:

«لا تقربوا «النيل» إن لم تعملوا عملاً فماؤه العذب لم يُخلَق لكسلان»
رُدُّوا المجرة كدًّا دون مورده أو فاطلبوا غيره رِيًّا لظمآن
وابنوا كما بنَت الأجيال قبلكم لا تتركوا بعدكم فخرًا لإنسان
لا تتركوا مُستحيلًا في استحالته حتى يُميط لكم عن وجه إمكان
مقالة هبَّطت من عرش قائلها على مناكب أبطال وشجعان
مادت لها الأرض من زعر ودان لها ما في المقطم من صخر وصوان

^{١١} يريد بالمران الرماح؛ أي القوة المسلحة.

^{١٢} في هذا البيت يتهمك بالدول الأوروبية وما تنطوي عليه من الغدر ونقض العهود في عصر المدنية والعلوم والآداب.

يبنون ما تقف الأجيال حائرة
من كل ما لم يلد فكر ولا فتحت
ويُشبهون إذا طاروا إلى عمل
أمامه بين إعجاب وإذعان
على نظائره في الكون عينان
جنا تطير بأمر من «سليمان»

* * *

«أهرامهم» تلك، حيّ الفن مُتخذًا
قد مر دهر عليها وهي ساخرة
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة
فصغرت كل موجود ضخامتُها
وعاد منكر فضل القوم مُعترفًا
تلك الهياكل في الأمصار شاهدة
إذا أقام عليهم شاهدًا حجرًا
كأنما هي والأقوام خاشعة
تستقبل العين في أثنائها صور
لو أنها أُعطيت صوتًا لكان له

من الصخور بروجًا فوق كيوان
بما يُضعِض من صرح وإيوان
ما يأخذ النمل من أركان نهلان
تسعى اشتياقًا إلى ما خلد الفاني
وغض بنيانها من كل بنيان
يُثني على القوم في سر وإعلان
بأنهم أهل سبق، أهل إمعان
في هيكل قامت الأخرى ببرهان
أمامها صُحف من عالم ثاني
نصيحة الرمز دارت حول جدران
صدى يُروّع صم الإنس والجان

وختمها بقوله:

أين الألى سَجَلوا في الصخر سيرتهم
بادوا وبادت على آثارهم دول
وخلّفوا بعدهم حربًا مُخلّدة
وزُحِزحوا عن بقايا مجدهم وسطًا
ويل له هتك الأستار مُقتحمًا
للجهل أرجح منه في جهالته

وصغّروا كل ذي ملك وسلطان
وأدرجوا طيّ أخبار وأكفان
في الكون ما بين أحجار وأزمان
عليهم العلم ذاك الجاهل الجاني
جلال أكرم آثار وأعيان
إذا هما وُزنا يومًا بميزان

إلى شوقي في منفاه

وكان على ود صميم مع شوقي، وحينما نُفي شوقي من مصر خلال الحرب العالمية الأولى ظل على صلته به، وكان شوقي قد أرسل إليه من منفاه بالأندلس سنة ١٩١٧ بيتين من قصيدة له مشهورة،^{١٣} قال فيهما:

يا ساري البرق يرمي عن جوانحنا بعد الهدوء ويهمي من مآقينا^{١٤}
لما ترقق في دمع السماء دماً هاج البُكا فحَضَبْنَا الأرض باкина!

فأجابه صبري بهذه الأبيات:

يا وامض البرق كم نَبَّهْتَ من شَجِنٍ في أضلعِ ذَهَلَتْ عن دائها حيناً
فالماء في مُقْلٍ، والنار في مُهَجٍ قد حار بينهما أمر المُحِبِّينَا
لولا تذكُّر أيام لنا سلفت ما بات يبكي دماً في الحي باкина
يا آل ودي عودوا لا عدمتكمُ وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا
يا نسمة ضمخت أذيالها سحرًا أزهارُ أندلس هبِّي بوادينا^{١٥}

وقد عاش إسماعيل صبري كريم الخلق، صادقاً عيوفاً، أبيعاً وبيعاً لوطنه وأصدقائه، مُعْتَرِزاً بكرامته، صريحاً مُحَبِّاً للحق، بعيداً عن الزهو والخيلاء، وظل على هذه الأخلاق الفاضلة إلى أن توفي في ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بعد مرض طويل، وخلف كنوزاً من الشعر والوطنية، والفضائل النفسية، أضفت على اسمه هالة من المجد والخلود.

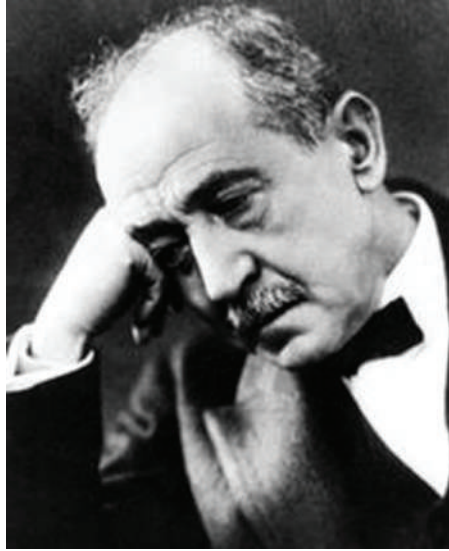
^{١٣} سيرد ذكرها في الحديث عن شوقي.

^{١٤} يريد شوقي أن البرق قد اقتبس اشتعاله من نار جوانحه وتخيل أن ما يهمي به البرق من المطر مُشْتَقٌّ من دموعه.

^{١٥} يُخاطب صبري نسمة الأندلس التي عطَّرتها أزهاره ويعيش في جوفها شوقي ويُناجيها أن تهبَّ عليه في مصر.

أحمد شوقي شاعر الوطنية الأكبر

١٨٧٠-١٩٣٢



بلغ الشعر الوطني ذروته على لسان شوقي وحافظ؛ فلقد حملا لواء النهضة الشعرية في العصر الحديث، وتغنّيا بالوطنية، وكان للحوادث الكبرى التي وقعت في مصر والشرق صداها في شعرهما، وكلاهما كان له أثره وفضله في تغذية الحركة الوطنية بعيون الشعر الوطني، سطع نجمهما في عصر واحد، وغرّدا في جيل واحد، وانتقلا إلى جوار ربهما في

عام واحد (١٩٣٢)، ولم تمضِ على وفاة حافظ ثلاثة أشهر حتى لحق به شوقي في الرفيق الأعلى.

سُمِّي شوقي أمير الشعراء، ولقب الأمير لم يعد يتفق والروح الديمقراطية، ولم تعد الإمارة تُضفي على صاحبها منزلة محترمة، هذا إلى أن شوقي أكبر من أن يُمجَّد بهذا اللقب، فهل نُسَمِّيهِ «سيد الشعراء»؟ إن كلمة السيادة لغير الأمة لم تعد أيضاً تتفق والأوضاع الديمقراطية، فهل نُسَمِّيهِ «زعيم الشعراء»؟ إنه ولا ريب أقدر شعراء عصره، ولم يكن يُنازعه في زعامة الشعر أحد من أُناده ومُعاصريه؛ فلقد عقدوا له لواء الزعامة وبايعوه عليها في المهرجان الذي أُقيم له بمصر سنة ١٩٢٧ وجمع أقطاب الشعراء من العالم العربي وخاطبه فيه صنوه حافظ بقوله:

أَمِيرَ القَوَافِي قَد أَتَيْتُ مُبَايَعًا وَهَذِي وفود الشعر قد بايَعَت معي

على أن لقب «زعيم الشعراء» لا يكفي للتعريف به والتنويه بمكانته، وخير لقب له أن يُسَمَّى «شاعر العربية الأكبر» وأن نُسَمِّيهِ في هذا الكتاب «شاعر الوطنية الأكبر». وُلِدَ أحمد شوقي في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٠ وتعلَّم في المدارس النظامية، ودخل مدرسة الإدارة (الحقوق)، في أوائل عهد الاحتلال، وفي سنة ١٨٧٧ سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق والأدب، وأتم دراسته سنة ١٨٩٣.

أدرك شوقي الاحتلال الإنجليزي وهو شابُّ مُهذَّبٌ مُتَقَفٌ، وعرف كيف عصف الاحتلال باستقلال البلاد، وإذ كانت عبقريته الشعرية قد خُلِقَتْ ووُلِدَتْ معه ولازمته منذ صباه، فقد اقترنت بشعوره الوطني الذي تولَّد في نفسه بالفطرة، وزاده توهُّجاً ورسوخاً رؤيته الاحتلال الأجنبي يجثم على صدر البلاد، فامتزجت شاعريته بوطنيته، وكان لمصر وآلمها صدى بعيد وأثر عميق في شعره، وظل حبه للوطن يُوجِّهه في قصائده ويُلهمه التغريد له والحنو عليه.

التحق منذ عودته إلى مصر بديوان المعية الخديوية، وعَلَّت مكانته لدى الخديو عباس الثاني حتى سُمِّي «شاعر الأمير»، لكن روحه الوطنية لم تتأثر كثيراً من صلته بالقصر، هذا إلى أن الخديو عباس كان في أول عهده بالعرش يُناوئ الاحتلال، والاحتلال يُناوئه،

^١ عن التاريخ الثابت في شهادة الليسانس التي نالها الفقيه من كلية الحقوق بباريس.

حتى إذا جنح لمهادنة الاستعمار، لم يكن لهذا التحول أثر كبير في شعر شوقي، اللهم إلا هدأة وقتية في الحرب المشبوبة بين الأمة والاحتلال، على أن تأصل روح الوطنية في نفسه جعله لا يُجاري الخديو عباس في انصرافه عن الحركة الوطنية، ثم في تنكُّره لها؛ فبقي شعره ينهل من منبع الوطنية الصافي.

وانفصل عن منصبه في القصر بعد خلع الخديو عباس عن العرش في ديسمبر سنة ١٩١٤ وتحرَّر من المنصب الحكومي؛ فزادته الحرية قوة وإنتاجًا، وتحليقًا في سماء الشعر والفن والخيال، واستهدف لاضطهاد السلطة العسكرية البريطانية؛ إذ قرَّرت نفيه وتركت له اختيار البلد الذي يُنفى إليه، فاخترت إسبانيا «الأندلس»، وبقي على عهده للوطن، ثم عاد من منفاه في فبراير سنة ١٩٢٠، والبلاد في غليان الثورة، فاستقبلت مصر شاعرها المُلهَم استقبالا حافلاً رائعاً.

ويمتاز شعر شوقي بقوة البيان، وروعة الموسيقى الشعرية، وسعة الأفق، والتعمق في استيعاب الحوادث التاريخية، قديمها وحديثها، ولقد جرى فحول الشعراء المُتقدِّمين، وبزَّهم في كثير من قصائده، وجدَّد بعض التجديد في الشعر العربي بما اقتبسه عن شعراء الغرب، وعن الثقافة الأوروبية، وسار في التجديد شوطاً بعيداً وخاصة بعد عودته من المنفى؛ إذ وضع عدة مسرحيات شعرية بلغت مبلغاً عظيماً من الفن والموسيقى والجمال، كمصرع كليوباترا، ومجنون ليلي، وعنترة، وغيرهما، وظل يُنتج ويشدو ويُبديع، إلى أن تُوُفي في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢.

الوطنية في شعر شوقي

في قصائد شوقي يسطع نور الوطنية، ويتأجج لهيبها، وهو أغزر الشعراء مادة وأوسعهم إنتاجاً من هذه الناحية، ولقد ظل يستلهم روح الوطنية طول حياته، شاباً وكهلاً وشيخاً، بل إن شعره الوطني في شيخوخته كان أقوى منه في شبابه، وقد يكون مرجع ذلك إلى تجرُّده من الاتصال بالقصر بعد خلع الخديو عباس حلمي، كما أسلفنا، ثم إلى نفيه من مصر في أوائل الحرب العالمية الأولى، فأثار البعد عن الوطن شاعريته، وجاد بأبداع قصائده في الحنين إلى مصر وحبها لها والهيام بها إلى درجة التقديس، ومرجع ذلك أيضاً إلى تأصل عبقرية الشعر في نفسه، فلم تُضعفها السن، ولم ينل منها الزمن، وظلت قوية تتدفق حيوية ونشاطاً.

والوطنية في شعر شوقي هي فيض الفطرة والإلهام، وليست من صنع الظروف أو التكلف؛ ولذلك جاءت قوية جارفة، عميقة رائعة.
فتأمل في أول قصيدة له في ديوانه وهي التي قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد بمدينة جنيف عام ١٨٩٤ ومطلعها:

هَمَّتْ الْفُكْ واحْتَوَاهَا الْمَاءُ وحداها بمن تُقِلُّ الرِّجَاءُ

تجدها آية في شعر الملاحم أو الشعر التاريخي، وتُحَسُّ وأنت تقرؤها أنها قبس من نور الوطنية؛ فهي سجل ناطق لـ «كبار الحوادث في وادي النيل»، وقد بلغ عدد أبياتها ثلاثمائة بيت إلا قليلاً (تسعين ومائتي بيت)، عرض فيها عرضاً أَخَازاً بديعاً تاريخ مصر من أقدم العصور إلى عام نظمها، أشاد بعظمتها ومجد مفاخرها، وحنا عليها في كبواتها، واستنزل السخط على كل من اعتدى عليها.
فانظر إلى قوله عن عظمة مصر:

قُلْ لِبَانِ بَنَى فَشَادَ فِغَالِي لم يَجُزْ مِصْرَ فِي الزَّمَانِ بِنَاءُ
لَيْسَ فِي الْمَمَكَنَاتِ أَنْ تُنْقَلَ الْأَجْدُ بِبَالِ شُمًا وَأَنْ تُنَالَ السَّمَاءُ

ولما انتهى في سرد الحوادث إلى الحملة الفرنسية سجّل إخفاقها وارتدادها عن مصر، قال:

وَأَتَى النَّسْرُ^٢ يَنْهَبُ الْأَرْضَ نَهَبًا حَوْلَهُ قَوْمُهُ النَّسُورُ ظِمَاءُ
يَشْتَهِي النَّيْلَ أَنْ يَشِيدَ عَلَيْهِ دَوْلَةً عَرْضُهَا الثَّرَى وَالسَّمَاءُ
حُلِمَتْ رُومَةٌ بِهَا فِي اللَّيَالِي وَرَأَاهَا الْقِيَاصِرُ الْأَقْوِيَاءُ
فَأَتَتْ مِصْرَ رُسُلُهُمْ تَتَوَالِي وَتَرَامَتْ سُودَانُهَا الْعِلْمَاءُ
وَلَوْ اسْتَشْهَدَ الْفَرَنْسِيْسُ رُومًا لَأَتَتْهُمْ مِنْ رُومَةِ الْأَنْبَاءِ

^٢ الأجدال: جمع جبل.

^٣ يقصد نابليون.

أحمد شوقي شاعر الوطنية الأكبر

علمت كل دولة قد تولّت أننا سُمُّها وأنّا الوباءُ
قاهرُ العصر والممالك نابـ يون ولّت قُواده الكبراءُ
جاء طيشًا وراح طيشًا ومن قبـ لُ أطاشت أناسها العلياُ

وانظر كيف يصور في البيتين الآتين سكوت الأهرام وهي تواجه نابليون بأنه سكوت
السخرية والاستهزاء، وكأنها تتنبأ له بالهزيمة في ختام معاركه. قال:

سكتت عنه يوم عيَّرها الأهـ رامٌ لكن سكوتها استهزاءُ
فهَي تُوحي إليه أن تلك «واتر لو» فأين الجيوش أين اللواءُ؟

وتأمل كيف يُعبّر عن قناة السويس بأنها نكبة على مصر قال:

جمعُ الزاخرين كَرهاً فلا كا نا ولا كان ذلك الإلتقاء
أحمرٌ عند أبيضٍ للبرايا حصة القطر منهما سوداءُ

والقصيدة كلها على هذا الغرار في الإجادة والإبداع، ولقد نظمها وهو في الرابعة
والعشرين، وكأنما رسم فيها منهجه في الشعر، فهو يقتبس من عبقريته الشعرية، ومن
روحه الوطنية معاً، وقد لازمه هذا الامتزاج في شتى قصائده.

شوقي ومصطفى كامل

سارت نهضة الشعر في مصر إلى جانب النهضة الوطنية التي هبَّت لمقاومة الاحتلال؛ ومن
هنا جاءت صلة الزعيم مصطفى كامل بشعراء عصره، وكانت دعوته الوطنية تلقى صدًى
وتأييداً في قصائدهم الغر، بحيث يمكن القول بأن الشعر لم يتألق في سماء مجده مثلاًما
تألق في عهد مصطفى كامل ومحمد فريد.

٤ الإشارة هنا إلى سعيد الذي منح دلسبس امتياز القناة، ويريد بالزاخرين البحر الأبيض المتوسط والبحر
الأحمر.

شعراء الوطنية

وقد ظهر التجاوب بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقي، وزاد في هذا التجاوب أن شوقي كان صديقاً حميماً لمصطفى، وكلاهما مُعجَبٌ بصاحبه أياً إعجاب، ولا غرو فهما صنوان، وفرسا رهان؛ هذا في ميدان الوطنية والجهاد، وذلك في دولة الشعر والبيان، وكان شوقي يعتز بصداقته لمصطفى ومشاركته إياه في تعهده بالروح الوطنية وغرسها في نفوس الجيل، وإلى ذلك يُشير في قصيدته عن ذكرى مصطفى سنة ١٩٢٥ إذ يقول فيها مُخاطباً الفقيه:

أَتَذْكُرُ قَبْلَ هَذَا الْجِيلِ جَيْلاً	سَهَرْنَا عَنْ مُعَلِّمِهِمْ وَنَامَا؟
مِهَارُ الْحَقِّ بَغْضُنَا إِلَيْهِمْ	شَكِيمَ الْقَيْصَرِيَّةِ وَاللِّجَامَا°
«لَوَاؤُكَ» كَانَ يَسْقِيهِمْ بِجَامٍ	وَكَانَ الشَّعْرُ بَيْنَ يَدَيَّ جَامَا
مِنَ الْوَطَنِيَّةِ اسْتَبَقُوا رَحِيْقًا	فَضَضْنَا عَنْ مُعْتَقِّهَا الْخَتَامَا

وكان مصطفى يصف شوقي بأنه «الغدير الصافي في القاف الغاب، يسقي الأرض ولا يَبْصِرُهُ النَّاظِرُونَ»، وكان يُخَصِّصُ لقصائده أسمى مكان في «اللواء»، وفي ذلك يقول شوقي في مراثيه الخالدة:

قَدْ كُنْتَ تَهْتَفُ فِي الْوَرَى بِقَصَائِدِي وَتُجِلُّ فَوْقَ النِّيْرَيْنِ مَكَانِي

وزاره وهو على فراش مرضه الأخير، فطلب إليه مصطفى أن يرثيه إذ أحس دنو أجله؛ وفي ذلك يقول شوقي:

وَجَعَلْتَ تَسْأَلُنِي الرِّثَاءَ فَهَاكَه مِنْ أَدْمَعِي وَسِرَائِرِي وَجَنَانِي

ويبدو الانسجام بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقي في كثير من قصائده.

° مهارة: جمع مهر، والمراد بالمهارة هنا: الشباب. والمراد بشكيم القيصريّة ولجامها: بطش الاحتلال وجبروته.

قصيدة شوقي في وداع اللورد كرومر

فمن ذلك قصيدته المشهورة في وداع اللورد كرومر سنة ١٩٠٧ حين اضطر إلى الاستقالة على أثر حادثة دنشواي؛ ففي أبياتها الروح الوطنية والنقمة على الاحتلال. قال:

أياكم أم عهد إسماعيلاً	أم أنت فرعونُ يسوس النيلاً
أم حاكمٌ في أرض مصر بأمره	لا سائلاً أبداً ولا مسئولاً؟
يا مالكا رقب الرقاب ببأسه	هلاً اتخذت إلى القلوب سيلاً؟
لما رحلت عن البلاد تشهّدت	فكأنك الداء العياء رحيلاً
أوسعنا يوم الوداع إهانةً	أدبٌ لعمرِكَ لا يُصيبُ مثيلاً ^٦

إلى أن قال:

أنذرتنا رقاً يدوم وذلة	تبقى وحالاً لا ترى تحويلاً
أحسبت أن الله دونك قدرة	لا يملك التغيير والتبديلاً؟
الله يحكم في الملوك ولم تكن	دولٌ تُنازعُه القوى لتدولا
فرعونٌ قبلك كان أعظم سطوة	وأعز بين العالمين قبيلاً

* * *

اليوم أخلفت الوعودَ حكومةً	كنا نظن عهودها الإنجيلاً
دخلت على حكم الوداد وشرعه	مصرًا فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهذت ركنها	وأضاعت استقلالها المأمولا

وقال:

قد مدَّ إسماعيل قبلك للورى	ظل الحضارة في البلاد ظليلاً
إن قيس في جود وفي سرف إلى	ما تُنفقون اليوم عدَّ بخيلاً

^٦ يُشير إلى خطبة اللورد كرومر في الحفلة التي أقامها صنائع الاحتلال بدار الأوبرا تكريمًا له وأهان فيها المصريين.

أو كان قد صرع «المفتش» مرة فلکم صرعتَ بدنشواي قتيلا
لا تذكر الكرباج في أيامه من بعد ما أنبتَ فيه زيولا

قصيدته في ذكرى دنشواي

وقصيدته سنة ١٩٠٧ أيضاً عن «ذكرى دنشواي»، بعد مرور عام على حادثتها، في سبيل طلب العفو عن سجنائها، وفيها وصف مؤثّر لهذه المأساة.
قال:

يا دنشوايَ على رُبّاكِ سلامٌ نهبتِ بأنسِ رُبوعِ الأيامِ
شهداءَ حُكمكِ^٧ في البلادِ تفرّقوا هيهاتَ للشملِ الشتيتِ نظامُ
مرّتْ عليهم في اللحدِ أهلةٌ ومضى عليهم في القيودِ العامُ
كيف الأراملِ فيكِ بعد رجالها وبأي حال أصبح الأيتامُ؟
عشرون بيتاً أقفرتْ وانتابها بعد البشاشة وحشة وظلامُ
يا ليت شعري في البروج حمائم أم في البروج مَنية وجمامُ؟
«نيرون» لو أدركتَ عهد «كرومر» لعرفتَ كيف تُنفذ الأحكامُ!

* * *

نُوحِي حمائمَ دنشوايَ ورؤعي شعباً بوادي النيل ليس ينامُ
إن نامتِ الأحياءُ حالتِ بينه سَحَرًا وبين فراشه الأحلامُ
مُتوجّعٌ يتمثل اليوم الذي ضجّتْ لشدة هوله الأقدامُ
السوط يعمل والمَشانقُ أربع مُتوحّدتِ والجنود قيامُ
والمستشار^٨ إلى الفظائع ناظرٌ تدمى جلودُ حوله وعظامُ
في كل ناحية وكل مَحلة جزعاً من الملاء الأسيف زحامُ
وعلى وجوه الثاكليين كآبة وعلى وجوه الثاكلات رُغامُ

^٧ أي حكم المحكمة المخصوصة في قضية دنشواي.

^٨ يريد الكبتن متشل مستشار وزارة الداخلية وكان يُشرف على تنفيذ الحُكم.

رثاؤه لمصطفى كامل

ولما تُوفي مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ رثاه شوقي بقصيدته الخالدة التي تُعد أكبر مرثاة في تاريخ الأدب العربي، ترجم فيها شعوره بالحزن والألم بأيات بينات تجلّت فيها حكمة الشعر وقوة الوطنية وروعة البيان، وقد نُشرت يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يومًا، فأثّرت في النفوس تأثيرًا عميقًا، وجَدّت أحزان الأمة، وحفظناها وحفظها الشباب وقتنّذ عن ظهر قلب؛ لأنها عبّرت عن شعورنا جميعًا في الرزء الفادح، ننشرها كاملة لأنها قطعة من الشعر الوطني الخالد، قال في مطلعها:

المشرقانِ عليك ينتحبانِ	قاصيهما في مأتم والداني
يا خادم الإسلام أجز مجاهد	في الله من خلد ومن رضوان
لما نُعيّت إلى الحجاز مشى الأسى	في الزائرين ورُوع الحرمان
السكة الكبرى ^٩ حيال رباهما	منكوسة الأعلام والقضبان
لم تألّها عند الشدائد خدمة	في الله والمختار والسلطان
يا ليت مكة والمدينة فازتا	في المحفلين بصوتك الرنان
ليرى الأواخر يومَ ذاك ويسمعوا	ما غاب من قس ومن سحبان ^{١٠}
جارَ التراب وأنت أكرم راحل	ماذا لقيت من الوجود الفاني؟

وقال عن مرضه الذي أودى بحياته:

أبكي صباك ولا أعاتب من جنى	هذا عليه كرامة للجاني ^{١١}
يتساءلون أبا السُّلال قضيت أم	بالقلب أم هل مت بالسرطان؟
الله يشهد أن موتك بالحجا	والجد والإقدام والعرفان

^٩ يريد سكة حديد الحجاز.

^{١٠} قس وسحبان خطيبان من أبلغ خطباء العرب.

^{١١} الجاني إشارة إلى مصطفى كامل؛ أي أنه ضحّى بحياته وشبابه في سبيل مصر.

وقال يُشيد بأخلاق الفقيد:

إن كان للأخلاق ركن قائم
بالله فتش عن فؤادك في الثرى
وجدانك الحي المقيم على المدى
في هذه الدنيا فأنت الباني
هل فيه آمال وفيه أمني
ولرب حي ميّت الوجدان

وقال في فلسفة الحياة:

الناس جارٍ في الحياة لغاية
والخلد في الدنيا وليس بهيّن
فلو ان رُسِلَ الله قد جبنوا لما
«المجد والشرف الرفيع صحيفة
وأحبُّ من طول الحياة بذلة
«دقَّتْ قلب المرء قائلٌ له
«فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
للمرء في الدنيا وجم شئونها
فهَيَ القضاء لراغب مُتطلّع

وَمُضِلٌّ يجري لغير عنانٍ
عُليا المراتب لم تُتَحَ لجبانٍ
ماتوا على دين ولا إيمانٍ
جُعِلَتْ لها الأخلاق كالعنوانِ
قَصُرَ يُريك تقاصرَ الأقرانِ
إن الحياة دقائِق وثنائي
فالذكر للإنسان عمر ثاني
ما شاء من ربح ومن خسرانٍ
وهي المَضيق لمُؤثر السلوانِ

* * *

الناس غادٍ في الشقاوة رائح
ومُنعم لم يلقَ إلا لذة
فاصبر على نُعمى الحياة وبؤسها
يشقى له الرحماء وهو الهاني
في طيها شَجَنٌ من الأشجانِ
نُعمى الحياة وبؤسها سِيانِ

وقال مخاطبًا الزعيم:

يا طاهرَ الغدوات والروحات والـ
هل قام قبلك في المدائن فاتح
يدعو إلى العلم الشريف وعنده
خطرات والإسرار والإعلانِ
غازٍ بغير مُهندٍ وسنانٍ؟
أن العلوم دعائم العمرانِ

وقال في وصف الجنازة:

لَفُوكَ فِي عِلْمِ الْبِلَادِ مُنْكَسًّا مَا أَحْمَرُّ مِنْ خَجَلٍ وَلَا مِنْ رِيْبَةٍ
يُزْجُونَ نَعْشَكَ فِي السَّنَاءِ وَفِي السَّنَا وَكَأَنَّهُ نَعَشُ «الْحَسِينِ» بِ «كَرْبِلَا»
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ الْكَرِيمِ وَبِرِهِ وَمَشَى جَلالَ الْمَوْتِ وَهُوَ حَقِيقَةٌ

* * *

شَقَّتْ لِمَنْظَرِكَ الْجُيُوبَ عَقَائِلُ وَالْخَلْقُ حَوْلَكَ خَاشِعُونَ كَعَهْدِهِمْ
يَتَسَاءَلُونَ بِأَيِّ قَلْبٍ تُرْتَقَى فَلَوْ أَنَّ أَوْطَانًا تُصَوِّرُ هَيْكَلًا
أَوْ كَانَ يُحْمَلُ فِي الْجَوَارِحِ مِيتَ أَوْ صِيغَ مِنْ غُرِّ الْفَضَائِلِ وَالْعُلَى
أَوْ كَانَ لِلذِّكْرِ الْحَكِيمِ بَقِيَّةٌ

وقال يصف الفقيد في مرضه الأخير:

وَلَقَدْ نَظَرْتُكَ وَالرَّدَى بِكَ مُحْدِقٍ يَبْغِي وَيَطْغَى وَالطَّبِيبُ مُضِلَّلٌ
وَنَوَاطِرُ الْعُودِ عَنْكَ أَمَالُهَا تُمْلِي وَتَكْتُبُ وَالْمَشَاغِلُ جَمَّةٌ
فَهَشَّشْتَ لِي حَتَّى كَأَنَّكَ عَائِدِي وَرَأَيْتُ كَيْفَ تَمُوتُ آسَادُ الشُّرَى
وَوَجَدْتُ فِي ذَاكَ الْخِيَالَ عَزَائِمًا

* * *

«وجعلتَ تسألني الرثاءَ فهاكه
لولا مُغالَبةُ الشُّجونِ لخاطري
وأنا الذي أرثي الشُّموسَ إذا هوت
من أدمعي وسرائري وجَناني»
لنظمتُ فيك يتيمةَ الأزمانِ
فتعود سيرتها من الدورانِ

* * *

قد كنتَ تهتف في الورى بقصائدي
ماذا دهاني يومَ بِنْتَ فعقني
هوّن عليك فلا شِمتَ بميت
من للحسود بميتة بُلِّغَتْها
عُوفيتَ من حَرَبِ الحياة وحربها
وتُجل فوق النيرات مكاني
فيك القريضُ وخانني إمكاني
إن المنية غاية الإنسانِ
عزّت على كسرى أنوشروانِ
فهل استرحت أم استراح الشاني؟

وقال في ختام القصيدة يذكر فضل مصطفى على مصر:

يا صَبَّ مصرَ ويا شهيدَ غرامها
اخلع على مصر شبابك غالياً
فلعل مصرًا من شبابك ترتدي
فلو ان بالهرمين من عزّماته
علّمتَ شبان المدائن والقُرى
مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
أقسمتُ أنك في التراب طهارةٌ
هذا ثرى مصرِ فنم بأمان
والبس شباب الحور والولدانِ
مجدًا تنيه به على البلدانِ
بعض المُضاء تحرّك الهرمانِ
كيف الحياة تكون في الشبانِ
قبرٌ أبرُّ على عظامك حاني
ملكٌ يهاب سؤاله المَلَكُانِ

شهيد الحق

وكان شوقي لا يفتأ يذكر مصطفى بعد وفاته.
فمن ذلك قصيدته التي نظمها سنة ١٩٢٥ لمناسبة ذكره بعنوان «شهيد الحق»،
تناول فيها ما أصاب البلاد من انقسام وتشاحن وتناحر، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى
مصطفى كامل، فوقاه حقه من التمجيد، قال في مطلعها:

إلامَ الخُلف بينكمو إلاما؟ وهذي الضجة الكبرى علاما؟

وفيمَ يَكِيدُ بعضكمُ لبعضٍ وتُبدون العداوة والخصاما؟
وأين الفوز؟ لا مصر استقرت على حالٍ ولا السودان داما

إلى أن قال:

«ولينا الأمرَ حزبًا بعد حزب فلم نكُ مُصلِحين ولا كراما»
جعلنا الحُكمَ توليةً وعزلاً ولم نعدُ الجزاء والانتقاما
وسُسنّا الأمر حين خلا إلينا بأهواء النفوس فما استقاما

وقال ذاكرًا مناقب الفقيد:

شهِيدَ الحق قَمَ تره يَتِيمًا بأرض ضُيِّعت فيها اليتامي
أقام على الشفاه بها غريبًا ومَرَّ على القلوب فما أقاما^{١٣}
سَقَمَتَ فلم تَبِتْ نفسٌ بخير كأن بمهجة الوطن السقاما
ولم أرَ مثلَ نعشك إذ تهادى فغَطَّى الأرض وانتظم الأناما
تَحَمَّلَ همَّةً وأقلَّ دِينًا وضمَّ مروءة وحوى زماما
وما أنساك في العشرين لما طلعتَ حيالها قمرًا تماما
يُشارُ إليك في النادي وتُرمى بعيني من أحبٍّ ومن تعامى
إذا جئتَ المنابر كنت «قسًا» إذا هو في عكاظ علا السناما
وأنت ألدُّ للحق اهتزازًا وألطف حين تنطقه ابتساما
وتحمل من أديم الحق وجهًا صراحًا ليس يتخذ اللثاما

* * *

أتذكُر قبل هذا الجيل جيلًا سهرنا عن مُعلِّمهم وناما؟
مِهارُ الحق بغَضُّنا إليهم شكيمَ القيصرية واللجاما
لواؤك كان يَسْقِيهم بجام وكان الشعر بين يديّ جاما
من الوطنية استَبَقوا رحيقًا فضَضُّنا عن مُعتَقها الختام

^{١٣} أي أن الحق تنطق به الأفواه ولا يستقر في القلوب.

شعراء الوطنية

غرسنا گرمها فزكا أصولاً بكل قرارة وزكا مُداما
جمعتهم على نبرات صوت كنفخ الصور حرَّكت الرجاما^{١٤}
لك الخطب التي غص الأعادي بسورتها وساعت للندامى^{١٥}
فكانت في مرارتها زئيراً وكانت في حلاوتها بغاما^{١٦}

* * *

«بك الوطنية اعتدك وكانت حديثاً من خرافة أو مناما»
«بنيت قضية الأوطان منها وصيرت «الجلاء» لها دعاما»

وله قصيدة في ذكره سنة ١٩٢٦ قال:

لم يمت من له أثرٌ وحياءٌ من السيَرُ
أدعه غائباً وإن بعدت غاية السَّفَرُ
آيب الفضل كلما آبت الشمس والقمرُ^{١٧}
رُب نور مُتَمِّم قد أتاننا من الحُفَرُ
إنما المِيت من مشى ميَّت الخُبر والخَبَرُ
من إذا عاش لم يُفد وإذا مات لم يضرُ
ليس في الجاه والغنى منه ظلٌّ ولا ثمرُ
قُبْح العز في القصو ر إذا ذلَّت القُصُرُ

* * *

أعوزَ الحقَّ نائداً وإلى «مصطفى» افتقرُ
وتمنَّت حياضه هبَّة الصارم الذكرُ
الذي يُنفذ المُدَى والذي يركب الخطرُ

^{١٤} الرجام: القبور.

^{١٥} السورة: الحدة والشدة. والندامى: جمع نديم والمراد بهم الأنصار والأصدقاء.

^{١٦} البغام: صوت الغلي.

^{١٧} أي يعود للفقيد فضل وتتجدد ذكره كلما آبت الشمس وعاد القمر.

واضع الآس والحجر»	«أيها القوم عظموا
هي من آية الكُبر	اذكروا الخطبة التي
منبرًا تحت مُحْتَضِر	لم يرَ الناس قبلها
وهو يمشي إلى الظفر	لستُ أنسى لواءه
زُمرًا إثرها زمر	حشرَ الناس تحته
لا ترى البيض والسُمر ^{١٨}	وترى الحق حوله
نفخ الروح في الصور	كلما راح أو غدا

* * *

لذة الروح في الصغر	يا أبا النفس في الصبا
لم يُقَوِّم بِمُدَحَّر	وخليلاً نخرته
في فُجاءاته القدر	حالَ بيني وبينه
لم يشب صفوها كدر	كيف أجزي مودة
قل في الشأن أو كثر	غير دمع أقوله
بالخيالات والذكر	وفؤادٍ مُعلَّل
في الأحاديث والسُمر	لم ينم عنك ساعة
مثل ملمومة الصخر	قُم ترَ القوم كتلة
والإخاء الذي شطر	جددوا ألفة الهوى
أو لأسبابه أثر	ليس للخلف بينهم
غاديات من الغير	ألقتهم روائح
وأفاقوا من الخدر ^{١٩}	وصاحوا من منوم
ما لهم غيره وطر	أقبلوا نحو حقهم
شرعوا دونها الإبر	جعلوه خلية
وتداعوا لمؤتمر	وتواصوا بخطة

^{١٨} البيض: السيوف. والسمر: الرماح.

^{١٩} الخدر: الكسل.

وقصارى أولي النهى يتلاقون في الفكر
أذنونا بموقف من جلال ومن خطر
نسمع الليث عنده دون آجامه زأر
قل لهم في نديهم^{٢٠} مصر بالباب تنتظر

شوقي وفريد

لم تكن صلة شوقي بفريد كصلته بمصطفى، وعندما تولى فريد زعامة الحركة الوطنية سنة ١٩٠٨، بعد وفاة الزعيم الأول، كانت سياسة «الوفاق» بين الخديو عباس الثاني والمعتمد البريطاني قد ثبتت قواعدها، وتنگر عباس للحركة الوطنية، ومع صلة شوقي بالقصر واشتداد الجفاء بين الخديو وفريد، فإنه لم يتعرض له بسوء في أي قصيدة له، وكان هذا منه نعم الوفاء للوطنية.

وبدا حب شوقي للحزب الوطني وتأييده له من رثائه لعمر بك لطفي أحد أقطاب هذا الحزب ومؤسس التعاون في مصر، فقد نظم سنة ١٩١١ في رثائه قصيدة بديعة قال في مطلعها:

قفوا بالقبور نساءلُ عمر متى كانت الأرض مَثوى القمر؟

وفيهما يقول:

«نقاباتك» الغر تبكي عليك ويبكي عليك الندى الأعز^{٢١}
ويبكي التعاون من سنه عشية ليس له من أثر
ويبكيك «حزب» تخيرته شريف المرام شريف الوطر
ويبكي الألى أنت علمتهم وأنت غرست فكانوا الثمر

^{٢٠} يريد البرلمان.

^{٢١} نادي المدارس العليا، وكان عمر لطفي رئيسه.

رثاؤه لفريد

ولما تُوفي فريد سنة ١٩١٩ رثاه بقصيدة من عيون شعره، ظهر فيها تقديره للزعيم الشهيد. قال:

كل حي على المنية غادي تتوالى الركاب والموت حادي^{٢٢}
ذهب الأولون قرناً فقرناً لم يدم حاضر ولم يبقَ بادي^{٢٣}
هل ترى منهم وتسمع عنهم غير باقي مآثر وأيادي؟

* * *

كرة الأرض كم رمت صولجاناً وطوت من ملاعب وجياد
والغبار الذي على صفحاتها دوران الرحا على الأجساد
كل قبر من جانب الفقر يبدو علم الحق أو منار المعاد
وزمام الركاب من كل فج ومحط الرحال من كل وادي
تطلع الشمس حيث تطلع نضجاً وتُنحَى كمنجل الحصاد

إلى أن قال:

أسألتُم حقيبة الموت ماذا تحتها من نخيرة وعتاد؟
«إن في طيها إمام صفوف وحواري نية واعتقاد»
لو تركتم لها الزمام لجاءت وحدها بالشهيد دار الرشاد
انظروا هل ترون في الجمع «مصرًا» حاسراً قد تجللت بسواد
تاج أحرارها غلاماً وكهلاً راعها أن تراه في الأصفا
وسدوه التراب نضو سفار في سبيل الحقوق نضو سهاد
واركزوه إلى القيامة رمحاً كان للحشد والندى والطراد
وأقرؤوه في الصفائح غضباً لم يدين بالقرار في الأعماد

^{٢٢} الحادي هو الذي يُغني للقالفة فتنتشط في سيرها.

^{٢٣} الحاضر ساكن الحضر، والبادي ساكن البادية.

وقال مُشيرًا إلى موته في منفاه:

وانتهت محنة وكفّت عوادي	نازح الدار أقصرَ اليومَ بَيْنُ
وشفى من أصادقٍ وأعادي	وكفى الموت ما تخاف وترجو
غاية القرب أو قُصارى البعادِ	من دنا أو نأى فإن المنايا
وافقد العمر لا تؤب من رقادِ	سر مع العمر حيث شئت تأوُّبًا
في قديم من الحديث مُعادِ	ذلك الحق لا الذي زعمُوه
س ومعناه في صدور الصُّعادِ	وجرى لفظُهُ على ألسُن النَّا
كتحلِّي القتال باسم الجهادِ	يتحلى به القوي ولكن

* * *

وقيامًا على حقوق العبادِ	هل ترى كالتراب أحسنَ عدلاً
ففى وحل الملوك بالزُّهادِ	نزل الأقوياء فيه على الضُّعف
سل مغسولة من الأحقادِ	صفحات نقية كقلوب الرُّ

* * *

سِرَّ ذاك اللواء في الأجنادِ	فم إن اسطعت من سريرك وانظر
غير بُنيان ألفة واتحادِ	هل تراهم وأنت مُوفٍ عليهم
هر أو شره على استعدادِ	أمة هُيئت وقوم لخير الد
وتصوغ الرثاء في كل نادِ	مصر تبكي عليك في كل خدر
غرة البر في سواد الجدادِ	لو تأملتَها لراعك منها
رجل مات في سبيل البلادِ	مُنتهى ما به البلاد تُعزَّى
للنجيب الجريء في الأولادِ	أمهات لا تحمل التُّكل إلا
أي ثانٍ لواحد الأحاد؟»	«كـفريد» وأين ثاني فريد
وبلونا وابن الرئيس الجوادِ	الرئيس الجوادِ فيما علِمنا
جسمه عائدٌ من الهم عادي	أكلت ماله الحقوق وأبلى
ح وخفق الفؤاد في العوادِ	لك في ذلك الضنى رقة الرُّو
وطئت في القلوب والأكبادِ	علة لم تصل فراشك حتى
بر وتأبى عليه غير الفسادِ	صادفت قرحة يلائمها الصـ

وَعَدَ الدهر أن يكون ضِمادًا لك فيها فكان شر ضمادٍ
وإذا الروح لم تُنَفِّس عن الجسد سم «فبقراط»^{٢٤} نافح في رماذٍ

قصيدته في ذكره

وفي سنة ١٩٢٤ نظم قصيدة في ذكره الخامسة، وهي من أبلغ شعره وأروع ما قيل في تمجيد فريد ووطنيته وتضحياته. قال:

نُجِدُّ ذَكَرَى عَهْدِكُمْ وَنُعِيدُ وَلِلنَّاسِ فِي الْمَاضِي بَصَائِرُ يَهْتَدِي
إِذَا الْمَيِّتُ لَمْ يَكْرُمْ بِأَرْضِ ثَنَاؤِهِ وَنَحْنُ قِضَاةُ الْحَقِّ نَرعى قَدِيمَهُ
وَنَعْلَمُ أَنَّا فِي الْبِنَاءِ دَعَائِمُ «فَرِيدُ ضَحَايَانَا كَثِيرٌ وَإِنَّمَا
فَمَا خَلَفَ مَا كَابَدَتْ فِي الْحَقِّ غَايَةُ تَغَرَّبَتْ عَشْرًا أَنْتَ فِيهِنَّ بَائِسُ
تَجَوَّعَ بَبْلَدَانِ وَتَعَرَّى بِغَيْرِهَا «أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْحَقِّ طَارِفُ
وَجُودِكَ بَعْدَ الْمَالِ بِالنَّفْسِ صَابِرًا وَنُدْنِي خِيَالِ الْأَمْسِ وَهُوَ بَعِيدُ
عَلَيْهِنَّ غَاوٍ أَوْ يَسِيرُ رَشِيدُ تَحْيَرٌ فِيهَا الْحَيُّ كَيْفَ يَسُودُ
وَإِنْ لَمْ يَفْتِنَا فِي الْحَقِّ جَدِيدُ وَأَنْتُمْ أَسَاسُ فِي الْبِنَاءِ وَطِيدُ
مَجَالِ الضَّحَايَا أَنْتَ فِيهِ فَرِيدُ وَلَا فَوْقَ مَا قَاسَيْتَ فِيهِ مَزِيدُ
وَأَنْتَ بِأَفَاقِ الْبِلَادِ شَرِيدُ وَتَرْزَحُ تَحْتَ الدَّاءِ وَهُوَ عَتِيدُ
مَنْ الْمَالُ لَمْ تَبْخُلْ بِهِ وَتَلِيدُ إِذَا جَزَعَ الْمُحْضُورُ وَهُوَ يَجُودُ

* * *

فَلَا زِلْتَ تَمَثَّلًا مِنَ الْحَقِّ خَالِصًا عَلَى سِرِّهِ نَبْنِي الْعِلَا وَنَشِيدُ
يُعْلَمُ نَشَاءُ الْحَيِّ كَيْفَ هَوَى الْجَمَى وَكَيْفَ يُحَامِي دُونَهُ وَيَذُودُ

حبه وتقديسه للوطن

إن حب شوقي للوطن يتمشى في معظم قصائده، مما تراه في ديوانه، وقد اقتبسنا طرفًا منها، وله فوق ذلك أبيات بلغ فيها حبه للوطن درجة التقديس والعبادة؛ مما يجعلها

^{٢٤} بقراط هو أبو الطب.

تسير مَسْرَى الحِكم والأمثال، على تعاقب السنين والأجيال، وتبعث في نفوس المواطنين روح الإخلاص العميق للوطن والفناء فيه.
كقوله سنة ١٩٢٠ بعد عودته إلى مصر من منفاه:

ويا وطني لقيتُك بعد يأس كأنِّي قد لقيت بك الشبابا
ولو أنِّي دُعيتُ^{٢٥} لكنتَ ديني عليه أَقَابِلَ الحَتمِ المُجابا^{٢٦}
أُديرُ إليك قبل البيت وجهي إذا فُهِتُ الشهادةَ والمَتابا

ففي هذه الأبيات يُقدِّم شوقي الوطن على الدين ويُدير وجهه إلى الوطن قبل الكعبة عندما يلقى ربه.
وقوله سنة ١٩٢٤ مُخاطِبًا الشباب:

وجهُ الكنانة ليس يُغضب ربَّكم أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولُوا إليه في الدروس وجوهكم وإذا فرغتم فاعبدوه هجودا
إن الذي قَسَمَ البلادَ حباكمُ بلدًا كأوطان النجوم مَجيدا
قد كان — والدنيا لُحودٌ كلها — للعبقرية والفنون مُهودا

وقوله وهو في منفاه:

«وطني لو شُغِلْتُ بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي»

أي أنه لو شغل عن الوطن بجنة الخلد وسكنها، لبقيت نفسه تهفو إلى الوطن وتنزع إليه. وقوله من قصيدته سنة ١٩٢٦ في نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسي:

وللأوطان في دم كل حُر يدُ سَلَفَت وَدَيْنٌ مُسْتَحَقُّ
وللحرية الحمراء باب بكل يد مُضَرَّجَةٌ تُدَقُّ

^{٢٥} أي دعيت إلى الموت.

^{٢٦} الحتم المجابا هو الموت.

وقوله:

لا تلوماها أليست حرة وهوى الأوطان للأحرار دين؟

وقال سنة ١٩٠٤:

أحبك مصر من أعماق قلبي وحبك في صميم القلب نامي

وبلغ حبه لمصر أن جعلها كعبة أشعاره قال:

وإني لَغَرَّيد هذا البطاح تغذى جَناها وسلسالها
ترى مصرَ كعبة أشعاره وكل مُعلَّقة قالها

ثورة سنة ١٩١٩

قال من قصيدة له بعنوان «الحرية الحمراء» يُمجّد ثورة ١٩١٩:

يومُ البطولة لو شهدتُ نهاره
غُبِنتُ حقيقته وفات جمالها
لولا عوادي النفي أو عقبانها
لَجَمَعْتُ ألوان الحوادث صورةً^{٢٧}
وحكيته فيها النيل كاظم غيظه
دَعَتِ البلادُ إلى الغمار فغامرت
ثارت على الحامي العتيد وأقسمت
لَنَظِمْتُ للأجيال ما لم يُنظَمْ
باع الخيال العبقري المُلهم
والنفي حالاً من عذاب جهنم
مَثَّلْتُ فيها صورة المُستسلم
وحكيته مُتَغَيِّظاً لم يكظم
وطنيةً بِمُثَقَّف ومُعَلِّم
بسواه جل جلاله لا تحتمي

* * *

يومَ النضال كَسَتْكَ لونَ جمالها
حريةً صَبَغَتْ أديمك بالدم

^{٢٧} يُشير إلى أنه كان في منفاه حين شَبَّتِ الثورة.

تعلقه بالجلاء

ويبدو في شعره مبلغ تعلقه بالجلاء، وإيمانه به، وهذا ولا ريب من فيض الوطنية التي يستلهم منها شعره.
قال في سنة ١٩٢٤ يُخاطب الشباب الذين أُفْرِج عنهم بعد الحكم عليهم في قضية المؤامرة الكبرى:

لَمَّا بَنَى اللَّهُ الْقَضِيَّةَ ^{٢٨} مِنْهُمْ	قَامَتْ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ عَمُودًا
جَادُوا بِأَيَّامِ الشَّبَابِ وَأَوْشَكُوا	يَتَجَاوِزُونَ إِلَى الْحَيَاةِ الْجُودَا
طَلَبُوا «الْجَلَاءَ» عَلَى الْجِهَادِ مَثُوبَةً	لَمْ يَطْلُبُوا أَجْرَ الْجِهَادِ زَهِيدًا
«وَاللَّهِ مَا دُونَ الْجَلَاءِ وَيَوْمَهُ	يَوْمٌ تُسَمِّيهِ الْكِنَانَةَ عِيدًا»
وَجَدَ السَّجِينَ يَدًا تُحْطَمُ قِيدَهُ	مَنْ ذَا يُحْطَمُ لِلْبِلَادِ قِيودًا؟

وحدة وادي النيل

وقال في يوليو سنة ١٩٢٤ عن وحدة وادي النيل من قصيدة له في استنكار حادث الاعتداء على المرحوم سعد زغلول ونجاته من محاولة اغتياله:

وَلَنْ نَرْضَى أَنْ تُقَدَّ الْقَنَاةُ	وَيُبَيَّرَ مِنْ مِصْرَ سُوْدَانُهَا
فَمِصْرَ الرِّيَاضِ، وَسُوْدَانُهَا	عِيُونَ الرِّيَاضِ وَخَلْجَانُهَا
وَمَا هُوَ مَا لَّا وَلَكِنَّهُ	وَرِيدَ الْحَيَاةِ وَشَرِيَانُهَا
تُتَمَّمُ مِصْرَ يَنَابِيعُهُ	كَمَا تَمَّمُ الْعَيْنَ إِنْسَانُهَا
وَأَهْلُوهُ مِنْذُ جَرَى عَذْبُهُ	عَشِيرَةُ مِصْرَ وَجِيرَانُهَا

^{٢٨} يقصد القضية الوطنية.

مشروع ملنر

هو مشروع المعاهدة الذي انتهت إليه مفاوضات سعد-ملنر سنة ١٩٢٠ ويحمل في طياته عناصر الحماية، وكان ممن عارضوه المرحوم الدكتور عبد الحميد أبو هيف، فلما توفي سنة ١٩٢٦ رثاه شوقي في قصيدة أشار فيها إلى هذه المعارضة وأيدها. قال:

بالأمس كانت لابن هيف غُضبة	للحق نذكرها يدًا بيضاء
مشت البلاد إلى رسالة «ملنر»	وتحقّزت أرضًا لها وسماء
فلمحتُ أعرجَ في زوايا الحق لم	أعلم عليه ذمة عرجاء ^{٢٩}
ارتدّت العاهات عن أخلاقه	لسموّهن وحلّت الأعضاء
لما رأى «التقرير» ينفث سمه	سبق الحواة فأخرج الرقطاء ^{٣٠}
هتك الحماية والرجال وراءها	يتلمسون لها الستور رياء

تصريح ٢٨ فبراير

وقال عن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢:٣١

ربحت من «التصريح» أن قيودها	قد صرن من ذهب وكُنّ حديدا
أوما ترون على «المنابع» ^{٣٢} عُدّة	لا تنجلي وعلى «الضفاف» عديدا
يا فتية النيل السعيد خذوا المدى	واستأنفوا نفْسَ الجهاد مديدا

^{٢٩} أصيبَ المرحوم أبو هيف بمرض بُرّت فيه ساقه وكان يمشي على ساق صناعية.

^{٣٠} الرقطاء: الحية.

^{٣١} هو التصريح الذي أعلنته بريطانيا في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وأقرّت فيه بانتهاء الحماية على مصر وبالاعتراف باستقلالها واحتفظت فيه بتولي أمور أربعة تعصف بجوهر الاستقلال وهي: (١) تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر. (٢) الدفاع عن مصر. (٣) حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات. (٤) السودان.

^{٣٢} منابع النيل بالسودان، وعُدّة أي جنودًا، والضفاف ضفاف قناة السويس.

يدعو إلى التضحية ويهاجم الاستعمار

قال يدعو إلى الجَلَد والتضحية:

والمرء ليس بصادق في قوله حتى يُؤَيِّد قوله بفعالِه
والشعب إن رام الحياة كبيرةً خاض الغمار دماً إلى أمالِه

ومن قصيدته سنة ١٩٢٦ في نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسي:

لَحَاها اللهُ أنباءُ تَوَالَتْ على سمع الولي بما يَشُقُّ^{٣٣}
يُفَصِّلُها إلى الدنيا بريد ويُجَمِّلُها إلى الآفاق بَرَقُ
وللمُسْتَعْمِرِينَ وإن ألانوا قلوبٌ كالحجارة لا تَرَقُ
رماك بطيشه ورمى فرنسا أخو حرب به صَلفٌ وحُمُقُ
إذا ما جاءه طُلاب حق يقول عصابةً خرجوا وشَقُوا
دُمُ الثوار تعرفه فرنسا وتعلم أنه نور وحقُ

إلى أن قال:

نصحتُ ونحن مُخْتَلِفُونَ دارًا ولكن كُلُّنا في الهم شَرِقُ
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد بيان غير مُخْتَلِفٍ ونُطْقُ
وقفتم بين موت أو حياة فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا
«وللأوطان في دم كل حر يدُ سَلَفَتٍ وَدَيْنُ مُسْتَحَقِّ»
ومن يسقي ويشرب بالمنايا إذا الأحرار لم يُسْقُوا وَيَسْقُوا؟
ولا يبني الممالك كالضحايا ولا يُدْني الحقوق ولا يحقُ
ففي القتلَى لأجيال حياة وفي الأسرى فدَى لهمْ وعتقُ
وللحرية الحمراء بابُ بكل يد مُضَرَّجة يُدَقُّ

^{٣٣} الولي أي المحب والصديق.

يشفق على الوطن

من قصيدة له في استقبال عيد الفطر يُشفق على مصر ويقول أن لا عيد حتى تتحقق أهدافها:

وطني أسفتُ عليك في عيد الملا	وبكيتُ من وجد ومن إشفاق
لا عيدَ لي حتى أراك بأمة	شماء راوية من الأخلاق
ذهب الكرام الجامعون لأمرهم	وبقيتُ في خَلَفٍ بغير خلاق ^{٣٤}
أيظلُّ بعضهم لبعض خاذلاً	ويقالُ شعبٌ في الحضارة راقى؟
وإذا أراد الله إشقاء القرى	جعل الهداة بها دعاة شقاق

يدعو إلى الأخلاق

إن بيته المشهور عن الأخلاق هو ديوان من الشعر تتجلى فيه الحكمة الأزلية في أن الأخلاق هي أساس حياة الأمم وسبيلها إلى العظمة والمجد:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

وقد أكد هذا المعنى الرائع في غير موضع.
قال:

وإذا أُصيبَ القوم في أخلاقهم فأقيم عليهم مأتماً وعويلا

وقال:

وما السلاح لقوم كل عدتهم حتى يكونوا من الأخلاق في أهب

^{٣٤} الخلاق: النصيب الوافر من الخير.

وقال أيضًا:

على الأخلاق خُطُوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركنٌ

وقوله:

المجدُّ والشرفُ الرفيعُ صحيفةٌ جُعِلَتْ لها الأخلاق كالعنوانِ

وقوله:

وإذا ما أصاب بُنيانَ قوم وهى خُلِقَ فإنه وهى أُسِّ

وقوله:

كذا الناس بالأخلاق يبقى صلاحهم ويذهب عنهم أمرهم حين تذهبُ

وقوله:

ولقد يُقام من السيوف وليس من عثرات أخلاق الشعوب قيامُ

ومن قصيدته «نهج البردة»:

صلاح أمرِك للأخلاق مَرَجَعُه فقوِّم النفس بالأخلاق تستقيمِ
والنفس من خيرها في خير عافية والنفس من شرها في مرتع وخمِ

وقوله:

وكان جنابُهم فيها مهيبا وللأخلاقُ أجدرُّ أن تُهابا

أحمد شوقي شاعر الوطنية الأكبر

وقال في هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٢٠:

وليس بعامرٍ بِنِيانُ قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

وقوله:

ولا المصائب إذ يُرمى الرجال بها بقاتلات إذا الأخلاق لم تُصَبِّ

يدعو إلى الوحدة الوطنية

من قصيدة له في رثاء بطرس غالي سنة ١٩١٠:

الحق أبْلَج كالصباح لناظر	لو أن قومًا حَكَّموا الأحلاما
أَعْهَدَتْنَا وَالْقَبْطَ إِلَّا أُمَّة	للأرض واحدةً تروم مَراما
نُعَلِّي تَعَالِيمَ الْمَسِيحِ لِأَجْلِهِم	وَيُوقِّرُونَ لِأَجْلِنَا الْإِسْلَاما
الدين للديان جل جلاله	لو شاء ربك وَحَّدَ الْأَقْواما
يا قوم بَانَ الرشد فاقضوا ما جرى	وخذوا الحقيقة وانبذوا الأوهاما
هذي ربوعكم وتلك ربوعنا	مُتَقَابِلِينَ نُعَالِجُ الْأَياما
هذي قبوركُم وتلك قبورنا	مُتَجَاوِرِينَ جَماعِمًا وَعَظاما
فبحرمة الموتى وواجب حقهم	عيشوا كما يقضي الجوار كراما

وقال من قصيدة أخرى له في هذا المعنى سنة ١٩١٠:

تعالوا عسى نطوي الجفاء وعهده	وننبذ أسباب الشُّقاق نواحيا
ألم تكُ «مصر» مَهْدَنَا ثم لحدنا	وبينهما كانت لكل مغانيا
ألم تكُ من قبل «المسيح بن مريم»	و«موسى» و«طه» تعبد النيل جاريا
فهلَّا تساقينا على حبه الهوى	وهلَّا فديناه ضفافًا وواديا
وما زال منكم أهل ود ورحمة	وفي المسلمين الخير ما زال باقيا
فلا يثنكم عن ذمة قتلُ «بطرس»	فقدّمًا عرفنا القتل في الناس فاشيا

القوة في الاتحاد

صوت الشعوب من الزئير مُجمَّعًا فإذا تفرَّق كان بعض نباحٍ

يستحث الشباب على العلم والجهاد

قال مُخاطبًا الشباب في قصيدة نظمها سنة ١٩٢٤:

يا شباب الغد وأبنائي الفدى
هل يمد الله لي العيش عسى
وأرى تاجكم فوق السُّها
من رآكم قال مصر استرجعت
أمة للخلد ما تبني إذا
إنما مصر إليكم وبكم
عصركم حر ومستقبلكم
لا تقولوا حطَّنا الدهر فما
هل علمتم أمةً في جهلها
باطن الأمة من ظاهرها
فخذوا العلم على أعلامه
«واقرءوا تاريخكم واحتفظوا
أنزل الله على ألسنهم
واحكموا الدنيا بسلطان فما
«واطلبوا المجد على الأرض فإن

لكم أكرم وأعزَّ بالفداء
أن أراكم في الفريق السعداء
وأرى عرشكم فوق ذُكاء
عزها في عهد «خوفو» و«مناء»
ما بنى الناس جميعًا للعفاء
وحقوق البر أولى بالقضاء
في يمين الله خير الأمناء
هو إلا من خيال الشعراء
ظهرت في المجد حسناء الرداء
إنما السائل من لون الإناء
واطلبوا الحكمة عند الحكماء
بفصيح جاءكم من فصحاء»
وحيه في أعصر الوحي الوضاء
خُلِّقَتْ نضرته للضعفاء
هي ضاقت فاطلبوه في السماء!

يدعو إلى إنكار الذات

وقال مُخاطبًا الشباب في قصيدة قالها سنة ١٩٢٤:

قالوا أتنظم للشباب تحية تبقي على جيد الزمان قصيدا
قلت الشباب أتم عقد مآثر من أن أزيدهمُ الثناء عقودا

أحمد شوقي شاعر الوطنية الأكبر

قَبَلَتْ جَهودَهُم البلادُ وَقَبَّلَتْ تاجًا على هاماتهم معقودا
خرجوا فما مدوا حناجرهم ولا منُّوا على أوطانهم مجهودا
«خفي الأساس عن العيون تواضعًا من بعد ما رفع البناء مشيدا»

حكمه وعظاته

تنساب في شعر شوقي الحكَم والعظات يُخاطَب بها مواطنيه ويُبصِّرهم بِعَبَر التاريخ وعظات الحوادث، مما نذكر طرفًا منه.

جلال الخالدين

قال عن جلال الملوك وأنه إلى زوال ولا يبقى إلا جلال الخلود:

جلال الملك أيامٌ وتمضي ولا يمضي جلال الخالدينا

الخلود للعمل الصالح

وقال سنة ١٩٢٣ عن الخلود وأنه للعمل الصالح:

مَنْ سرَّه ألا يموت فبالْعُلَى خُلِدَ الرجال وبالفعال النايه
ما مات من حاز الثرى آثاره واستولت الدنيا على آدائه
قُلْ لِلْمُدِلِّ بماله وبجاهه وبما يُجِلُّ الناس من أنسائه
هذا الأديم يصد عن حُضَّاره وينام ملء الجفن عن غِيَّائه
إلا فتى يمشي عليه مُجَدِّدًا ديباجتيه مُعَمَّرًا لخرايه

العدل أساس الملك

وقال في العدل:

والعدل في الدولات أَسُّ ثابت يُفني الزمان ويُنقِذ الأجيالا

فلسفة الحياة

وقال من قصيدته في رثاء مصطفى كامل:

دَقَّتْ قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثواني

ومن قوله في ذكرى كارنارفون مكتشف كنوز توت عنخ آمون:

في الموت ما أعيأ^{٣٥} وفي أسبابه كل امرئ رهنٌ بطيِّ كتابه
إن نام عنك فكل طب نافع أو لم ينم فالطب من أذنايه

إلى أن قال مُنَوِّهاً بفضل كارنارفون في اكتشافاته الأثرية:

أَفْضَى إلى خَتم الزمان ففضَّه وحبا إلى التاريخ في محرابه
وطوى القرون القهقري حتى أتى فرعونَ بين طعامه وشرابه

ومن قوله في العظة والاعتبار حين سقطت أدرنة، وكانت من أمهات المدن الإسلامية في مقدونية وغلبها البلغار سنة ١٩١٢:

يا أخت أندلس عليك سلامٌ هوت الخلافة عنك والإسلامُ

إلى أن قال يُنَدِّدُ بسياسة الترك:

رفعوا على السيف البناء فلم يدم ما للبناء على السيوف دوامُ
أبقى الممالك ما المعارفُ أسَّه والعدل فيه حائط ودعامُ
«إن الغرور إذا تملَّك أمة كالزهر يُخفي الموت وهو زؤامُ»

^{٣٥} ما أعيأ أي ما أعجز عن إدراك حقيقته، ورهن بطي كتابه أي باقي في الحياة حتى ينتهي أجله.

لا حق للضعيف

وقال سنة ١٩٢٣ أثناء انعقاد مؤتمر لوزان مُشيرًا إلى صلف الإنجليز مع مصر لأنها لم يكن لها من القوة ما تسترد به حقها:

أتعلم أنهم صلفوا وتاهوا	وصدوا الباب عنا مُوصدين؟
ولو كنا نجرُّ هناك سيفًا	وجدنا عندهم عطفًا ولينا
سيقضي «كرزن» بالأمر عنا	وحاجات «الكثانة» ما قضينا

وقال في هذا المعنى:

يا طيرُ والأمثالُ تَضُ	رب للبيب الأمثل
دُنْيَاك من عاداتها	ألا تكون لأعزل

الحكم للشعوب، لا للمستبدين

قال سنة ١٨٩٤ في أول قصيدة له في ديوانه يُنبِّه الملوك إلى قوة الشعوب ويدعوهم إلى النزول على حكمها:

إن ملكَت النفوس فابغِ رضاها	فلها ثورة وفيها مُضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأس	ر فكيف الخلائق العقلاء؟
يحسب الظالمون أن سيسودو	ن وأن لن يُؤيَّد الضعفاء
والليالي جوائر مثلما جا	روا وللدهر مثلهم أهواء

وقال سنة ١٩٢٢ يُبشِّر بحكم الشعوب وزوال حكم الفرد:

زمان الفرد يا فرعون ولى	ودالت دولة المُتجبرِّينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض	على حكم الرعية نازلينا

وقال سنة ١٩٢٣ يُنَدِّدُ بِالْمُسْتَبِدِّينَ:

المُسْتَبِدُّ يُطَاقُ فِي نَاوُوسِهِ لَا تَحْتَ تَاجِيهِ وَفَوْقَ وَثَائِهِ^{٣٦}
وَالْفَرْدُ يُؤَمِّنُ شَرَّهُ فِي قَبْرِهِ كَالسَيْفِ نَامَ الشَّرُّ خَلْفَ قِرَائِهِ^{٣٧}

وقال في هذا المعنى يُخَاطِبُ تَوْتِ عَنخِ آمُونِ سنة ١٩٢٥:

قَسَمًا بَمَنْ يُحْيِي الْعِظَا مَ وَلَا أَزِيدُكَ مِنْ يَمِينُ
لَوْ كَانَ مِنْ سَفَرِ إِيَا بَكَ أَمْسَ أَوْ فَتَحَ مُبِينُ
لَرَأَيْتَ جِيلًا غَيْرَ جِيءَ لَكَ بِالْجَبَابِرِ لَا يَدِينُ
وَرَأَيْتَ مُحْكُومِينَ قَدْ نَصَبُوا وَرَدُّوا الْحَاكِمِينَ^{٣٨}
رُوحَ الزَّمَانِ وَنَظْمَهُ وَسَبِيلَهُ فِي الْآخِرِينَ
«إِنَّ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ فَرَاغًا مِنَ الْفَرْدِ اللَّعِينُ»
فَإِذَا رَأَيْتَ مَشَايِخًا أَوْ فَتْيَةً لَكَ سَاجِدِينَ
لَاقِ الزَّمَانَ تَجْدَهُمْ عَنْ رُكْبِهِ مُتَخَلِّفِينَ
هَمَّ فِي الْآخِرِ مَوْلِدًا وَعَقُولُهُمْ فِي الْأَوَّلِينَ

الشعب قد يُخَدَع

قال في مسرحية «مصرع كليوباترة» على لسان «حابي» يُخَاطِبُ «ديون»: ^{٣٩}

اسْمَعْ الشَّعْبُ دِيُونُ كَيْفَ يُوحُونَ إِلَيْهِ
مَلَأَ الْجَوَّ هُتَافًا بِحَيَاتِي قَاتِلِيهِ
أَثَّرَ الْبَهْتَانُ فِيهِ وَانْطَلَى الزُّورُ عَلَيْهِ
يَا لَهُ مِنْ بَبْغَاءٍ عَقْلُهُ فِي أَذْنِيهِ

^{٣٦} الناووس: القبر. والوثاب: السرير.

^{٣٧} قراب السيف: غمده.

^{٣٨} نصبوا وردوا: أي ولوا وعزلوا الحاكمين.

^{٣٩} حابي وديون من أشخاص الرواية وكلاهما من أمناء مكتبة قصر كليوباترة.

الحياة الدستورية السليمة

قال عن الدستور:

شر الحكومة أن يُساس بواحد في الملك أقوامٌ عداد رماله

وقال سنة ١٩٢٤ من قصيدة له عن «الأزهر»:

وتفَيَّئُوا الدستور تحت ظلاله	كنفًا أهشَّ من الرياض وأنضرا
«لا تجعلوه هوى وخُلُفًا بينكم	ومَجَرَّ دنيا للنفوس ومَتَجِرا»
اليوم صرَّحت الأمور فأظهرت	ما كان من خدع السياسة مُضَمِّرا
قد كان وجه الرأي أن نبقي يدًا	ونرى وراء جنودها إنجلترا
فإِذا أتتنا بالصفوف كثيرةٌ	جئنا بصف واحد لن يُكسِّرا

وقال سنة ١٩٢٦ من قصيدة له في عيد الجهاد:

وبالدستور وهو لنا حياة	نرى فيه السلامة والفلاحا
أخذناه على المَهْج الغوالي	ولم نأخذه نَيْلاً مُستَمَاحا
بنينا فيه من دمع رواقا	ومن دم كل نابذة جناحا

وقال سنة ١٩٢٧ عن الحياة الدستورية السليمة:

إذا سلِمَ الدستور هان الذي مضى	وهان من الأحداث ما كان آتيا
ألا كل ذنب للليالي لأجله	سدلنا عليه صَفْحنا والتناسيا

وقال سنة ١٩٢٦ حينما اجتمع المؤتمر الوطني يوم ١٩ فبراير من تلك السنة واثلت فيه الأحزاب، يُحيي الدستور لمناسبة عودته بعد توحيد الصفوف:

صرَّح^{٤٠} على الوادي المبارك ضاحي مُتَظَاهِر الأعلام والأوضاعِ

^{٤٠} يريد الدستور.

ضافي الجلالة كالعتيق مُفصَّل
وكان رفرفه رواق من ضحَى
الحق خلف جناح استذرى^{٤١} به
هو هيكَل الحرية القاني، له
يُبنى كما تُبنى الخنادق في الوغى
ينهار الاستبداد حول عِراضه
ويكبُّ طاغوت الأمور لوجهه

ساحات فضل في رحاب سماح
وكان حائطه عمود صباح
ومراشد السلطان خلف جناح
ما للهياكل من فدَى وأضاح
تحت النبال وصوبها السحاح
مثل انهيار الشرك حول «صلاح»^{٤٢}
مُتحطَّم الأصنام والأشباح

* * *

هو ما بنى الأعزال بالراحات أو
أخذته «مصر» بكل يوم قاتم
هبت سماحاً بالحياة شبابها
ومشت إلى الخيل الدوارع وانبرت
وقفات حق لم تقفها أمة
وإذا الشعوب بنوا حقيقة مُلكهم

هو ما بنى الشهداء بالأرواح
ورد الكواكب أحمر الإصباح
والشيب بالأرماق غير شحاح
للظافر الشاكي بغير سلاح
إلا انثنت آمالها بنجاح
جعلوا المآتم حائط الأفراح

إلى أن قال في توحيد الصفوف:

بشرى إلى الوادي تهزُّ نباته
تسري مُلمحة الحُجول على الرُّبى
التأمت الأحزاب بعد تصدُّع
سُحبت على الأحقاد أذيال الهوى
وجرت أحاديث العتاب كأنها
ترمي بطرفك في المجامع لا ترى

هزَّ الربيع مَناكب الأدواح
وتسيل غُرتها بكل بطاح
وتصافت الأقلام بعد تلاح
ومشى على الضغن الوداد الماحي
سمَر على الأوتاد والأقداح
غير التعانق واشتباك الراح

^{٤١} استذرى: استظل.

^{٤٢} صلاح: اسم لمكة.

إلى أن قال يصف تعطيل الدستور عام ١٩٢٥:

احتلَّ حصنَ الحقِّ غيرُ جنوده	وتكالبَت أيدٍ على المفتاحِ
ضجَّت على أبطالها ثُكُناته	واستوحشت لُكُماتها النُّزاحِ
هُجرت أرائكه وعطلَّ عوده	وخلا من الغادين والرُّواحِ
وعلاه نسجُ العنكبوت فزاده	كالغار من شرفٍ وسمتِ صلاحِ

وقال ينصح الشباب:

قُل للبنين مقال صدق واقتصد	ذرْعُ الشباب يضيق بالنُّصاحِ
أنتم بنو اليوم العصيب نشأتُم	في قصف أنواء وعصف رياحِ
ورأيتم الوطن المؤلَّف صخرةً	في الحادثات وسيلها المجتاحِ
وشهدتُم صدع الصفوف وما جنى	من أمر مُفتاتٍ ونهيٍ وقاحِ
صوت الشعوب من الزئير مُجمَعاً	فإذا تفرَّق كان بعضُ نُباحِ
أظمتكم الأيام ثم سقتكم	رنقاً من الإحسان غير قراحِ
وإذا مُنحتَ الخير من مُتكلف	ظهرت عليه سجية المَناحِ
تركتكم مثل المَهيض جناحه	لا في الحبال ولا طريق سراحِ
من صيّر الأغلال زُهر قلائد	وكسا القيود محاسن الأوضاحِ
إن التي تبغون دون مَنالها	طولُ اجتهدا واضطرادُ كفاحِ
سيروا إليها بالأناة طويلة	إن الأناة سبيل كل فلاحِ
وخذوا بناء المُلك عن دستوركم	إن السُّراع مُثَقَّف المَلّاحِ

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٦ حين اجتمع برلمان الائتلاف:

الحق أبلج والكنانة حرة	والعز للدستور والإكبارُ
الأمر شورى لا يعيث مُسلط	فيه ولا يطغى به جبَّارُ
عهدُ من الشورى الظليلة نُضرت	أصاله واخضلتُ الأسحارُ
تجني البلاد بها ثمار جهودها	ولكل جهد في الحياة ثمارُ
بُنَيان آباء مشوا بسلاحهم	وبنين لم يجدوا السلاح فثاروا

شعراء الوطنية

ففيه من التل المُدرِّج حائط	ومن المشانق والسجون جدارُ
أَبَتَ التَّقِيدَ بالهوى وتقيَّدَت	بالحق أو بالواجب الأحرارُ
في مجلس لا مالُ مصر غنيمة	فيه ولا سلطانُ مصر صغارُ
ما للرجال سوى المراشد منهج	فيه ولا غير الصلاح شعارُ
يتعاونون كأهل دار زُلزَلَت	حتى تقرر وتطمئن الدارُ
يُجرون بالرفق الأمور وملكها	والريح دون الفلك والإعصارُ
ومع المُجدِّد بالأناة سلامة	ومع المُجدِّد بالجماح عثارُ

يدعو إلى انتخاب الأكفاء الشرفاء

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٢ قال في مطلعها:

أُعدَّت الراحة الكبرى لمن تعباً وفاز بالحق من لم يأله طلباً

إلى أن قال مُشيرًا إلى الانتخابات البرلمانية:

دار النيابة قد صُفَّت أرائكُها لا تُجلِسوا فوقها الأحجار والخُشبا
اليومَ يا قوم إذ تبنون مجلسكم تبنون للعقب الأيام والحُقبا

ومن قصيدته سنة ١٩٢٤ عن «الأزهر»:

دار النيابة هُيئَت درجاتها فليرقَ في الدرَج الذوائبُ والذُرَى
الصارخون إذا أُسيءَ إلى الحمى والذائدون إذا أُغِيرَ على الشرى
لا الجاهلون العاجزون ولا الألى يمشون في زهب القيود تبخترًا

رؤاد الوطنية

قال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له في رثاء المرحوم عبد اللطيف الصوفاني:

أَلَسْتَ من فئة سهام سَنُوا المحاماة والرِّماء
فَتَاهُم بالشباب ضحَى ما أعظم الذَّبْحَ والفداء

ومات أبطالهم جياعًا	في غير أوطانهم ظمأ
ولو أرادوا متاع دنيا	لأدركوا الحُكم والثراء
قضية الحق منذ قامت	لم تألُ أركانها بناء
تحذو على مصطفى وتبني	جيلًا من الحق أقوياء
شرعتم للشباب دينًا	كدينهم بيّنًا سواء
لما أتيتم به جعلتم	رأس تعاليمه «الجلاء»
جمعتم مصر ثم سرتهم	فكنتم الجمع واللواء
وما عرفتم لغير مصر	وغير أحبابها ولاء
لم تمسحوا للعميد رأسًا	ولا نفضتم له حذاء

وقال من قصيدة يرثي فيها أمين الرافعي:

قيل غالٍ في الرأي قلتُ هَبْوه	قد يكون الغلو رأيًا أصيلا
وقديماً بنى الغلو نفوسًا	وقديماً بنى الغلو عقولا
قد فقدنا به بقية رهط	أيقظوا النيل واديًا ونزيلا
حرّكوه وكان بالأمس كالكهـ	ف حزنًا وكالرقيم سهولا
يا أمين الحقوق أدّيت حتى	لم تخن مصر في الحقوق فتिला
ولو اسطعت زدت مصر من الحق	على نيلها المبارك نيلا
لست أنساك قابعًا بين درجـ	ك مُكبًا عليهما مشغولا
قد توازيت في الخشوع فخالو	ك ضئيلًا وما خلقت ضئيلًا
سائل «الشعب» عنك و«العلم» الخفـ	ساق أو سائل «اللواء» الظليلا
تُنشد الناس في «القضية» لحنا	كالحواري رتل الإنجيلا
ماضيًا في الجهاد لم تتأخر	تزن الصف أو تُقيم الرعيلا
ما تُبالي مضيت وحدك تحمي	حوزة الحق أم مضيت قبيلًا

يدعو إلى النهضة الاقتصادية

قال سنة ١٩٢٠ من قصيدة له في الاحتفال بإنشاء بنك مصر يدعو إلى الاكتتاب في رأس مال البنك، ويُنوّه بفضل المال في نهضة الأمم:

قَفْ بالممالك وانظر دولة المالِ واذكُر رجلاً أدالوها بإجمالِ

إلى أن قال:

يا طالباً لمعالي المُلْك مُجْتَهِداً خذها من العلم أو خذها من المالِ
«بالعلم والمال يبني الناس ملكهم» لم يُبْنَ مُلْك على جهل وإقلالِ
سراة مصر عهدناكم إذا بُسِطَتْ يد الدعاء سراعاً غير بُخَّالِ
تبَيَّنَ الصدق من بين الأمور لكم فامضوا إلى الماء لا تلوا على الآلِ
لا يذهب الدهر بين التُّرْهات بكم وبين زهر من الأحلام قَتَّالِ
هاتوا الرجال وهاتوا المال واحتشدوا رأياً لرأي ومثقالاً بمثقالِ
هذا هو الحجر الدرِّي بينكم فابنوا بناء قريش بيتها العاليِ
آمال مصر إليها طالما طمحت هل تبخلون على مصر بآمالِ
فابنوا على بركات الله واغتنموا ما هيأ الله من حظ وإقبالِ

وقال في قصيدة أخرى:

المُلْك بالمال والرجالِ لم يُبْنَ مُلْك بغير مالِ

يُحيي النهضة النسوية

كان مُؤيِّداً ونصيراً لنهضة المرأة، ألقى هذه القصيدة سنة ١٩٢٤ في جمع حافل من السيدات المصريات بمسرح حديقة الأزبكية، وجعل عنوانها في ديوانه «مصر تُجدِّد مجدها بنسائها المتجدِّدات». قال:

قُمْ حيِّ هذي النيِّراتِ حيِّ الحِسانِ الخيِّراتِ

واخْفِضْ جَبِينَكَ هَيْبَةً لِلْخُرْدِ الْمُتَخَفِّراتِ^{٤٣}
 زَيْنَ الْمَقَاصِرِ وَالْحِجَابِ لِوَزِينِ مَحْرَابِ الصَّلَاةِ
 هَذَا مَقَامُ الْأُمَمِهَا تَفَهَلْ قَدَّرْتَ الْأُمَمَاتِ؟
 لَا تَلْعُ^{٤٤} فِيهِ وَلَا تَقُلْ غَيْرَ الْفَوَاصِلِ مُحْكَمَاتِ
 وَإِذَا خَطَبْتَ فَلَا تَكُنْ خُطْبًا عَلَى مَصْرِ الْفَتَاةِ
 اذْكُرْ لَهَا الْيَابَانَ لَا أُمِّمِ الْهُوَى الْمُتَهْتِكَاتِ
 مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْحُضَا رَا يَا أُخِيَّ التُّرَهَاتِ
 لَمْ تَلَقَ غَيْرَ الرُّقِّ مِنْ عُسْرِ عَلَى الشَّرْقِيِّ عَاتِ

* * *

خُذْ بِالْكِتَابِ وَبِالْحَدِيدِ حِثَّ وَسِيرَةَ السَّلَفِ الثَّقَاةِ
 وَارْجِعْ إِلَى سُنَنِ الْخَلِيبِ سَقَّةً وَاتَّبِعْ نُظْمَ الْحَيَاةِ
 «هَذَا رَسُولُ اللَّهِ لَمْ يُنْقِصْ حَقُوقَ الْمُؤْمِنَاتِ»
 الْعِلْمُ كَانَ شَرِيعَةً لِنِسَائِهِ الْمُتَفَقِّهَاتِ
 رُضْنُ التَّجَارَةِ وَالسِّيَا سَةِ وَالشُّتُونِ الْأَخْرِيَاتِ
 وَلَقَدْ عَلِمَتْ بَنَاتُهُ لُجُجَ الْعُلُومِ الزَّاخِرَاتِ
 كَانَتْ سَكِينَةً^{٤٥} تَمَلَأُ الدُّ نِيَا وَتَهْزَأُ بِالرُّوَاةِ
 رَوَتْ الْحَدِيثَ وَفَسَّرَتْ آيَ الْكِتَابِ الْبَيِّنَاتِ
 «وَحَضَارَةُ الْإِسْلَامِ تَنْدُ طَقُ عَنْ مَكَانِ الْمُسْلِمَاتِ»
 بَغْدَادُ دَارُ الْعَالَمَا تِ وَمَنْزِلُ الْمُتَأَدِّبَاتِ
 وَدَمَشْقُ تَحْتَ أُمِّيَّةٍ أُمِّ الْجَوَارِي^{٤٦} النَّابِغَاتِ
 وَرِيَاضُ أَنْدَلَسٍ نَمِيٍّ نِ الْهَاتِفَاتِ الشَّاعِرَاتِ
 ادْعُ الرِّجَالَ لِيَنْظُرُوا كَيْفَ اتِّحَادَ الْغَانِيَاتِ

^{٤٣} الخرد: العذارى. والمتخفّرات: المستحييات، والخفر هو الحياء.

^{٤٤} لا تلغ: لا تقل باطلاً.

^{٤٥} سَكِينَةُ بِنْتُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

^{٤٦} الْفَتَيَاتِ.

والنفع كيف أخذن في
لما رأين ندى الرِّجا
ورأين عندهم الصنا
«والبر عند الأغنيا
أقبلن يبنين المآ
للصالحات عقائل الـ
الله أنبتهنَّ في
فأتين أطيَّب ما أتى
لم يكف أن أحسنَّ حتـ
يمشين في سوق الثوا
يلبسن ذل السائلا
فوجوههن وماؤها
«مصر تُجدد مجدها
النافرات من الجمو
هل بينهن جوامدا
لما حضنَّ لنا القضـ
غذيْنها في مهدها
وسبقن فيها المُعلـ
ينفثن في الفتـ
يهوين تقبيل المُهنـ
ويرين حتى في الكرى

أسبابه مُتعاونات
ل تفاخرا أو حُب ذات
ثع والفنون مُضيَّعات
ء من الشئون المُهملات
ثر للنجاح مُوفقات
وادي هوى في الصالحات
طاعاته خير النبات
زهر المناقب والصفات
ى زدن حضَّ المُحسِنات
ب مُساومات رابحات
ت وما ذكرن البائسات
ستر على المُتجملات
بنسائها المُتجددات
د كأنه شبح المَمات
فرق وبين الموميات
ة كُنَّ خير الحاضنات
لبابهنَّ الطاهرات
ن إلى الكريهة مُعلّـ^{٤٧}
روح الشجاعة والثبات
د أو معانقة القنـ
قُبَل الرجال مُحرمات

يُحيي الصحافة

قال سنة ١٩٢٠ من قصيدة له في احتفال أقامته نقابة الصحفيين:
لكل زمان مضى آية وآية هذا الزمان الصُحف

^{٤٧} المُعلّمون بفتح اللام: الفرسان لهم علامة في الحرب لبطلتهم.

لسان البلاد ونبض العباد وكهف الحقوق وحرب الجنف^{٤٨}
تسير مَسِير الضحى في البلاد إذا العلم مَزَّقَ فيها السدَفُ
وتمشي تُعَلِّم في أمة كثيرة من لا يخطُّ الألفُ

* * *

فيا فتية الصحف صبرًا إذا نبا الرزق فيها بكم واختلفُ
فإن السعادة غيرُ الظهور وغير الثراء وغير الترفُ
ولكنها في نواحي الضمير إذا هو باللؤم لم يكتنفُ
ورُوموا النبوغ فمن ناله تلقى من الخط أسنى التحفُ

* * *

حمِدتنا بلاءكم في النضال وأمس حمِدتنا بلاء السلفُ
ومن نسي الفضل للسابقين فما عرف الفضل فيما عرِفُ
أليس إليهم صلاح البناء إذا ما الأساس سما بالغرفُ

يُنَدِّد بمن يخذل الوطنية

في سنة ١٩٠٤ خطب مصطفى رياض باشا في حفلة تأسيس مدرسة محمد علي الصناعية بالإسكندرية خطبة امتدح فيها اللورد كرومر كما امتدح الاحتلال البريطاني. وقد أثارت هذه الخطبة سخط الرأي العام واستنكرها المواطنون، وكان شوقي صوت الشعر الناطق باستنكار الخطبة وصاحبها. قال:

كبير السابقين من الكرام برغمي أن أنالك بالملام
مقامك فوق ما زعموا ولكن رأيت الحق فوقك والمقام

إلى أن قال:

غمرت القوم^{٤٩} إطرأً وحمدًا وهم غمروك بالنعم الجسام

^{٤٨} الجور والظلم.

^{٤٩} يريد المحتلين.

رأوا بالأمس أنفك في الثريا
«خطبت فكنت خطبًا لا خطيبًا»
لهجت بالاحتلال وما أتاه
وهل تركت لك السبعون عقلًا

فكيف اليوم أصبح في الرُغام
أُضيفَ إلى مصائبنا العظام
وجرحك منه لو أحسست دامي
لعرفان الحلال من الحرام؟

يُنذد بقاضي دنشواي

كان أحمد فتحي زغلول أحد قضاة محكمة دنشواي الذين أصدروا ذلك الحكم الجائر في تلك المأساة سنة ١٩٠٦، وقد رُقِّي بعد ذلك وكيلًا لوزارة الحقانية (العدل)، وأُقيمت له حفلة تكريم في فندق شبرد دُعي إليها شوقي فرفض الدعوة، وأرسل في ظرف مُغلق هذه الأبيات التي عبّر فيها أبلغ تعبير عن تنديده بالمُحتفل به وبالمُحتفلين:

إذا ما جمعتم أمركم وهممتُم
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
ولا تعرضوا شعري عليه فحسبه
ولا تقرأوه في «شبرد» بل اقرءوا

بتقديم شيء للوكيل ثمين
وسروال مجلود وقيد سجين
من الشعر حُكم خطّه بيمين
على ملأ في دنشواي حزين

الحنين إلى الوطن

زاد حب شوقي للوطن وتعلّقه به في منفاه بالأندلس، وقد كان نفيه بأمر السلطة العسكرية البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥، وبقي في منفاه بعيدًا عن الوطن نحو خمسة أعوام إلا قليلًا، فازداد شعورًا بلوعة الحزن على فراقه، واستثار النفي الوطنية الكامنة في نفسه، وأجّبت الغربة نارها، فانطلق يشدو بالحنين إلى الوطن. حسبك منه سينيته الأندلسية، تلك القصيدة الخالدة التي نظمها سنة ١٩١٩ يُعَارِض فيها سينية البحري، قال في مطلعها:

اختلاف النهار والليل يُنسي
وسلا «مصر» هل سلا القلب عنها
كلما مرّت الليالي عليه

انكرا لي الصُّبا وأيام أنسي
أو أسا جُرحه الزمانُ المؤسّي
رقّ والعهد في الليالي تُقسّي

إلى أن قال:

يا ابنة اليم^{٥٠} ما أبوك بخيل
«أحرامٌ على بلبله الدَّو»
«كل دار أحق بالأهل إلا
نَفْسِي مِرْجِل وقلبي شِراع
واجعلي وجهك «الفَنار» ومجرا
وطني لو شُغِلْتُ بالخلد عنه
شهد الله لم يغب عن جفوني
ما له مُولَعًا بمنع وحبس
ح حلالٌ للطير من كل جنس؟»
في خبيث من المذاهب رجس^{٥١}
بهما في الدموع سيري وأرسي
ك يد «الثغر» بين «رمل» و«مكس»
نازعتني إليه في الخلد نفسي»
شخصه ساعة ولم يخلُ حسي

والقصيدة من أروع ما نظم شوقي.

وله في هذا المعنى قصيدة أخرى رائعة نظمها في منفاه يُعارض فيها نونية ابن زيدون.

قال:

يا نائح «الطَّلح» أشباهُ عوادينا
ماذا تقصُّ علينا غير أن يدًا
رمى بنا البين^{٥٢} أيًا غير سامرنا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا؟^{٥٣}
قصّت جناحك جالت في حواشينا!
أخا الغريب؛ وظلًّا غير نادينا

ثم انتقل من خطاب الطائر الحزين إلى بكاء الأندلس، قال:

آهًا لنا! نازحي أيكُ بأندلس
رسمٌ وقَفْنَا على رسم الوفاء له
وإن حللنا رقيقًا من روايينا^{٥٤}
نجيش بالدمع والإجلال يثينا

^{٥٠} يقصد السفينة.

^{٥١} يقصد مذهب الاستعمار الذي يضطهد الوطنيين وينفيهم ويمنعهم من التعبير عن آرائهم والإعراب عن آمالهم.

^{٥٢} الطلح: وادٍ بالأندلس بضاحية إشبيلية، يُخاطب حمام هذا الوادي ويتمثله شبيبها به في لوعته وغرْبته. وعوادينا أي عوادي الدهر ومصائبه.

^{٥٣} البين: البعد. والأيك: الشجر الكثير الملتف.

^{٥٤} الرقيق: الخصب.

إلى أن قال في الحنين إلى مصر:

لكن «مصر» وإن أغضت على مَقَّة^{٥٥} عَيْنُ من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رَفَّت تمائمنا وحول حافاتها قامت رواقينا^{٥٦}
ملاعبٌ مرحت فيها مآربنا وأربُعُ أنست فيها أمانينا
ومطلعٌ لسعودٍ من أواخرنا ومغربٌ لجدود من أولينا
بنّا^{٥٧} فلم نخلُ من رَوْح يُراوحنا من بر مصر وريحان يُغاديننا
كأَم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبَت في اليم تُلقينا^{٥٨}
ومصر كالكرم ذي الإحسان فأكهت لحاضرين وأكوابٌ لبادينا

* * *

يا ساريَ البرق يرمي عن جوانحنا بعد الهدوء ويهمي عن مآقينا
لما ترقرق في دمع السماء دماً هاج البُكا فخصبنا الأرض باкина

إلى أن قال يُخاطب مواطنيه:

إلى الذين وجَدْنَا ود غيرهم دُنيا وودَّهم الصافي هو الدِّينا
يا من نغار عليهم من ضمائرنا ومن مَصون هواهم في تناجينا
ناب الحنين إليكم في خواطرنا في النائبات فلم يأخذ بأيدينا

إلى أن قال يُشيد في منفاه بعظمة مصر:

لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت في ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا
ألم تُؤلِّه على حافاته ورأت عليه آباءها الغُر الميامينا؟

^{٥٥} المَقَّة: المحبة.

^{٥٦} الرواقي: جمع راقية وهي ما يُرقى به الصبي درءاً للسحر.

^{٥٧} بنا: أي بُعدنا.

^{٥٨} شبّه مصر حين اضطرت إلى نفيه بأَم موسى عليه السلام حين ألقته في اليم صبياً وسألت الله أن يكفله.

وهذه الأرض من سهل ومن جبل قبل «القيصر» دِنَّاها «فراعينا»
ولم يضع حجرًا بان على حجر في الأرض إلا على آثار بانينا
كأن «أهرام» مصر حائطٌ نهضت به يد الدهر لا بُنيان فانينا

إلى أن قال في تحية مصر وتشوقه إليها من منفاه:

أرضُ الأبوة والميلاد طيَّبها مرُّ الصِّبا في ذيول من تصابينا
كانت مُحجَّلة فيها مواقفنا غُرًّا مُسلسلة المجرى قوافينا
فأب من كرة الأيام لاعبنا وثاب من سِنَّة الأحلام لاهينا
ولم ندع للليالي صافيًا فدعت بأن نغصَّ فقال الدهر آمينا
لو استطعنا لَخضنا الجو صاعقةً والبر نارَ وغى والبحر غسلينا^{٥٩}
سعيًا إلى مصر نقضي حق ذاكرنا فيها إذا نسي الوافي وباكيها

وقال يذكر والدته بخلوان وقد توفيت قبيل عودته:

كنزٌ بـ «خلوان» عند الله نطلبه خير الودائع من خير المؤدِّينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا لم يأتِه الشوق إلا من نواحيننا
إذا حملنا لمصر أو له شجنًا لم ندرِ أي هوى الأمين شاجيننا

وقال أيضًا سنة ١٩١٧ في منفاه يهتف بمصر وساكنيها:

يا ساكني مصر إنا لا نزال على عهد الوفاء وإن غبنا مُقيميننا
هلاً بعثتم لنا من ماء نيلكم شيئًا نبلُّ به أحشاء صاديننا^{٦٠}
«كل المناهل بعد النيل آسنة» ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

^{٥٩} الغسلين: الصديد.

^{٦٠} الصادي: الظمآن.

وقد بعثت شوقي بهذه الأبيات إلى صديقه وصنوه حافظ إبراهيم فأجابه حافظ
بالأبيات الآتية:

عجبت للنيل يدري أن بلبله	صاِدٍ ويسقي رُباً مصر ويسقينا
تالله ما طاب للأصحاب مورده	ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لنا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه	وقد نأينا وإن كنا مُقيميننا

يُشيد بعظمة مصر

لقد ملك حب مصر مشاعره فكان يتغنى بعظمتها ويُشيد بمفاخرها، وتفيض قصائده
بهذا المعنى السامي.

قال في تحية مصر والنيل والهرم من قصيدة نظمها سنة ١٩١٤ يُحيي بها الطائرَيْن
العثمانيَّين سالم وكمال حين قدومهما إلى مصر على متن طائرتهما عن طريق العريش
وسيناء:

يا راكب الريح حيَّ النيلَ والهرما	وعظَّم السفحَ من سيناء والحرما
وقِفْ على أثرٍ مرَّ الزمان به	فكان أثبت من أطواده قَمَما
واخفض جناحك في الأرض التي حملت	موسى رضيعاً وعيسى الطهرِ مُنْفِطِما
وأخرجت حكمة الأجيال خالدة	وبَيَّنَّت للعباد السيف والقلما
هذا فضاءً تَلِمَ الريح خاشعَةً	به ويمشي عليه الدهر مُحْتَشِما

وقال من قصيدة له في أبي الهول:

أبا الهول طال عليك العُصْرُ	وَبُلِّغْتَ في الأرض أقصى العُمُرُ
فيا لِدَّةِ الدهر ^{٦١} لا الدهر شَبَّ	ولا أنت جاوزت حدَّ الصُّغُرُ
إِلَّامَ ركوبك متن الرمال	لِطَيِّ الأصيل وجُوب السَحَرُ

^{٦١} أي أحا الدهر وقرينه فكأنه والدهر توأمان.

تُسَافِرُ مُنْتَقِلًا فِي الْقُرُونِ فَأَيَّانَ تُلْقِي غِبَارَ السَّفَرِ؟
أَبِينِكَ عَهْدَ وَبَيْنِ الْجِبَالِ تَزُولَانِ فِي الْمَوْعِدِ الْمُنتَظَرِ؟^{٦٢}
«أَبَا الْهَوْلِ أَنْتَ نَدِيمُ الزَّمَانِ نَجِيُّ الْأَوَانِ سَمِيرُ الْعُصْرِ»
«ظَلِيلَ الْحَضَارَةِ فِي الْأَوَّلِينَ رَفِيعَ الْبِنَاءِ جَلِيلَ الْأَثَرِ»

وختمها بقوله:

«تَحَرَّكَ أَبَا الْهَوْلِ هَذَا الزَّمَانِ تَحَرَّكَ مَا فِيهِ حَتَّى الْحَجَرِ»

وقال عن الأهرام من قصيدة له سنة ١٩٢٢:

قَفِ نَاجِ أَهْرَامِ الْجَلَالِ وَنَادِ هَلْ مِنْ بُنَاتِكَ مَجْلِسٌ أَوْ نَادِ
نَشْكُو وَنَفْزَعُ فِيهِ بَيْنَ عَيُونِهِمْ إِنْ الْأَبْوَةِ مَفْزَعُ الْأَوْدَادِ
وَنَبُتُهُمْ عِبْتُ الْهَوَى بِتَرَاثِهِمْ مِنْ كُلِّ مُلِقٍ لِلْهَوَى بِقِيَادِ
وَنُبِّينُ كَيْفَ تَفَرَّقَ الْأَخْوَانُ فِي وَقْتُ الْبَلَاءِ تَفَرَّقَ الْأَضْدَادِ^{٦٣}
إِنَّ الْمَغَالِطَ فِي الْحَقِيقَةِ نَفْسَهُ بَاغٍ عَلَى النَّفْسِ الضَّعِيفَةِ عَادِي

* * *

قُلْ لِلْأَعَاجِبِ الثَّلَاثِ^{٦٤} مَقَالَةٌ مِنْ هَاتِفٍ بِمَكَانِهِنَّ وَشَادِي
لِلَّهِ أَنْتَ فَمَا رَأَيْتُ عَلَى الصِّفَا هَذَا الْجَلَالِ وَلَا عَلَى الْأَوْتَادِ
لَكَ كَالْمَعَابِدِ رُوعَةٌ قَدْسِيَّةٌ وَعَلَيْكَ رُوحَانِيَّةُ الْعُبَادِ
أُسِّسَتْ مِنْ أَحْلَامِهِمْ بِقَوَاعِدِ وَرُفِعَتْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ بِعِمَارِ
قُمْ قَبْلَ الْأَحْجَارِ وَالْأَيْدِي الَّتِي أَخَذَتْ لَهَا عَهْدًا مِنَ الْآبَادِ
وَاخْذِ النَّبُوغَ مِنَ الْكِنَانَةِ إِنَّهَا مَهْدُ الشَّمْسِ وَمَسْقَطُ الْآرَادِ^{٦٥}

^{٦٢} يوم القيامة.

^{٦٣} يُشِيرُ إِلَى الْإِنْقِسَامِ الَّذِي حَدَثَ سَنَةَ ١٩٢١ بَيْنَ سَعْدٍ وَعَدْلِي وَأَنْصَارِهِمَا وَتَصَدَّعَتْ بِسَبَبِهِ الْوَحْدَةُ الْوَطْنِيَّةُ.

^{٦٤} يريد الأهرام الثلاثة.

^{٦٥} الآرَاد: جمع رَأَد، يريد رَأَدَ الضحى؛ وقت ارتفاع الشمس.

وقال يُشيد بعظمة الأهرام من قصيدته «على قبر نابليون»:

خيلة الصَّيد ^{٦٦} وزهو الفاتحين	قُم إلى الأهرام واخشع واطَّرح
حَرَم الدهر ومحراب القرون	وتمهَّل إنما تمشي إلى
كالخطيم الطُّهر عند المسلمين	هو كالصخرة عند القبط أو
لم يكن قبلك حظُّ الخاطبين	وتسنَّم منبرًا من حجر
لك وابتعث في الأوالي حاشرين	وادعُ أجيالًا تولَّت يسمعوا
قد أحاطت بالقرون الأربعين	وأعدها كلمات أربعًا ^{٦٧}
غاية قصَّر عنها الفاتحون	قد عرضت الدهر والجيش معًا
بُعْد العهد فهل يعتبرون؟	عظةٌ قومي بها أولى وإن

قصر أنس الوجود

وقال سنة ١٩١٠ عن قصر «أنس الوجود» بأسوان وكيف يغمره النيل وقت الفيضان، من قصيدة يُخاطب فيها الكولونل تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأسبق، وكان قد ألقى خطبة ينتقص فيها من قدر المصريين فرد عليه شوقي بهذه القصيدة:

كالثُّريا تريد أن تنقضًا	أيها المُنتحي «أسوان» دارًا
لا تُحاول من آية الدهر غصًا	اخلع النعل واخفِض الطرف واخشع
مُمسِكًا بعضها من الذعر بعضًا	قِف بتلك «القصور» في اليم غرقى
سابحاتٍ به وأبدين بضًا	كعذارى أخفين في الماء بضًا
مُشرفات على الكواكب نَهضًا	مُشرفات على الزوال وكانت
وشباب الفنون ما زال غصًا	شابَ من حولها الزمان وشابت
كان إتقانه على القوم فرضًا	صنعةٌ تُدهش العقول وفن

^{٦٦} الملوك.

^{٦٧} يُشير إلى الكلمة التي قالها نابليون لجنوده قُبيل معركة الأهرام سنة ١٧٩٨ يستحثهم على القتال: «إن أربعين قرنًا تنتظر إليكم من فوق قَمَم هذه الأهرام».

يا قصورًا نظرتُها وهي تقضي^{٦٨} فسكبتُ الدموع والحق يُقضى
«أنت سطر ومجد مصر كتاب كيف سامِ البلى كتابك فضاء»
«وأنا المُحتفي بتاريخ مصر من يصن مجد قومه صان عرضاً»

وقال في يناير سنة ١٩٢٣ بعد اكتشاف كنوز توت عنخ آمون يذكر عظمة مصر
الخالدة:

قفي يا أخت «يوشع»^{٦٩} خبرينا أحاديث القرون الغابرينا
فمثلك من روى الأخبار طرًّا ومن نسب القبائل أجمعينا

إلى أن قال يُشيد بحضارة قدماء المصريين وكيف بلغوا الشأ العظيم من المجد:

مشت بمنارهم في الأرض «روما» ومن أنوارهم قبست «أثينا»
ملوك الدهر بالوادي أقاموا على «وادي الملوك» مُحجِّبينا
تعالى الله كان السحر فيهم أليسوا للحجارة مُنطِّقيناً؟
غدوا يبنون ما يبقى وراحوا وراء الآبدات مُخلِّديننا
إذا عمدوا لمأثرة أعدوا لها الإتيقان والخلق المتينا
وليس الخلد مرتبة تلقى وتؤخذ من شفاها الجاهلينا
ولكن مُنتهى همم كبار إذا ذهبَت مصادرها بقينا
«وسرُّ العبقريّة حين يسري فينتظم الصنائع والفنونا»
«وآثارُ الرجال إذا تناهت إلى التاريخ خير الحاكمينا»
وأخذك من فم الدنيا ثناء وتركك في مسامعها طنيناً

وقال مخاطبًا توت عنخ آمون:

سلامٌ يوم وارتك المنايا بواديها ويومَ ظهرتَ فينا
خرجت من القبور خروج عيسى عليك جلالة في العالمينا

^{٦٨} تقضي: أي تفنى.

^{٦٩} الخطاب للشمس.

ومن قصيدة أخرى له عن توت عنخ آمون وقد تخيَّله قد بُعث بعد أربعين قرناً ورأى الاحتلال جاثماً على صدر البلاد فحزن لما رآه وآثر العودة إلى قبره، والقصيدة من أروع ما جادت به قريحة شوقي في الإشادة بأمجاد مصر وفي المعاني الوطنية، قال في مطلعها مُخاطباً توت عنخ آمون:

قُمْ سَابِقِ «الساعة» واسِيقِ وعدّها	الأرض ضاقت عنك فاصدع غمّها
واملاً رماحاً غورها ونجدها	وافتح أصول النيل واستردها
شلّالها وعذبها وعدّها ^{٧٠}	واصرف إلينا جزرها ومدها

إلى أن قال:

سافر أربعين قرناً عدّها	حتى أتى الدار فألفى عندها
إنجلترا وجيشها ولوردها	مسلولة الهندي تحمي «هندها» ^{٧١}
قامت على «السودان» تبني سدها	وركّزت دون «القناة» بندها ^{٧٢}

* * *

فقال والحسرة ما أشدها	ليت جدار القبر ما تدهدها ^{٧٣}
وليت عيني لم تُفارق رقدّها	قم نبّني يا «بننتور» ^{٧٤} مادها

* * *

مصر الفتاة بلغت أشدها	وأثبت الدم الزكي رشدها
ولعبت على الحبال وحدها	وجرّبت إرخاءها وشدها

* * *

^{٧٠} العد: الماء الجاري.

^{٧١} الهندي: السيف. وهندها: أي الهند.

^{٧٢} البند: العلم.

^{٧٣} تدهده: انقض.

^{٧٤} بننتور: شاعر مصري قديم.

يا رب قوّ يدها وشُدّها
وقس لكل خطوة ما بعدها
واصرف إلى جد الشئون جدها
واكبج هوى الأنفس واكسر حقدّها
وافتح لها السُّبُل ولا تسدّها
وعن صغيرات الأمور حدّها
ولا تُضع على الضحايا جهدها
 واجمع على الأم الرعوم ولُدّها

وادي الملوك

وقال سنة ١٩٢٥ في هذا المعنى يذكر توت عنخ آمون وحضارة عصره بعد أن اكتُشفت كنوزه في «وادي الملوك»:

درجت على «الكنز» القرونُ
يا ابن الثواقب من «رع»
نسبٌ عريق في الضحى
أرأيت كيف يئوب من
وتدول آثار القرو
حبُّ الخلود بنى لكم
لم يأخذ المُتقدِّمو
حتى تسابقتم إلى الـ
لم تتركوه في الجليـ
هذا القيام فقل لنا الـ
البعث غاية زائل
السبق من عاداتكم
أنتم أساطين الحضـ
المُتقِنون وإنما
وأنت على الدن^{٧٥} السنونُ
وابن الزواهر من «أمون»^{٧٦}
بدُّ القبائل والبطونُ
عَمِرَ القضاء المُغرَقونُ
ن على رجا الزمن الطحونُ
خُلِقًا به تتفردونُ
ن به ولا المُتأخرونُ
إحسان فيما تعملونُ
ل ولا الحقير من الشئونُ
يوم الأخير متى يكونُ؟
فانِ وأنتم خالدونُ
أترى القيامة تسبقونُ؟
رة والبناء المُحسِنونُ
يُجزى الخلود المُتقونُ

^{٧٥} الدن: باطية الخمر.

^{٧٦} رع وأمون من آلهة مصر القديمة.

يتغنى بالنيل

نظم هذه القصيدة الرائعة يتغنى فيها بالنيل، فصوّر الحياة للوادي وأهله، وأبدع في وصف روعته وجماله وجلاله، ثم انتقل إلى قدماء المصريين ومفاخرهم، وهي القصيدة التي تُغنيها أم كلثوم فتزيدها بهاءً وجمالاً:

من أي عهد في القرى تتدفقُ	وبأي كف في المدائن نُغدقُ
ومن السماء نزلت أم فُجّرت من	عليا الجنان جداولاً تترقرقُ
وبأي عين أم بأية مزنة	أم أي طوفان تفيض وتفهقُ
وبأي نول أنت ناسج بُردة	للضفتين جديدها لا يخلقُ
تسودّ ديباجاً إذا فارقتها	فإذا حضرت اخضوضر الإستبرقُ ^{٧٧}
أتت الدهور عليك مهذك مُترعُ	وحياضك الشُّرق الشهية دُفقُ ^{٧٨}
تسقي وتطعم لا إناؤك ضائق	بالواردين ولا خِوانك ينفقُ ^{٧٩}
والماء تسكبه فيُسبِك عسجداً	والأرض تُغرِقها فيحيا المُغرَق
تُعيي منابُعك العقول ويستوي	مُتخبّط في علمها ومُحقّق

إلى أن قال:

دين الأوائل فيك دين مروءة	لم لا يُؤلّه من يقوت ويرزق
لو أن مخلوقاً يُؤلّه لم تكن	لسواك مرتبة الألوهة تُخلَق
جعلوا الهوى لك والوقار عبادة	إن العبادة خشية وتعلّق
دانوا ببحر بالمكارم زاهر	عذب المشارع مدّه لا يلحَق
مُتقيّد بعهوده ووعوده	يجري على سنن الوفاء ويصدق
يتقبّل الوادي الحياة كريمة	من راحتك عميمة تتدفق

^{٧٧} الديباج والإستبرق: ثوب الحرير.

^{٧٨} الشُّرق: الغرقى.

^{٧٩} ينفق: يفتن أو يقل.

إلى أن قال يصف مهرجان وفاء النيل عند قدماء المصريين وكيف كانت «عروس النيل» تُقدَّم قرباناً له كل عام:

والمجد عند الغانيات رغبة	يُبغى كما يُبغى الجمال ويُعشَقُ
إن زَوْجوك بهنَّ فهي عقيمة	ومن العقائد ما يَلْبُ وَيَحْمَقُ ^{٨٠}
ما أجمل الإيمان لولا ضلة	في كل دين بالهداية تلصقُ
زُفَّت إلى ملك الملوك يحثها	دين ويدفعها هوى وتشوُّقُ
ولربما حسدت عليك مكانها	تربُّ تمسَّحُ بالعروس وتُحدِّقُ ^{٨١}
مَجْلوة في الفلك يحدو فُلُكها	بالشاطئين مُزغرد ومُصفقُ
في مهرجان هزَّت الدنيا به	أعطافها واختال فيه المشرقُ
فرعون تحت لوائه وبنائته	يجري بهنَّ على السفين الزورقُ
حتى إذا بلغت مواكبها المدى	وجرى لغايته القضاء الأسبقُ
وكسا سماء المهرجان جلاله	سيفُ المنية وهو صلتُ يبرقُ
وتلفَّت في اليم كل سفينة	وانثال بالوادي الجموع وحذقوا
أَلقت إليك بنفسها ونفيسها	وأنتك شَيْقَة حواها شَيْقُ
خلعت عليك حياءها وحياتها	أعز من هذين شيء يُنفقُ؟
وإذا تناهى الحبُّ واتفق الفدى	فالروح في باب الضحية أليقُ

إلى أن قال يذكر النيل وأنه مصدر الحياة والحضارة لمصر والوادي:

أصل الحضارة في صعيدك ثابت	ونباتها حسنٌ عليك مُخلَقُ ^{٨٢}
وُلدت فكنت المهد ثم ترعرت	فأظللها منك الحفيُّ المُشفقُ
ملأت ديارك حكمةً ماثورها	في الصخر والبردي الكريم مُنبقُ ^{٨٣}

^{٨٠} يلب: أي يصير لبيباً.

^{٨١} الترب: من وُلد مع الإنسان، الجمع أتراب وأكثر ما تستعمل في المؤنث، يقال: هذه ترب فلانة.

^{٨٢} مُخلَق: مُنطَبِّب.

^{٨٣} منبق: مُصطف.

وبنت بيوت العلم باذخة الذرى
واستحدثت ديناً فكان فضائلاً
يسعى لهن مُغرَّب ومُشرَّق
وبناءً أخلاق يطول ويشهق^{٨٤}
كالْمسك رِيَّاه بأخرى تُفْتَق
ويدعو إلى بر ويرفع صالحاً
ويَعاف ما هو للمروءة مُخْلَق

وقال في ختامها:

يا نيل أنت بطيب ما نعت «الهدى»
وإليك يُهدى الحمد خلق حازهم
وبمِدحة «التوراة» أخرى أخلق
وعليك تُجلى من مصونات النُّهى
كنفٌ على مر الدهور مُرْهَق^{٨٥}
الدر في لبَّاتهن مُنظَّم
خودٌ عرائس خدرهن المُهرَق^{٨٦}
والطيب في حبراتهن مُرَقَّرَق
أمله حبٌ ليس فيه تملُّق
لي فيك مدح ليس فيه تكُلُّف

وفي الحق أنه لم يُوصَف النيل في عظمتة وجلاله وماضيه وحاضره وخلوده بأبداع
مما وصفه شوقي في هذه القصيدة.

نشيد النيل

ووضع نشيداً جميلاً يتغنى به الشباب والمواطنون قال:

النيل العذب هو الكوثر
ريَّان الصفحة والمنظر
والجنة شاطئه الأخضر
ما أبهى الخلد وما أنضر

* * *

البحر الفيَّاض القدس
الساقى الناس وما غرسوا

^{٨٤} يشهق: من شهق الجبل؛ ارتفع.

^{٨٥} المرهق: كثير غشيان الناس والأضياف.

^{٨٦} المهرق: الصحيفة.

أحمد شوقي شاعر الوطنية الأكبر

وهو المِنوال لما لبسوا والمُنعم بالقطن الأنور

* * *

جعل الإحسان له شرعا لم يُخلِ الوادي من مَرعى
فترى زرعاً يتلو زرعاً وهنا يُجنى وهنا يُبذر

* * *

جارٍ ويُرى ليس بجاري لأناة فيه ووقار
ينصبُّ كتلاً مُنهارٍ ويضجُّ فتحسبه يزأر

* * *

حبشي اللون كجيرته من مَنبعه وبُحيرته
صبغ الشطّين بسُمرته لوناً كالمسك وكالعنبر

النشيد الوطني

وفي سنة ١٩٢٠ وضع نشيداً وطنياً أقرّته اللجنة التي ألّفت في هذا العام لترقية الأغاني الوطنية قال:

بني مصر مكانكمو تهياً فهياً مهّدوا للملك هياً
خذوا شمس النهار له حلياً ألم تك تاج أولكم ملياً

* * *

على الأخلاق خُطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركنُ
أليس لكم بوادي النيل عدنٌ وكوثرها الذي يجري شهياً

* * *

لنا وطنٌ بأنفسنا نقيه وبالنيا العريضة نفتديه
إذا ما سِيلَت الأرواح فيه بذلناها كأن لم نُعط شيئاً

* * *

لنا الهرم الذي صحب الزمانا ومن جدثانه أخذ الأمانا

شعراء الوطنية

ونحن بنو السَّنا العالي نمانا أوائل علَّموا الأمم الرقيَّا

* * *

تطاوَل عهدهم عزًّا وفخرا فلما آل للتاريخ نُخرا
نشأنا نشأةً في المجد أخرى جعلنا الحق مظهرها العليَّا

* * *

جعلنا مصر ملة ذي الجلال وألَّفنا الصليب مع الهلال
وأقبلنا كصفٍّ من عوالي يشد السمهريُّ السمهريَّا

* * *

نقوم على البناية مُحسِنينا ونعهد بالتمام إلى بنينا
نموت فداك مصر كما حيينا ويبقى وجهك المَفديُّ حيَّا

نشيد الكشافة

نحن الكشافة في الوادي جبريلُ الروحُ لنا حادي
يا ربَّ بعيسى والهادي وبموسى خُذ بيد الوطنِ

* * *

كشافة مصر وصبيتها ومناة الدار ومُنيتها
وجمال الأرض وحليتها وطلائع أفراس المَدنِ

* * *

نبتدر الخير ونستبِقُ ما يرضى الخالق والخلقُ
بالنفس وخالقها نثَقُ ونزيد وثوقًا في المَحَنِ

* * *

في السهل نرفُّ رياحينا ونجوب الصخر شياطينا
نبنّي الأبدان وتبنينا والهمة في الجسم المرَنِ

* * *

وَنُخْلِ الخلق وما اعتقدوا ولوجه الخالق نجتهدُ
نأسوا الجرحى أنى وجدوا ونُداوي من جرح الزمن

* * *

في الصدق نشأنا والكرم والعفة عن مس الحُرْمِ
ورعاية طفل أو هرم والذود عن الغيد الحصن

* * *

ونوافي الصارخ في اللجج والنار الساطعة الوهج
لا نسأله ثمن المُهَج وكفى بالواجب من ثمن

* * *

ربّ فكثّرنا عددا وابذل لأبوتنا المددا
هيئْ لهم ولنا رشدا يا ربّ وخذ بيد الوطن

نشيد الشباب

اليوم نسود بأيدينا ونُعيد محاسن ماضينا
ونشيدُ العزّ بأيدينا وطنٌ نفديه ويفدينا

* * *

وطنٌ بالحق نُؤيِّده وبعين الله نُشيِّده
ونُحسِّنُه ونُزيِّنُه بمآثرنا ومساعدينا

* * *

سرُّ التاريخ وعنصره وسرير الدهر ومنبره
وجنان الخلد وكوثره وكفى الآباء رياحيننا

* * *

نتخذ الشمس له تاجا وضحاها عرشًا وهَّاجا
وسماء السُّودد أبراجا وكذلك كان أوالينا

شعراء الوطنية

* * *

العَصْر يراكم والأمُّ والكرنك يلحظ والهرمُّ
أبني الأوطان ألا همُّ كبناء الأول يبني

* * *

سعيًا أبدًا سعيًا سعيًا لأثيل المجد وللعليا
ولنجعل مصر هي الدنيا ولنجعل مصر هي الدنيا

وظل شوقي يتغنى بالوطنية ويُغرد للمواطنين والناطقين بالضاد جميعًا ألحان
الحرية ويُسمِعهم أسمى معاني الإنسانية حتى أدركته الوفاة سنة ١٩٣٢، وظل شعره
بعد وفاته وسيظل على الدوام رمزًا للحكمة والحرية والخلود.

حافظ إبراهيم شاعر النيل

١٨٧٢-١٩٣٢



هو صِنو شوقي في إحياء دولة الشعر، ولئن تميَّز عنه شوقي بالزعامة كما أسلفنا في الحديث عن شوقي، فإن حافظًا يمتاز عنه بأن نشأته وحياته كانت شعبية، في حين كانت نشأة شوقي وحياته أرستقراطية؛ فكان حافظ أقرب إلى روح الشعب ومشاعره،

وأقدر على تصوير آلامه التي شاركه فيها، واكتوى بلهبها، فكان لذلك أبلغ في التعبير عنها، وكانت عباراته أسهل وأقرب إلى إدراك معانيها من عبارات شوقي؛ لأنه كان يُحس إحساساً قوياً أنه يُخاطب الشعب في مجموع مُثقفيه وقارئيه.

وُلد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧٢ من أب مصري وأم من أسرة تركية، كان أبوه إبراهيم أفندي فهمي مهندساً يُشرف على قنوات ديروط حيث وُلد حافظ، وتُوِّف وحافظ في الرابعة من عمره، فكفله خاله محمد أفندي نيازي، وعاش في كنفه عيشة الطبقات المتوسطة التي كانت أقرب إلى الضيق منها إلى اليسار، فأحس حافظ منذ صباه بما تُعانيه الطبقات الشعبية من جهد ورقة حال، ولما ظهرت مواهبه الشعرية كان الترجمان الصادق الأمين لهذه الطبقات.

تلقى التعليم الابتدائي وجزءاً من التعليم الثانوي، ولكنه لم يُتمه، وانتقل مع خاله إلى طنطا، وكان مهندس تنظيم بها، وانقطع حافظ وقتاً عن متابعة التعليم، واتجهت نفسه إلى الأدب والشعر.

واشتغل وقتاً وجيزاً بالمحاماة بطنطا، ولكنه لم يستمر فيها؛ إذ لم يجد من نفسه ميلاً إليها لما كانت تقتضيه من دأب على العمل المتواصل وهو لم يكن يميل إلى التقيد بمثل هذا الدأب بل كان كالطير ينطلق مُغرّداً بين مختلف الأشجار والأغصان.

ولقد فُكّر في أن يكون ضابطاً بالجيش؛ إذ كانت الحياة العسكرية مما يستثير في نفسه روح الشعر والخيال، أو لعله أراد أن يُقلد البارودي في نشأته العسكرية، فالتحق بالمدرسة الحربية بالقاهرة، وتخرّج منها سنة ١٨٩١ ضابطاً برتبة ملازم ثانٍ، وكان إذ ذاك في سن العشرين تقريباً، وانتظم في حملة السودان بقيادة اللورد كتشنر سردار الجيش المصري وقتئذٍ، ولما انتهت الحملة بانفراد الإنجليز بحكم السودان عافت نفسه البقاء في ربوعه، فالتمس إحالته إلى المعاش، وأُجيبَ طلبه وعاد إلى مصر، وغشي مجالس الشعراء والأدباء والعلماء، وأفاض فيها من شعره وأدبه، فتألقت شاعريته، وعرف له معاصروه فضله ومكانته في عالم الأدب والشعر، وإن كان الشعر لا يُدر عليه ما يحفظ مكانته من الوجهة المادية فقد عيّنه أحمد حشمت وزير المعارف في سنة ١٩١١ رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية، وظل بها إلى فبراير سنة ١٩٣٢ إذ أُحيلَ إلى المعاش لبلوغه السن القانونية، وتُوِّف يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢.

كان حافظ شاعراً بطبعه، ظهرت مواهبه الشعرية وهو في السادسة عشرة من عمره، لم يتلقها عن مُعلّم أو أديب، ولا تعلّمها في المدارس التي انتظم بها، بل كانت وحي

الإلهام والسليقة، فكان يقول الشعر وهو في هذه السن المبكرة، ويأخذ نفسه بالمطالعات الشعرية ويحفظ قصائد فحول الشعراء المتقدمين، واشتدت به الرغبة إلى محاكاتهم في جيد الشعر، فواتته سليقته الشعرية وساعدته على تحقيق رغبته، وبدء مع الزمن أولئك الشعراء، وبلغ الذروة في عالم الشعر والأدب.

وحافظ يمتاز في شعره بقوة البلاغة، وإشراق الديباجة، وطلاوة الأسلوب، والروح الخطابية، ولقد أنصفه شوقي إذ قال في رثائه:

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها	وإمام من نجلت من البلغاء ^١
ما زلت تهتف بالقديم وفضله	حتى حميت أمانة القدماء
خلّفت في الدنيا بياناً خالداً	وتركت أجيالاً من الأبناء
وغداً سيذكرك الزمان ولم يزل	للدهر إنصاف وحسن جزاء

أضفت الوطنية على شعر حافظ هالة من العظمة والمجد؛ فقد كان بلا مراء خير ترجمان للشعب في أحاسيسه وآماله، وخير مؤاسٍ له في مآسيه وآلامه، وتغنى بمصر والنيل في قصائده الغر، ولعل بقاءه في السودان عدة سنين، ومشاهدته غدر الإنجليز هناك، وتدابيرهم في تحقيق أغراضهم الاستعمارية، قد زاده سخطاً على الاستعمار واستمساكاً بوحدة وادي النيل، وتجلت هذه المواهب في شعره في شتى المناسبات حتى سُمي بحق «شاعر النيل»، وهو إلى جانب ذلك شاعر الوطنية والاجتماع والأخلاق، كان لا يفتأ يدعو قومه إلى التمسك بالأخلاق في جهادهم للحرية؛ إذ يرى الأخلاق قوام الجهاد الصحيح، وبلغت دعوته إلى الأخلاق حد التقريرع في مخاطبته لبني وطنه ومجاوبتهم بالحق الصريح. وحافظ وإن كانت ثقافته شرقية إلا أنه قد تعلم الفرنسية على كبر، واقتبس من الآداب الفرنسية ما استطاع أن يقتبسه، وساعده ذكاؤه وألمعيته على محاكاة الشعر الغربي أحياناً، وكان يميل إلى التجديد في شعره، وفي ذلك يقول:

آن يا شعر أن تفك قيوداً	قيّدتنا بها دعاة المّحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا	ودعونا نشم ريح الشمال

^١ نجلت: أي ولدت.

ولقد نجح حافظ في أن يرتفع بشعره في كثير من المواطن إلى التجديد واقتباس المعاني والأفكار والأساليب الحديثة، فزاد شعره طلاوة ورنيناً موسيقياً حبيباً إلى النفوس وجعل بعض قصائده أشبه بالأغاني والتغريد.

الوطنية في شعر حافظ

تتجلى الروح الوطنية ويتألق نورها في شعر حافظ، ولقد وجدت الحركة الوطنية في قصائده البديعة قوة تستمد منها الحماسة والصمود في الجهاد، والثورة على الاحتلال. كان شعره مَعِيناً لا ينضب من الكفاح الوطني، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه، ويُلهمه الذود عن حريته واستقلاله، ولقد عبّر عن هذه العاطفة المُلتَهبة بقوله من قصيدة له سنة ١٩٠٠:

متى أرى النيل لا تحلو موارده	لغير مُرتَهَبٍ لله مُرتَقِبٍ
فقد غدت مصرُ في حال إذا ذُكِرَتْ	جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطبِ
كأنني عند ذكرى ما أَلَمَ بها	قرمُ تردّد بين الموت والهَرَبِ ^٢
إذا نطقتُ ففقاغُ السجن مُتَكَاً	وإن سكْتُ فإن النفس لم تطبِ
أيشتكى الفقرَ غاديناً ورائحنا	ونحن نمشي على أرض من الذهبِ؟!

وقوله في قصيدة له سنة ١٩٠٩:

لعمرك ما أرقّتُ لغير مصر	وما ليَ دونها أملٌ يُرامُ
ذكرتُ جلالها أيام كانت	تصول بها الفراعنة العظامُ
وأيامَ الرجالِ بها رجالُ	وأيامَ الزمانِ لها غلامُ

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٠:

كم ذا يُكابِدُ عاشقٌ ويلَاقِي	في حب مصر كثيرة العُشاقِ
-------------------------------	--------------------------

^٢ القرم: أي الرجل الشجاع.

إني لأحمل في هواك صباية يا مصرُ قد خرجت عن الأطواق^٢
لهفي عليك متى أراك طليقةً يحمي كريمَ حماك شعبُ راقِي
كلِّفَ بمحمود الخلال مُتيمَّ بالبذل بين يديكِ والإنفاقِ

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٩ نظمها في «ملجأ الحرية»:

فتعاهدنا على دفع الأذى بركوب الحزم حتى نظفرا
وتواصينا بصبر بيننا فغدونا قوةً لا تُزدرى
أنشرت في مصر شعباً صالحاً كان قبل اليوم مُنفك العُراءِ
كم مُحب هائم في حبها زاد عن أجفانه سرخ الكرى^٥
وشباب وكهول أقسموا أن يشيدوا مجدها فوق الذرى^٦

حافظ ومصطفى كامل

عاصر حافظ مصطفى كامل، وكان صديقاً له مُعجباً بجهاده، رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين، وكان مصطفى شديد الإعجاب بشعره وأدبه، وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١ قرّظه في «اللواء»^٧ تقريراً يدل على عظم تقديره لشاعر النيل، وأسهب في الثناء عليه سنة ١٩٠٣ حين عرّب كتاب «البؤساء» لفكتور هيجو.

قصيدة حافظ في حفلة مدرسة مصطفى كامل

ويبدو إعجاب حافظ بمصطفى وجهاده في قصيدته التي ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ في احتفال مدرسة مصطفى كامل تعليقاً على خطبة مصطفى، قال في مطلعها:

سمِعنا حديثاً^٨ كقطر الندى فجَدَّد في النفس ما جَدَّداً

^٢ الأطواق: جمع طوق؛ أي الجهد والطاقة.

^٤ أنشرت: أحييت.

^٥ الكرى: النوم.

^٦ الذرى: جمع ذروة، وهي المكان المرتفع.

^٧ عدد ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١.

^٨ يقصد خطبة مصطفى كامل في الحفلة.

وأضحى لآمالنا مُنْعِشًا وأمسى لآلامنا مُرْقِدًا

وقال يستثير في النفوس روح الأمل والحياة وهي الدعوة المحببة إلى الفقيه:

فَدَيْنَاكَ يَا شَرْقُ لَا تَجْزَعَنَّ	إِذَا الْيَوْمُ وَلَّى فَارْقُبْ غَدَا
فَكَمْ مَحَنَةً أَعْقَبَتْ مَحَنَةً	وَوَلَّتْ سَرَاعًا كَرَجَعَ الصَّدَى
فَلَا يُبْئِسُنَّكَ قِيلُ الْعِدَاةِ	وَإِنْ كَانَ قِيلًا كَحَزِّ الْمُدَى ^٩
أَتُودِعُ فِيكَ كَنُوزَ الْعُلُومِ	وَيَمْشِي لَكَ الْغَرْبُ مُسْتَرْفِدًا ^{١٠}
وَتُبْعَثُ فِي أَرْضِكَ الْأَنْبِيَاءِ	وَيَأْتِي لَكَ الْغَرْبُ مُسْتَرْشِدًا
وَتَقْضَى عَلَيْكَ قَضَاةُ الضَّلَالِ	طَوَالَ اللَّيَالِي بَأَنْ تَرْقُدَا؟
أَتَشْقَى بَعْدَهُ سَمَا بِالْعُلُومِ	فَأُضْحَى الضَّعِيفُ بِهَا أَيَّدًا ^{١١}
إِذَا شَاءَ بَزَّ السُّهَاءُ سِرَّهُ	وَأَدْرَكَ مِنْ جَرِيهِ الْمَقْصِدَا ^{١٢}
وَإِنْ شَاءَ أَدْنَى إِلَيْهِ النُّجُومِ	فَنَاجَى الْمَجْرَةَ وَالْفَرْقِدَا ^{١٣}
وَإِنْ شَاءَ زَعَزَعَ شُمْ الْجِبَالِ	فَخَرَّتْ لِأَقْدَامِهِ سُجَّدًا
وَإِنْ شَاءَ شَاهَدَ فِي ذَرَّةٍ	عَوَالِمَ لَمْ تَحْيَ فِيهَا سَدَى
زَمَانٌ تُسَخَّرُ فِيهِ الرِّيحُ	وَيَغْدُو الْجَمَادُ بِهِ مُنْشِدًا ^{١٤}
وَتَعْنُو الطَّبِيعَةُ لِلْعَارِفِينَ	بِمَعْنَى الْوُجُودِ وَسِرِّ الْهَدَى
إِذَا مَا أَهَابُوا أَجَابَ الْحَدِيدُ	وَقَامَ الْبَخَارُ لَهُ مُسْعِدًا ^{١٥}
وَطَارَتْ إِلَيْهِمُ مِنَ الْكُهْرِبَاءِ	بِرُوقٍ عَلَى السَّلَكِ تَطْوِي الْمَدَى

* * *

^٩ المدى بالضم: جمع مدية، وهي السكين.

^{١٠} مُسْتَرْفِدًا: أي يطلب الرقد، وهو العطاء.

^{١١} الأيّد بتشديد الياء: القوي، من الأيّد بمعنى القوة.

^{١٢} بزه: سلبه. والسُّهَاءُ: الكوكب المعروف. أي إذا شاء ذو العلم سلب من السُّهَاءِ سره وأظهره للناس.

^{١٣} المجرة والفرقد: نجوم في السماء.

^{١٤} يُشِيرُ إِلَى الطَّيْرَانِ وَالْفُونُغْرَافِ.

^{١٥} مسعدًا: أي مُعِينًا.

أيجملُ من بعد هذا وذاك بأن نستكين وأن نجمُدا؟
وها أمة «الصُفر» قد مهَّدت لنا النهجَ فاستبقوا الموردا^{١٦}

وقال فيها مخاطبًا الشباب:

فيا أيها الناشئون اعملوا على خير مصر وكونوا يدا
ستظهر فيكم ذوات الغيوب^{١٧} رجالاً تكون لمصر الفدا
«فيا ليت شعري من منكم إذا هي نادت يُلبِّي النداء؟»

وقال في ختامها مخاطبًا مصطفى كامل:

لك الله يا «مصطفى» من فتى كثير الأيادي كثير العدى
إذا ما حمدتك بين الرجال فأنت الخلق بأن تُحمدا
سيُحصي عليك سجل الزمان ثناءً يُخلد ما خلدا
«ويهتف باسمك أبناؤنا إذا آن للزرع أن يُحصدا»

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ، وتأمل في البيت الأخير منها تجد حافظاً يُقر لمصطفى بأنه الموجد للحركة الوطنية، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عندما تجني ثمار هذه الحركة، وقد ظل على هذا الرأي بعد وفاة الفقيه وبعد ظهور زعامة سعد زغلول للحركة الوطنية سنة ١٩١٩، وجهر به في رثائه للمرحوم محمد فريد في ديسمبر سنة ١٩١٩، إذ قال مُناجياً روح فريد:

قُل لـ «صبَّ النيل»^{١٨} إن لاقيته في جوار الدائم الفرد الصمد
إن مصرًا لا تنى عن قصدها رغم ما تلقى وإن طال الأمد
جئتُ عنها أحمل البشرى إلى «أول البانين» في هذا البلد
فاسترح واهناً ونم في غبطة قد بذرت الحب والشعبُ حصداً

^{١٦} أمة الصفر: أي اليابان.

^{١٧} ذوات الغيوب: أي الأقدار التي في عالم الغيب.

^{١٨} يريد مصطفى كامل.

فحافظ يعترف هنا أيضًا لمصطفى بأنه أول البانين في صرح الحركة الوطنية، وبأنه بذر الحب وأن الشعب حصد وجنى ثمار ما بذر، ورأي حافظ سنة ١٩١٩ هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة ١٩٠٦.

قصيدة حافظ في حادثة دنشواي

لقيت حادثة دنشواي^{١٩} صداها في شعر حافظ، فنشر في ٢ يوليو سنة ١٩٠٦ — أي بعد صدور الحكم فيها بخمسة أيام — قصيدته المشهورة عن الحادثة؛ ندّد فيها بسياسة الاحتلال، وسبق بها شوقي بعام؛ إذ إن شوقي لم يقل قصيدته عن الحادثة إلا بعد عام من وقوعها.

قال حافظ في مطلع قصيدته مخاطبًا المحتلين:

أيها القائمون بالأمر فينا!	هل نسيتم ولاءنا والوداد؟!
خفّضوا جيشكم وناموا هنيئًا	وابتغوا صيدكم وجُوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوق ^{٢٠}	بين تلك الرُّبَا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء	لم تُغادر أطواقنا الأجيادا ^{٢١}
لا تظنوا بنا العقوق ولكن	أرشدونا إذا ضللنا الرشادا
لا تُقيدوا من أمة بقتيل	صادت الشمس نفسه حين صاد ^{٢٢}

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ:

جاء جُهلنا بأمر وجئتم	ضعفَ ضعفه قسوةً واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو	أقصا أصا أردتم أم كيدا؟

^{١٩} راجع تفصيلها في كتاب «مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية».

^{٢٠} ذات طوق: أي الحمامة.

^{٢١} الأطواق هنا سلاسل الأسر والاستعباد. والأجياد: الأعناق، جمع جيد.

^{٢٢} أي لا تأخذوا الأمة بقتيل ثبت أنه مات بضربة شمس، وهو الكابتن بول. وأقاد الحاكم القاتل بالقتيل: أي قتله به قودًا.

أَحْسِنُوا الْقَتْلَ إِنْ ضَنْنْتُمْ بَعْفُو أَنْفُوسًا أَصَبْتُمْ أَمْ جَمَادَا؟

* * *

ليت شعري أتلك «محكمة التفـ	تيش» عادت أم عهد «نيرون» عادا؟
كيف يحلو من القويّ التشفّي	من ضعيف ألقى إليه القيادا؟
إنها مُثْلَةٌ تشفّ عن الغيـ	ظ ولسنا لغيظكم أندادا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم	إنما يُكرّم الجوادُ الجوادا
إن عشرين حجة بعد خمس	علّمتنا السكون مهما تُمادى
أمة النيل أكبرت أن تُعادي	مَن رماها وأشفقت أن تُعادي
ليس فيها إلا كلام وإلا	حسرة بعد حسرة تتهدى

وقال مخاطبًا المدعي العمومي في القضية:

أيها المدعي العمومي ^{٢٣} مهلاً	بعض هذا فقد بلغت المراد
قد ضمناً لك القضاء بمصر	وضمناً لنجلك الإسعاد
فإذا ما جلست للحكم فاذكر	عهد «مصر» فقد شفيت الفؤادا
لا جرى النيل في نواحيك يا «مـ	ر» ولا جادك الحيا حيث جادا ^{٢٤}
أنت أنبت ذلك النبت يا «مـ	ر» فأضحى عليك شوگا قتادا
أنت أنبت ناعقًا قام بالأمـ	س فأدمى القلوب والأكبادا

* * *

إيه يا مدرة القضاء ويا مَن	سادَ في غفلة الزمان وشادا
أنتَ جَلَدْنَا فلا تنسَ أنَّا	قد لبسنا على يدك الحدادا

والقصيدة كما ترى من أروع ما قال حافظ، وفيها تصوير لتلك الحادثة الفظيعة التي أظهرت مبلغ الظلم البريطاني ومبلغ هوان المصري في نظر الاحتلال، وقد حمل

^{٢٣} إبراهيم الهلباوي.

^{٢٤} الحيا: المطر.

حافظ بأسلوبه اللاذع القوي على هذا الظلم حملات اهتزت لها أركانها، كما حمل على الضعف الذي كان من أسباب استفحال هذا الظلم؛ فكانت هذه الحملة دعوة صادقة إلى اطراح الضعف والأخذ بأسباب النهوض والقوة في محاربة الاحتلال.

قصيدته في استقبال اللورد كرومر بعد حادثة دنشواي

وعاد يصف فظائع الاحتلال في حادثة دنشواي في قصيدة له قالها في أكتوبر سنة ١٩٠٦ مناسبة عودة اللورد كرومر المعتمد البريطاني من إجازته، وكان صاحب الحَوْل والطَّوْل وقتئذٍ في البلاد.

فالشَّرق رِيحٌ له وضجُّ المغربِ	«قصر الدُّبارة» ^{٢٥} هل أتاك حديثنا
بعد التحية إنني أتعَبُّ	أهلاً بساكنك الكريم ومرحباً
باتت لها أحشاؤنا تتلهَّبُ	نقلت لنا الأسلاك عنك رسالة

إلى أن قال:

يوم الحمام فإن صدرك أرحبُ ^{٢٦}	إن ضاق صدر النيل عما هاله
أُمسّت إلى معنى التعصُّبِ تُنسَبُ ^{٢٧}	أوكلُّما باح الحزين بأنَّة
ضاق الرجاء بها وضاق المذهبُ	رفقاً عميدَ الدولتين بأمة
ليست بغير ولائها تتعذبُ	رفقاً عميدَ الدولتين بأمة
للقوت لا للمسلمين تعصبوا	إن أرهقوا صيَّادكم فلعلهم
وسخا بمهجته على من يغصبُ	ولربما ضنَّ الفقير بقوته
لعبَ القضاء بنا وعزَّ المَهْرَبُ	في «دنشواي» وأنت عنا غائب
فتسابقوا في صيدهنَّ وصوبوا	حسبوا النفوس من الحمام بديلة

^{٢٥} يريد دار المعتمد البريطاني.

^{٢٦} يوم الحمام: أي يوم صيد الحمام في حادثة دنشواي.

^{٢٧} يُشير إلى ما زعم اللورد كرومر من أن التعصب الديني هو سبب حادثة دنشواي.

نُكِبُوا وأَقْفَرَتِ المنازلُ بعدهم
خَلَّيْتَهُم والقَاسِطُونَ^{٢٨} بِمِرْصَدٍ
جُلِدُوا وَلَوْ مَنِيَّتَهُم لَتَعَلَّقُوا
شُنِقُوا وَلَوْ مُنِحُوا الْخِيَارَ لِأَهْلُوا
يَتَحَاسِدُونَ عَلَى الْمَمَاتِ وَكَأْسُهُ
مَوْتَانِ؛ هَذَا عَاجِلٌ مُتَنَمِّرٌ
وَالْمُسْتَشَارُ^{٢٩} مُكَاثِّرٌ بِرَجَالِهِ
يَخْتَالُ فِي أَنْحَائِهَا مُتَبَسِّمًا
طَاحُوا بِأَرْبَعَةٍ فَأَرَدُوا خَامِسًا
حُبٌّ يُحَاوِلُ غَرْسَهُ فِي أَنْفُسِ
كَنْ كَيْفَ شَتَتْ وَلَا تَكِلْ أَرْوَاحَنَا
وَأَفْضِ عَلَى «بُنْدٍ»^{٣١} إِذَا وَلِيَ الْقَضَا

لَوْ كُنْتَ حَاضِرَ أَمْرِهِمْ لَمْ يُنْكَبُوا!
وَسَيَاطُهُمْ وَحِبَالُهُمْ تَتَأَهَّبُ
بِحِبَالٍ مِنْ شُنِقُوا وَلَمْ يَتَهَيَّبُوا^{٢٩}
بِلُظَى سَيَاطِ الْجَالِدِينَ وَرَحَّبُوا^{٢٩}
بَيْنَ الشِّفَاهِ وَطَعْمِهِ لَا يَعْذُبُ
يَرْنُو وَهَذَا آجِلٌ يَتَرَقَّبُ
وَمُعَاجِزٌ وَمُنَاجِزٌ وَمُحَزَّبٌ
وَالدَّمَعُ حَوْلَ رِكَابِهِ يَتَصَبَّبُ
هُوَ خَيْرٌ مَا يَرْجُو الْعَمِيدُ وَيَطْلُبُ
يُجْنَى بِمَغْرَسِهَا الثَّنَاءُ الطَّيِّبُ
لِلْمُسْتَشَارِ فَإِنْ عَدَلَكَ أَخْصَبُ
رَفَقًا يَهْشُ لَهُ الْقَضَاءُ وَيَطْرُبُ

قصيدته في شكوى مصر من الاحتلال

قالها في يناير سنة ١٩٠٧:

لَقَدْ كَانَ فِينَا الظُّلْمُ فَوْضَى فَهْذَبْتَ
تَمُنُّ^{٣٢} عَلَيْنَا الْيَوْمَ أَنْ أَخْصَبَ الثَّرَى

حَوَاشِيهِ حَتَّى بَاتَ ظُلْمًا مُنْظَمًا
وَأَنْ أَصْبَحَ الْمَصْرِيُّ حُرًّا مُنْعَمًا

^{٢٨} القاسطون: الظالمون.

^{٢٩} أهلوا ورحبوا: أي قالوا أهلاً ومرحباً.

^{٣٠} يريد الكاتبن متشمل مستشار وزارة الداخلية، وكان يُشرف على تنفيذ الحكم. ومعاجز: من عاجزت الرجل إذا أتيت بما يجعله عاجزاً. وحزب: أي جمع أعوانه وأحزابه فبعضهم يتولى الشنق وبعضهم يتولى الجلد.

^{٣١} المستر بوند وكيل محكمة الاستئناف وأحد قضاة المحكمة المخصوصة التي حاكت المتهمين في حادثة دنشواي، وكان القاضي الموجه للأستلة في هذه المحاكمة، ونمت أسئلته على سوء نيته وميله إلى الانتقام والتشفي.

^{٣٢} يخاطب المعتمد البريطاني.

أعد عهد «إسماعيل» جَلَدًا وسخرةً
عملتم على عز الجُمادِ وذَلَّلنا
إذا أخصبت أرض وأجذب أهلها
نهشُ إلى الدنيار حتى إذا مشى
فلا تحسبوا في وفرة المال — لم تُفد
فإن كثير المال — والخفضُ وارفُ —
فإنني رأيت المنَّ أنكى وآلما
فأغليتم طينًا وأرخصتم دما
فلا أطلعت نبتًا ولا جادها السَّما
به ربه للسوق ألفاه درهمًا
متاعًا ولم تعصم من الفقر — مَغنما
قليلٌ إذا حلَّ الغلاء وخيِّما^{٣٣}

قصيدته في استقالة اللورد كرومر

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى
لقد حان توديع العميد وإنه
فودّع لنا الطود الذي كان شامخًا
فلا تكذب التاريخ إن كنت مُنشدًا
حقيقٌ بتشجيع المُحبين والعدي
وشيعٌ لنا البحر الذي كان مُزبدًا

إلى أن قال:

يُناديك قد أزييتَ بالعلم والججا
وأنتك أخصبتَ البلادَ تعمُّدًا
قضيتَ على أم اللغات وإنه
ووافيتَ والقُطران في ظل راية
فطاح كما طاحت «مُصوِّع» بعده
حجبتَ ضياء الصحف عن ظلماته
وأودعتَ تقرير الوداع مغامرًا
غمزتَ بها دين النبي وإننا
ولم تُبقِ للتعليم يا «لورد» معهدًا
وأجذبتَ في مصر العقول تعمُّدًا
قضاءً علينا أو سبيلٌ إلى الردى^{٣٤}
فما زلت بـ «السودان» حتى تمرَّدًا
وضاعت مَساعينا بأطماعكم سدى
ولم تستقلَّ حتى حجبتَ «المؤيدا»^{٣٥}
رأينا جَفاء الطبع فيها مُجسِّدًا
لَنَغضبُ إن أغضبتَ في القبر «أحمدا»

^{٣٣} الخفض: سعة العيش. يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لا تُغني شيئاً.

^{٣٤} أم اللغات: أي اللغة العربية. يُشير إلى محاربة الاحتلال للغة العربية، وجعل دراسة العلوم في أكثر المدارس باللغة الإنجليزية.

^{٣٥} حجبت المؤيد: أي منعت من دخول السودان.

* * *

يُنَادِيكَ أَيْنَ النَّابِغُونَ بِعَهْدِكُمْ	وَأَيُّ بِنَاءٍ شَامَخَ قَدْ تَجَدَّدَا؟
فَمَا عَهْدُ «إِسْمَاعِيلَ» وَالْعَيْشُ ضَيِّقُ	بَأَجْدَبٍ مِنْ عَهْدٍ لَكُمْ سَالَ عَسْجَدَا
يُنَادِيكَ وَلَيْتَ الْوِزَارَةُ هَيْئَةٌ	مَنْ الصَّمْ لَمْ تَسْمَعْ لِأَصْوَاتِنَا صَدَى
فَلَيْسَ بِهَا عِنْدَ التَّشَاوُرِ مِنْ فَتَى	أَبِيٍّ إِذَا مَا أَصْدَرَ الْأَمْرَ أَوْرَدَا
بِرَبِّكَ مَاذَا صَدَّنَا وَلَوْ بِنَا	عَنِ الْقَصْدِ إِنْ كَانَ السَّبِيلُ مُمَهَّدَا؟
أَشْرَتْ بَرَأً فِي كِتَابِكَ لَمْ يَكُنْ	سَدِيدًا وَلَكِنْ كَانَ سَهْمًا مُسَدَّدَا
وَحَاوَلْتَ إِعْطَاءَ الْغَرِيبِ مَكَانَهُ	تَجَرَّ عَلَيْنَا الْوَيْلَ وَالذَّلَّ سَرْمَدَا
فِيَا وَيْلَ مَصْرِ يَوْمَ تَشْقَى بِنْدُوهُ	يَبِيتُ بِهَا ذَاكَ الْغَرِيبَ مُسَوَّدَا ^{٣٦}

* * *

أَلَمْ يَكْفِنَا أَنَّا سُلِبْنَا ضِيَاعِنَا	عَلَى حِينٍ لَمْ نَبْلُغْ مِنَ الْفُطْنَةِ الْمَدَى
وَزَاخَمْنَا فِي الْعَيْشِ كُلِّ مُمَارَسٍ	خَبِيرٍ وَكُنَّا جَاهِلِينَ وَرُقْدَا
وَمَا الشَّرَكَاتُ السُّودُ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ	سِوَى شَرِكٍ يُلْقِي بِهِ مِنْ تَصِيدَا

قصيدته في استقبال السير جورست

استقال اللورد كرومر أو أُقِيلَ من منصبه في أبريل سنة ١٩٠٧ على أثر حادثة دنشواي، وخلفه في منصبه السير إلدون جورست، فاستقبله حافظ بقصيدة عبّر فيها عن شكوى مصر من الاحتلال وآثامه، قال فيها في أسلوب التهكم والسخرية:

أَذِيقُونَا الرِّجَاءَ فَقَدْ ظَمِينَا	— بَعْدَ الْمُصْلِحِينَ — إِلَى الْوَرُودِ
وَمُنُّوا بِالْوُجُودِ فَقَدْ جَهِلْنَا	— بِفَضْلِ وَجُودِكُمْ — مَعْنَى الْوُجُودِ
إِذَا أَعْلَوَى الصِّيَاحِ فَلَا تَلُمْنَا	فَإِنَّ النَّاسَ فِي جَهْدٍ جَهِيدٍ! ^{٣٧}

^{٣٦} يُشِيرُ إِلَى مَشْرُوعِ اللُّوردِ كُرومرِ فِي إِتْشَاءِ مَجْلِسِ تَشْرِيعِي مُخْتَلِطٍ.

^{٣٧} أَعْلَوَى: أَيُّ عَلَا.

على قدر الأذى والظلم يعلو صياح المُشفِّقين من المزيد!
جِراحُ في النفوس نَغَرَ نَغْرًا وَكُنَّ قد اندملنَ على صديدٍ^{٣٨}
إذا ما هاجهنَّ أسَى جديد هتكنَّ سرائر القلب الجليد

إلى أن قال:

فما جئنا نطاولكم بجاه يطولكم ولا ركن شديد
ولكننا نطالِبكم بحق أضرَّ بأهله نقضُ العهود

وعاد إلى ذكر حادثة دنشواي وكيف كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية:

رمانا صاحب التقرير ظلمًا بكفران العوارف والكنود^{٣٩}
وأقسَم لا يُجيب لنا نداءً ولو جئنا بقرآن مجيد
وبشَّر أهلَ مصر باحتلال يدوم عليهمُ أبد الأبيد
وأنبَت في النفوس لكم جفاء تعهده بمنهل الصدود
فأنمر وحشةً بلغت مداها وزكَّاهَا بأربعةِ شهود^{٤٠}
قتيل الشمس أورتنا حياة وأيقظ هاجع القوم الرُّقود^{٤١}
فلَيْتَ «كرومرًا» قد دام فينا يُطوَّق بالسلاسل كل جيد
ويُتَحِف «مصر» آنا بعد آن بمجلود ومقتول شهيد
لينزع هذه الأكفان عنا ونُبْعث في العوالم من جديد

^{٣٨} نغر الجرح: سال دمه. واندمل: التأم.

^{٣٩} صاحب التقرير هو اللورد كرومر.

^{٤٠} يريد بالشهود الأربعة من أعدموا في قضية دنشواي وهم أربعة.

^{٤١} قتل الشمس هو الكابتن بول الضابط الإنجليزي الذي مات في حادثة دنشواي بضربة الشمس. يريد أن ما أصاب الناس من التنكيل بسبب هذا القتل جعلهم يثورون للمطالبة بالحرية.

رثاؤه لمصطفى كامل

في يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ حين شيعت مصر جنازة مصطفى كامل وقف حافظ على قبره وأنشد قصيدته الرائعة في رثائه قال:

أيا قبرُ هذا الضيفُ آمالُ أمة
عزيزُ علينا أن نرى فيك مصطفى
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده
ولكن فقدنا كل شيء بفقدته
فيا سائلي أين المروءة والوفا
هنيئاً لهم^{٤٢} فليأمنوا كل صائح
ومات الذي أحيا الشعور وساقه
فكبر وهلل والَق ضيفك جاثيا
شهيد العُلا في زهرة العمر ذاويا
لكان التأسى من جوى الحزن شافيا^{٤٣}
وهيهات أن يأتي به الدهر ثانيا
وأين الحجا والرأي؟ ويحك ها هيا!
فقد أَسَكَّت الصوت الذي كان عاليا
إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا

* * *

مدحتك لما كنتَ حيًّا فلم أُجد
عليك^{٤٤} وإلا ما لذا الحزن شاملاً
يموت المُداوي للنفوس ولا يرى
وكنا نياماً حينما كنت ساهداً^{٤٥}
شهيدَ العُلا لا زال صوتك بيننا
يُهيِّبُ بنا: هذا بناءً أقمته
يصيح بنا: لا تُشعروا الناس أنني
يُنَاشِدُنَا بالله ألا تفرّقوا
فروحي من هذا المقام مُطلّة
وإني أُجيد اليومَ فيك المراثيا
وفيك وإلا ما لذا الشعب باكيا
لما فيه من داء النفوس مُداويا
فأسهدتنا حزناً وأمسيّت غافيا
يرنُّ كما قد كان بالأمس داويا
فلا تهدموا بالله ما كنتُ بانيا
قضيتُ وأن الحي قد بات خاليا
وكونوا رجالاً لا تَسرُّوا الأعاديا
تُشارِفكم^{٤٦} عني وإن كنت باليا

^{٤٢} التأسى: بمعنى الصبر.

^{٤٣} يريد الإنجليز.

^{٤٤} عليك: أي عليك الحزن.

^{٤٥} ساهداً: ساهراً.

^{٤٦} تشارفكم: أي تنظر إليكم من علو.

فلا تُحزِنوها بالخلاف فإنني أخاف عليكم في الخلاف الدواھيا

* * *

أجل أيها الداعي إلى الخير إننا
بناؤك محفوظ وطيفك ماثل
عهدناك لا تبكي وتُنكر أن يُرى
فرخص لنا اليوم البكاء وفي غدٍ
فيا نيل إن لم تجر بعد وفاته
ويا «مصر» إن لم تحفظي ذكر عهده
ويا أهل «مصر» إن جهلتم مصابكم
على العهد ما دُمنّا فنم أنت هانيا
وصوتك مسموع وإن كنت نائيا
أخو البأس في بعض المواطن باكيا
ترانا كما تهوى جبلاً رواسيا
دمًا أحمرًا لا كنت يا نيل جاريًا
إلى الحشر لا زال انحلاك باقيا
ثّقوا أن نجم السعد قد غار هاويا

* * *

ثلاثون عامًا^{٤٧} بل ثلاثون دُرة
ستشهد في التاريخ أنك لم تكن
بجيد الليالي ساطعات زواھيا
فتى مُفردًا بل كنت جيشًا مُغازيا

قصيدته في حفلة الأربعين

وله في رثاء مصطفى قصيدة أخرى ألقاها في حفلة الأربعين، قال:

نثروا عليك نوادي الأزهار^{٤٨}
زَيْنَ الشبابِ وزَيْنَ طُلابِ العلا
غادرتنا والحادثات بمرصد
ما كان أحوَجنا إليك إذا عدا
أين الخطيب وأين خَلَابُ النُّهى؟
بالله ما لك لا تُجيب مُناديًا
قُم وامحُ ما خطت يمين «كرومر»
وأُتيت أنثر بينهم أشعاري
هل أنت بالمُهَجِ الحزينة داري؟
والعيش عيش مَذَلَّةٍ وإسارٍ
عادٍ وصاح الصائِحون: بدارٍ
طال انتظار السمع والأبصارٍ
ماذا أصابك يا أبا المغوار؟
جَهلاً بدينِ الواحد القهارِ

^{٤٧} إشارة إلى عمر الفقيه وهو رقم تقريبي لأنه تُوُفي في الرابعة والثلاثين من عمره.

^{٤٨} نوادي الأزهار: أي الرطبة المُبلَّلة بالندى.

قد كنتَ تغضبُ للكنانة كلما
غضبَ التقى لربه وكتابه
قد ضاق جسمك عن مَدَاك فلم يُطق
أودى به ذاك الجهادُ وهده
لعبتَ يمينك باليراع فأعجزت
وجريتَ للعلياء تبغي شأوها
أوكلما هزَّ الرجاءُ مُهنِّدًا

همَّتْ وهمَّ رجاؤها بعثار
أو غَضِبَ «الفاروق للمختار»^{٤٩}
صبرًا عليك وأنت شعلَةٌ نار
عزمٌ يهدُّ جلائل الأخطار
لعب الفوارس بالقنا الخطار^{٥٠}
فجری القضاء وأنت في المضمار
بدرتَ إليه غوائل الأقدار؟

* * *

عزَّ القرارُ عليَّ ليلةً نعيه
وتسابقت فيه النعاةُ فطائرُ
شاهدتُ يومَ الحشر يومَ وفاته
ورأيتُ كيف تفي الشعوبُ رجالها
تسعون ألفًا حول نعشك خُشع
خطوا بأدمعهم على وجه الثرى
أنا يوالون الضجيجُ كأنهم
وتخالهم أنا لفرط خشوعهم
غلب الخشوع عليهم فدموعهم
قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم
أسعى فيأخذني اللهيب فأنثني
لو لم أُلذ بالنعش أو بظلاله

وشهدتُ موكبهُ فقرَّ قراري^{٥١}
بالكهرباء وطائرٌ ببخار
وعلمتُ منه مراتب الأقدار
حقَّ الولاء وواجب الإكبار
يمشون تحت «لوائك» السيار
للحزن أسطارًا على أسطار
ركبُ الحجيج بكعبة الزَّوار
عند المصلَّى يُنصتون لقاري
تجري بلا كلح^{٥٢} ولا استنثار
ما بين سيل دافق وشرار
فيصدُّني مُتدفِّق التيار
لقضيتُ بين مراجلٍ وبخار

* * *

^{٤٩} الفاروق: عمر بن الخطاب. والمختار: النبي عليه الصلاة والسلام.

^{٥٠} القنا: الرماح.

^{٥١} أي استقرت نفسه بعد أن شهد وفاء الأمة للفقيد في موكب الجنازة.

^{٥٢} الكلح: العبوس. أي تجري الدموع بطبيعتها بلا عبوس.

كم ذاتِ خدرٍ يومَ طافَ بك الردى
سفرتْ تُودّعُ أمةَ محمولة
أمنتْ عيونُ الناظرينَ فمزقتْ
قد قام ما بين العيون وبينها
هتكتْ عليك حرائرَ الأستارِ
في النعش لا خبراً من الأخبارِ
وجه الخمار فلم تلذ بخمارٍ^{٥٣}
سترٌ من الأحزان والأكدارِ

* * *

أُدْرِجَتَ في العلم الذي أصفيتَه
علّمان^{٥٤} من فوق الرءوس كلاهما
ناداهما داعي الفراق فأمسيا
تالله ما جزع المُحب ولا بكى
جزع «الهلal» عليك يوم تركته
مُتلفئاً مُتحيئاً مُتخيئاً
إن الثلاثين التي بك فاخرتْ
ضمتْ إلى التاريخ بضع صحائف
شبّهتُهنَّ بنقطة عطرية
خلفتها كالمشق يحذو حذوها
ماذا على الساري وهُنَّ^{٥٥} منائر
منك الوداد فكان خير شعارِ
في طيّه سرٌّ من الأسرارِ
يتعانقان على شفيرِ هاري
لنوى مُروعة وبُعدِ مزارِ
ما بين حرٍّ أسى وحرٍّ أوارٍ^{٥٥}
رجلاً يُناضل عنه يومَ فخارِ
باتت تُقاس بأطول الأعمارِ
بيضاء مثل صحائف الأبرارِ
وسعتْ مُحصل روضة معطارٍ^{٥٦}
راجي الوصول ومُقتفي الآثارِ
لو سار بين مجاهلٍ وقفارِ

* * *

مازلتْ تختارِ المواقف وعرةً
وهدمتْ سوراً قد أجاد بناءه
حتى وقفت لذلك الجبارِ^{٥٨}
فرعون^{٥٩} ذو الأوتاد والأنهارِ

^{٥٣} الخمار: الحجاب.

^{٥٤} يريد بالعلّمين: الفقيد فهو علم الوطنية، والثاني علم الوطن.

^{٥٥} الأسى: الحزن. والأوار: الظمأ والتعطش؛ أي التعطش إلى الفقيد.

^{٥٦} الروضة المعطار: هي الكثيرة الأزهار والرياحين.

^{٥٧} هن إشارة إلى الثلاثين عاماً: أي ماذا على الساري في المجاهل والقفار إذا اهتدى بنور هذه الأعمال.

^{٥٨} اللورد كرومر.

^{٥٩} شبّه كرومر بفرعون.

ووصلتَ بين شكاتنا ومشايخ في «البرلمان» أجلة أخيار
كشفوا الغطاء عن العيون فأبصروا ما في الكنانة من أذى وضرار
نبذوا كلام «اللورد» حين تبينوا حنق المغيظ ولهجة الثرثار
ورماهم بمجلدين^{٦٠} رموهما في رتبة الأصفار لا الأسفار

* * *

واهاً على تلك المواقف إنها كانت مواقف ليث غاب ضاري
لم يلوه عنها الوعيد ولا ثنى من عزمه قول المريب: حذار
فاهناً بمنزلك الجديد ونم به في غبطة وانعم بخير جوار
واستقبل الأجر الكبير جزاء ما ضحيت للأوطان من أوطار
نعم الجزاء ونعم ما بلغته في منزلك^{٦١} ونعم عقبى الدار

قصيدته في الذكرى الأولى للفقيد

وله قصيدة الثالثة عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ في الاحتفال بإحياء ذكره الأولى، وهي من أبلغ روائع الشعر العربي، قال:

طُوفُوا بأركان هذا القبر واستلموا^{٦٢} واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم
هنا جنانُ تعالى الله بارئُه ضاقت بآماله الأقدار والهمم
هنا فمٌ وبنانٌ لاح بينهما في الشرق فجرٌ تحيي ضوئه الأمم
هنا فمٌ وبنانٌ طالما نثرا نثرًا تسير به الأمثال والحكم
هنا الكمي^{٦٣} الذي شادت عزائمه لطالب الحق ركنًا ليس ينهدم
هنا الشهيد هنا ربُّ اللواء هنا حامي الدمار هنا الشهم الذي علموا

^{٦٠} يريد بالمجلدين: كتاب مصر الحديثة للورد كرومر.

^{٦١} أي الدنيا والآخرة.

^{٦٢} استلم القبر: قبَّله أو لمسه بيده.

^{٦٣} الشجاع.

* * *

يا أيها النائم الهاني بمَضَجِهِ لِيَهْنِكَ النَّوْمُ لَا هَمٌّ وَلَا سَقَمٌ
باتت تُسائلنا في كل نازلة عنك المناير والقرطاس والقلمُ
تركتَ فينا فراغاً ليس يشغله إلا أبايَ ذكيَّ القلبِ مضطربُ
مُنْفَر النَّوْمِ^{٦٤} سَبَّاقٌ لَغَايَتِهِ آثاره عَمَمٌ آماله أَمَمٌ

* * *

إني أرى وفؤادي ليس يكذبني روحاً يحفُّ بها الإكبار والعِظَمُ
أرى جلالاً أرى نوراً أرى ملكاً أرى مُحِيًّا يُحْيِينَا وَيَبْتَسِمُ
الله أكبر هذا الوجه أعرفه هذا فتى النيل هذا المُفَرِّدُ العِلْمُ
غُضُّوا العيون وحَيُّوه تحيته من القلوب إذا لم تُسْعِدِ^{٦٥} الكَلِمُ
«وَأَقْسِمُوا أَنْ تَذُودُوا عَنْ مِبَادئِهِ فنحن في موقف يحلو به القسمُ»

* * *

لبَّيك نحن الألى حَرَكْتَ أَنْفُسَهُمْ لما سكنتَ ولما غالك العَدَمُ
جئنا نُؤدِّي حساباً عن مواقفنا ونستمد ونستعدي^{٦٦} ونحتكمُ
قيل اسكتوا فسكتنا ثم أنطقنا عسفُ الجفاة^{٦٧} وأعلى صوتنا الألمُ
قد اتُّهمنا ولما نَطَّلَبُ جِلًّا إن الضعيف على الحالين مُتَهَمُ
قالوا لقد ظلموا بالحق أنفسهم والله يعلم أن الظالمين همُ
إذا سكتنا تَنَاجَوْا: تلك عادتهم وإن نطقنا تَنَادَوْا: فتنَةُ عَمَمُ

* * *

قد مرَّ عامٌ بنا والأمرُ يحزبنا^{٦٨} آناً وآونةً تنتابنا النِّقَمُ

^{٦٤} مُنْفَر النَّوْمِ: أي مُسَهَّد.

^{٦٥} أسعده: أعانه.

^{٦٦} نستمد: نطلب المدد. ونستعدي: نستنصر.

^{٦٧} يريد بالجفاة المحتلين الجناة.

^{٦٨} حزبه الأمر: اشتد عليه.

فالناس في شدة والدهر في كَلْب^{٦٩}
وللسياسة فينا كلُّ آونة
بيننا نرى جَمَرها تُخشى مَلامسه
تُصغِي لأصواتنا طورًا لتخدعنا
فمن مُلَايِنَةٍ أَسْتارُها خدعُ
والعيش قد حارَ فيه الحاذق الفهمُ
لَوْنٌ جديد وعهدٌ ليس يُحترَمُ
إذا به عند لمس المُصْطَلِي فَحَمُ
وتارةً يزدهيها الكِبَرُ والصَمَمُ
إلى مُصَالِبَةٍ أَسْتارُها وَهَمُ

* * *

ماذا يريدون؟^{٧٠} لا قرَّت عيونهمُ
كم أمةٍ رَغِبَتْ فيها فما رسخت
ما كان رَبُّكَ رَبُّ البيت تارِكُها
لَبَّيْكَ إنا على ما كنت تعدّه
فيعلمَ النيلُ أَنَّا خيرٌ مَنْ وردوا
إن الكنانة لا يُطوى لها عِلْمُ
لها — على حولها^{٧١} — في أرضها قَدَمُ
وهي التي بحبال منه تعتصمُ
حتى نسود وحتى تشهد الأممُ
ويستطيل اختيالاً ذلك الهرمُ

إلى أن قال:

يا أيها النشء سيروا في طريقته
فكلُّكم «مصطفى» لو سار سيرته
قد كان لا وانيًا يومًا ولا وكِلًا^{٧٢}
وأنت يا قبر قد جئنا على ظمأ
أين الشباب الذي أودعتْ نضرته
وما صنعتَ بآمال لنا طُوِيَتْ
وثابروا: رضي الأعداءُ أو نقموا
وكلُّكم «كامل» لو جازه^{٧٣} السَّأَمُ
يستقبل الخُطْبَ بَسَامًا ويقتحمُ
فجُد لنا بجوابِ جادِكَ الدِّيمِ^{٧٤}
أين الخلالُ — رعاك الله — والشَّيْمُ؟
يا قبرُ فيك وعَفَى رسمُها القَدَمُ؟

^{٦٩} الكلب: الشدة.

^{٧٠} يريد المحتلين.

^{٧١} الحول: القوة.

^{٧٢} جازه: أي جاوزه.

^{٧٣} الوكل: العاجز الذي يكل الأمر إلى غيره.

^{٧٤} الديم: جمع ديمة السحاب.

ألا جوابٌ يُروِّي من جوانحنّا؟
نَم أنت يكفّيك ما عانيت من تعب
هذا «لواؤك» خَفّاقٌ يُظَلِّلنا
ما للقبور إذا ما نُوديت تَجَمُّ؟^{٧٥}
فنحن في يقظة والشمْل مُلتئم
وذاك شخصك في الأكباد مُرتسم

تحية العام الهجري

أعد الشباب في سنة ١٩٠٩ (١٣٢٧ هجرية) احتفالاً كبيراً بالعام الهجري الجديد، تولّى الطلبة تنظيمه برعاية نادي المدارس العليا، وكان احتفالاً رائعاً أقيم بدار التمثيل العربي مساء الجمعة غاية ذي الحجة سنة ١٣٢٦ (٢٢ يناير سنة ١٩٠٩) برئاسة أحمد بك لطفي، وألقى فيه حافظ قصيدته المشهورة في تحية العام الجديد. قال في مطلعها:

أطلّ على الأكوان والخلق تنظُرُ
تجلّى لهم في صورةٍ زادَ حسنُها
وبشّره من وجهه وجبينه
وأذكّره يومًا^{٧٦} أغرَّ مُحجَّلاً
وهاجر فيه خيرٌ داعٍ إلى الهدى
يُماشيه جبريل وتسعى وراءه
بيُسراه برهانٌ من الله ساطعٌ
فكان على أبواب «مكة» ركبه
مضى العام ميمونَ الشهور مُباركاً
مضى غيرَ مذموم فإن يذكروا له
وإن قيل أودى بالألوف أجابهم
«إذا قيس إحسانٌ امرئٍ بإساءة
ففيه أقام النائمون وقد أتت
هلالٌ رآه المسلمون فكبروا
على الدهر حسناً أنها تتكرّر
وغرته والناظرين مُبشّر
به توجّ التاريخ والسعد مُسفر
يحفّ به من قوة الله عسكر
ملائكة ترعى خطاه وتخفر
هدى وبيمناه الكتاب المُطهر
وفي «يثرب»^{٧٧} أنواره تتفجر
نُعدّ آثارٌ له وتُسَطّر
هناتٍ فطبّع الدهر يصفو ويكدر
مُجيب: لقد أحيا الملايين فانظروا
فأربى عليها فالإساءة تُغفرُ»
عليهم كأهل الكهف في النوم أعصرُ

^{٧٥} وجَم يَجَمُّ: سكت عن الكلام.

^{٧٦} يريد يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة.

^{٧٧} المدينة المنورة.

وفي عالم الإسلام في كل بقعة له أثرٌ باقٍ وذِكْرٌ مُعطرٌ

وبعد أن سرد الحوادث في مختلف الأقطار الإسلامية طوال العام المنصرم، عرّج على الحركة الوطنية في مصر فحيّاها أحسن تحية وكان ترجمان الشعر والأدب في تمجيدها وتأييدها، قال:

وفيه سرّت في مصر روحٌ جديدة
خبّت زمناً حتى توهّمت أنها
تصدى فأوراها وهيّات أن يرى
مضى زمن التنويم يا نيلٌ وانقضى
وقد كان «مرفين» الدهاء مُخدّراً
شعرنا بحاجات الحياة فإن وُنت
شعرنا وأحسّسنا وباتت نفوسنا
«إذا الله أحيّا أمةً لن يردها

مُباركةً من غيرّة تتسعرُ
تجافت عن الإبراء لولا «كرومر»^{٧٨}
سبيلاً إلى إخمادها وهي تزفرُ
ففي مصر أيقاظٌ على مصر تسهرُ
فأصبح في أعصابنا يتخذُ
عزائمنا عن نيلها كيف نُعذّرُ؟
من العيش إلا في ذرا العز تسحرُ
إلى الموت قهّار ولا مُتجبرُ»

وحياً الشباب بقوله:

رجالَ الغد المأمول إنا بحاجة
رجالَ الغد المأمول إنا بحاجة
رجالَ الغد المأمول إنا بحاجة
رجالَ الغد المأمول إنا بحاجة
رجالَ الغد المأمول إنا بحاجة
رجالَ الغد المأمول لا تتركوا غداً
رجالَ الغد المأمول إن بلادكم
عليكم حقوقٌ للبلاد أجلّها

إلى قادة تبني وشعب يُعمرُ
إلى مُصلِح يدعو وداعٍ يُذكّرُ
إلى عالمٍ يدري وعلمٍ يُقرّرُ
إلى حكمةٍ تُملي وكفٍّ تُحرّرُ
إليكم فسُدّوا النقص فينا وشمّروا
يمر مرور الأمس والعيشُ أغبرُ
تُناشدكم بالله أن تتذكروا
تعهدُ روض العلم فالروضُ مُقفرُ

^{٧٨} خبت: خمدت. وتجافت: تباعدت. وإبراء النار: إشعالها. وكرومر هو المعتمد البريطاني في ذلك الحين والحاكم المطلق في مصر وقتئذٍ. يريد أن فظائع كرومر قد أشعلت روح الكراهية للاحتلال.

«قُصَارَى مُنَى أوطانكم أن ترى لكم يداً تبتني مجداً ورأساً يُفَكِّرُ»
فَكُونُوا رجالاً عاملين أعزة وصُونُوا جَمَى أوطانكم وتحَرَّروا

وعرَّج على حركة المطالبة بالدستور، قال:

ويا طالبي «الدستور» لا تسكنوا ولا تبيتوا على يأس ولا تتضجروا
أعدوا له صدر المكان فإنني أراه على أبوابكم يتخطرُ
ولا تنطقوا إلا صواباً فإنني أخاف عليكم أن يُقال تهوَّروا
«فما ضاع حقُّ لم ينم عنه أهله ولا ناله في العالمين مُقَصَّرُ»
لقد ظفر الأتراك عدلاً بسؤلهم^{٧٩} ونحن على الآثار لا شك نظفُ
هم لهم العام القديم مُقدَّر ونحن لنا العام الجديد مُقدَّرُ

وقد قُوبِلَت القصيدة بالتصفيق والإعجاب والحماسة البالغة من الحاضرين، وكان
إلقاؤه رائعاً أخاذاً، ولبت في إلقائه ساعة من الزمان كاملة.

وفي ١٢ يناير سنة ١٩١٠ أقام الشباب أيضاً احتفالاً فخماً بعيد رأس السنة الهجرية
١٣٢٨ بمسرح «البيلوت باسك» بشارع عماد الدين، فألقى فيه حافظ قصيدة من أبلغ
شعره، قال في مطلعها يُحيي هلال العام الجديد:

لي فيك حين بدا سناك وأشرقاً أملٌ سألتُ الله أن يتحققا

ثم ذكر العام الذي مضى وما أصاب مصر فيه من كوارث، قال:

أشرق علينا بالسعود ولا تكن كأخيك مشئومَ المنازل أخرقا

إلى أن قال ينعى حرية الصحافة ويذكر ما أصابها من الضغط والاضطهاد:

ورمى على أرض الكنانة جِرمه بالنازلات السود حتى أرهقا

^{٧٩} يريد إعلان الدستور في تركيا عام ١٩٠٨.

حصدت مَناجلُه غِراسَ رجائنا ولو أنّها أبقت عليه لأورقا
فتقيّدت فيه «الصحافة» عنوةً ومشى الهوى بين الرعية مُطلّقا
وأتى يُساوم في «القناة» خديعةً ولو أنّها تمّت لتّم بها الشقا^{٨٠}
إن البلية أن تُباع وتُشتري مصرٌ وما فيها وألا تنطقا
كانت تُواسينا على آلامنا صحفٌ إذا نزل البلاء وأطبقا
فإذا دعوتُ الدمع فاستعصى بكّ عنا أسى حتى تغصّ وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهَمًا نرمي بها وسوابقًا^{٨١} يوم اللّقا
كانت صِمامًا للنفوس إذا غلّت فيها الهموم وأوشكت أن تزهقا
كم نفّست عن صدرٍ حرٍّ واجدٍ^{٨٢} لولا الصمام من الأسى لتمرّقا
ما لي أنوح على الصحافة جازعًا ماذا ألمّ بها وماذا أحدقا
قصوا حواشيها وظنّوا أنهم أمّنوا صواعقها فكانت أصعقا
وأتوا بحاذقهم^{٨٣} يكيّد لها بما يثني عزائمها فكانت أحدقا

وقال يُخاطب الشباب ويهيب بهم أن يعملوا ليردوا إلى مصر مجدها واستقلالها:

أهلاً بنابطة البلاد ومرحبًا جدّتمُ العهد الذي قد أخلقا
لا تيئسوا أن تستردوا مجدكم فلرُبّ مغلوبٍ هوى ثم ارتقى
مدّت له الآمال من أفلاكها خيط الرجاء إلى العلا فتسلّقا
فتجشّموا للمجد كل عزيمة إني رأيت المجد صعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاك خيوطها سببًا إلى آماله وتعلّقا

* * *

^{٨٠} يُشير إلى مشروع مد امتياز قناة السويس، وقد ظهر في أواخر سنة ١٩٠٩ ورفضته الجمعية العمومية في أبريل سنة ١٩١٠.

^{٨١} السوابق: من صفات الخيل؛ أي كانت لنا عدة في الجهاد.

^{٨٢} الواجد: الحزين.

^{٨٣} يريد بطرس غالي رئيس الوزارة، ولكن الحق أن تبعة ذلك يتحملها الوزراء جميعًا لا بطرس غالي وحده.

«عائز على ابن النيل سباق الورى
أوكلما قالوا تجمع شملهم
فتدققوا حجباً وحوطوا نيلكم
حملوا علينا بالزمان وصرفه
هزوا مغاريها فهابت بأسهم
فتعلموا فالعلم مفتاح العلا
ثم استمدوا منه كل قواكم
وابنوا حوالى حوضكم من يقظة
وزنوا الكلام وسدوده فإنهم
وامشوا على حذر فإن طريقكم
نصبوا لكم فيه الفخاخ وأرصدوا
«الموت في غشيانه وطروقه
فتحيّنوا فرص الحياة كثيرة
أو فاخلقوها قادرين فإنما
مهما تقلّب دهره أن يسبقا»
لعب الشقاق بجمعنا فتفرقا؟
فلكم أفاض عليكم وتدققا
فتأنقوا في سلبنا وتأنقا^{٨٤}
يا ويلكم إن لم تهزوا المشرقاً^{٨٥}
لم يبق باباً للسعادة مغلقاً
إن القوي بكل أرض يتقى»
سوراً وخطوا من حذار خندقا
خبثوا لكم في كل حرف مزلقا
وعرّ أطاف به الهلاك وحلقا
للسالكين بكل فج موبقا^{٨٦}
والموت كل الموت ألا يطرقا^{٨٧}
وتعجلوها بالعزائم والرقي
فرص الحياة خليفة أن تخلقا»

مسألة قناة السويس

في أواخر سنة ١٩٠٩ وأوائل سنة ١٩١٠ شغلت الرأي العام مسألة كبرى تتصل بحياة البلاد الاقتصادية والسياسية، وهي مشروع مد الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس أربعين عاماً أخرى، وقد أثار هذا المشروع سخط الأمة واحتجاجها وطالبت بوقفه وبعرضه على «الجمعية العمومية» قبل البت فيه.

^{٨٤} أي حاربنا المحتلون بأحداث الزمان ونوائبه. وتأنق الأمر: أي بالغ فيه.

^{٨٥} يُشير إلى الإنجليز. أي أنهم مدوا سلطانهم في دول الغرب، ويدعو المصريين إلى أن يجعلوا لمصر هذه المكانة في الشرق.

^{٨٦} الفج: الطريق. الموبق: الهلاك.

^{٨٧} أي إذا كان في الإقدام موت فإن في الاستسلام موتاً أكبر.

حرّكت هذه المسألة الهامة روح الشعر في نفس حافظ، فنظم في نوفمبر سنة ١٩٠٩ قصيدة من بليغ شعره القومي، وصف فيها الحالة السيئة التي وصلت إليها البلاد، وأيدّ الحركة الوطنية في مطالبتها، وعبرَ أصدق تعبير عن آلامها وآمالها، قال في مطلعها:

لقد نصل الدّجى فمتى تنامُ أهُمُّ ذَاكَ نَوْمَكَ أَمْ هِيَامُ^{٨٨}

إلى أن قال:

أيجمل بالأديب أديب مصر	بكاءُ الطفل أرهقه الفطامُ
ويصرفه الهوى عن ذكر مصر	ومصرٌ في يد الباغي تضامُ
عدمْتُ يراعتي إن كان ما بي	هوَى بين الضلوع له ضرامُ
وما أنا والغرام وشاب رأسي	وغالَ شبابي الخطبُ الجسامُ
وربّاني الذي ربّى «لبيداً»	فعلّمني الذي جهل الأنامُ ^{٨٩}
لعمرك ما أرقّت لغير مصر	وما لي دونها أملٌ يُرامُ
ذكرتُ جلالها أيام كانت	تصول بها الفراغة العظامُ
وأيامَ الرجالُ بها رجالٌ	وأيامَ الزمان لها غلامُ
فأقلق مضجعي ما بات فيها	وباتت مصر فيه فهل ألامُ؟

وأهاب بالشعب أن يدع التواكل والتخاذل والانقسام، قال:

أرى شعباً بمدرّجة العوادي	تمخّخ عظمه داءٌ عُقامُ ^{٩٠}
إذا ما مرّ بالبأساء عامٌ	أطلّ عليه بالبأساء عامٌ

^{٨٨} الدجى: ظلام الليل.

^{٨٩} لبيد: هو الشاعر العربي صاحب المعلقة التي أولها:

عفت الديار محلها فرسومها

^{٩٠} المدرّجة: الطريق. والعوادي: النواثب. وتمخّخ العظم: إذا أخرج مخه.

سرى داء التواكل فيه حتى تخطَّف رزقه ذاك الزحام^{٩١}
 قد استعصى على الحكماء منا كما استعصى على الطب الجذام
 «هلاك الفرد منشؤه توان وموت الشعب منشؤه انقسام»
 وإنا قد ونينا وانقسمنا فلا سعي هناك ولا وئام
 فساء مقامنا في أرض مصر وطاب لغيرنا فيها المقام
 فلا عجب إذا ملكت علينا مذهبنا وأكثرنا نيام

وناجى الأمير حسين كامل وكان رئيسًا لمجلس شورى القوانين أن يبيث روح الحياة والتضامن في نفوس مجلس الشورى والجمعية العمومية، وناشدهم ألا يثقوا بوعود الاحتلال، قال:

«حسين. حسين» أنت لنا فنبّه رجالاً عن طلاب الحق ناموا
 وكن — بأبيك — لابن أخيك عوناً فأنت بكفه نعم الحسام
 أفض في قاعة الشورى وئاماً فقد أودى بنا وبها الخصام
 وعلمهم مصادمة الأعادي فمثلك لا يرّوّه الصدام
 ففي «حزب اليمين» لديك قوم وإن قلّوا فإنهم كرام
 وفي «حزب الشمال» لديك أسدٌ كُماة لا يطيب لها انهزام
 فكونوا للبلاد ولا يفتكم من النهزات والفرص اغتنام
 فما سادوا بمعجزة علينا ولكن في صفوفهم انضمام
 «فلا تثقوا بوعد القوم يوماً فإن سحاب ساستهم جهام»^{٩٢}
 وخافوهم إذا لانوا فإني أرى السّواس ليس لهم زمام^{٩٣}
 فكم ضحك «العميد» على لحانا وغرّ سرائتنا منه ابتسام

^{٩١} أي مزاحمة الأجانب للمصريين.

^{٩٢} السحاب الجهام: الذي لا ماء فيه.

^{٩٣} الزمام: الذمة والعهد.

ونادى بالدستور ونَدَّد بمشروع مد امتياز القناة، قال:

وليس العلمُ يُمَسْكنا وحيدًا	إذا لم ينصر العلمَ اعتزامُ
وإن لم يُدِرِك «الدستور» مصرًا	فما لحياتها أبدًا قِوامُ
حمونا وردَ ماء النيل عذبًا	وقالوا: إنه موتُ زؤامُ
وما الموت الزؤام إذا عَقَلْنَا	سوى «الشركات» حلَّ لها الحرامُ
لقد سعدت بغفلتنا فراحَت	بثروتنا وأولها «الترامُ»

* * *

فيا ويل «القناة» إذا احتواها	بنو «التاميز» وانحسر اللثامُ
لقد بقيت من الدنيا حُطامًا	بأيدينا وقد عزَّ الحطامُ
وقد كنا جعلناها زمامًا	فوالهفي إذا قُطع الزمامُ!

* * *

فيا «قصر الدبارة» لست أدري	أحربُ في جرابك أم سلامُ؟
أجبننا هل يُراد بنا وراءُ	فنقضني أم يُراد بنا أمامُ؟
ويا «حزب اليمين» إليك عنا	لقد طاشت نبالك والسهامُ
ويا «حزب الشمال» عليك منا	ومن أبناء نجدتك السلامُ

وقد اضطرت الوزارة تحت ضغط الرأي العام إلى عرض المشروع على الجمعية العمومية التي قررت رفضه، وبذلك حبط المشروع.

تنديده بالكولونل روزفلت

جاء الكولونل تيودور روزفلت الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة إلى مصر عن طريق السودان في مارس ١٩١٠، وألقى بالخرطوم خطبة سياسية مجَّد فيها الاحتلال البريطاني، ودعا إلى الخضوع لحكمه، ولما وصل إلى القاهرة ألقى بالجامعة المصرية خطبة أخرى أشد وطأة من خطبته بالخرطوم، وقد أثارت خطبته احتجاج الرأي العام،

وشارك حافظ الأمة في سخطها على روزفلت، ونظم قصيدة عصماء لامة فيها على إطرائه الاحتلال، نشرها قبيل إلقاء خطبته الثانية بالقاهرة، قال:

أَيُّ خَطِيبِ الدُّنْيَا الجَدِيدَةِ شَنَّفَ	سَمِعَ مِصْرَ بِقَوْلِكَ المَأْثُورِ
إِنَّمَا شَوْقُهَا لِقَوْلِكَ يَا «رُوزُ	فَلْتِ» شَوْقِ الأَسِيرِ لِلتَّحْرِيرِ
قَفْ غَدًا أَيُّهَا الرِّئِيسُ وَعَلِّمْ	أَهْلَ مِصْرٍ حُرِّيَّةَ التَّعْبِيرِ
وَأَخْبِرِ النَّاسَ كَيْفَ سَدَّتُمْ عَلَى النَّاسِ	سَ وَجِئْتُمْ بِمَعْجَزَاتِ الدَّهْورِ
وَمَلَكَتُمْ أَعْنَةَ الرِّيحِ وَالْمَا	ءِ وَدَسْتُمْ عَلَى رِقَابِ العُصُورِ
قَفْ وَعَدُّدَ مَآثِرِ العِلْمِ وَاذْكُرْ	نِعَمَ اللّٰهِ ذِكْرَ عَبْدٍ شُكُورِ
وَإِذَا مَا ذَكَرْتَ أَنْعَمَهُ الْكِبَرُ	رَى فَلَا تَنْسَ نِعْمَةَ «الدُّسْتُورِ»

* * *

يَا نَصِيرَ الضَّعِيفِ مَا لَكَ تُطْرِي	خُطَّةُ الْقَوْمِ ^{٩٤} بَعْدَ ذَاكَ النِّكْرِي
لَمْ تُطِيقُوا جَوَارَهُمْ بَلْ أَقْمَتُمْ	فِي حِمَاكُم مِّنْ دُونِهِمْ أَلْفُ سُوْرِ
أَنْتَ تُطْرِيهِمْ وَتُثْنِي عَلَيْهِمْ	نَائِيًّا أَمْنًا وَرَاءَ الْبَحُورِ
لَيْتَ شَعْرِي أَكُنْتُ تَدْعُو إِلَيْهِمْ	يَوْمَ كَانُوا عَلَى تَخُومِ الثَّغُورِ
يَوْمَ كَانُوا قَذَى بَعِينِ «نِيُويُورِ	كَ» وَدَاءً مُّسْتَحْكَمًا فِي الصَّدُورِ
يَوْمَ نَادَى «وَاشْنَجْتُونَ» فَلَبَّا	هَ مِنْ الْغِيلِ كُلُّ لَيْثٍ هُصُورِ ^{٩٥}
يَوْمَ سَجَّلْتُمْ عَلَى صَفَحَاتِ الدِّ	هَرِ تَارِيخَ مَجْدِكُمْ بِالنُّورِ
وَوَثَبْتُمْ إِلَى الْحَيَاةِ وَثُوبًا	وَنَفَضْتُمْ عَنْكُمْ غِبَارَ الْقُبُورِ
إِنَّمَا النِّيلَ وَالْمَسِيْسِيَّ ^{٩٦} صَنَا	نَ هُمَا حَلِيَّتَانِ لِلْمَعْمُورِ
وَعَجِيبُ أَنْ فَازَ هَذَا بِإِطْلَا	قٍ وَهَذَا فِي ذِلَّةِ المَأسُورِ
يَا نَصِيرَ الضَّعِيفِ حُبُّ إِلَيْهِمْ	هَجَرَ مِصْرَ ^{٩٧} تَفْزُ بِأَجْرِ كَبِيرِ
فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَهْجُرُوا وَعَلَى الْمَصْرِ	رِيَّ ذِكْرُ الْمُتَيْمِّ الْمَهْجُورِ

^{٩٤} يقصد الإنجليز.

^{٩٥} الغيل: موضع الأسد.

^{٩٦} هو النهر المشهور بأمريكا.

^{٩٧} أي الجلاء عنها.

رثاؤه لمحمد فريد

نظم حافظ في رثاء محمد فريد قصيدة من غرر شعره، ألقاها بصوته الجمهوري في حفلة التآبين التي أقامها الحزب الوطني يوم الأربعاء لوفاته (١٩ ديسمبر سنة ١٩١٩)، فهزّت مشاعر السامعين والمواطنين لما حوته من المعاني الرائعة والتقدير البالغ للزعيم الراحل، قال:

مَن لِيَوْمٍ نَحْنُ فِيهِ مَن لِيَغْدُ؟ مات ذو العزيمة والرأي الأسد
حلَّ بـ «الجمعة» حزنٌ وأسى ومشى الوجد إلى «يوم الأحد»^{٩٨}
وبدا شعري على قرطاسه لوعةً سالت على دمعٍ جمَدُ

* * *

أيها النيل لقد جلَّ الأسى كُنْ مِدَادًا لِي إِذَا الدَّمْعُ نَفَدُ
وانْزِلْ يَا زَهْرَةَ الرُّوضِ وَلَا تَبْسِمِي لِلطَّلِّ فَالْعَيْشُ نَكْدُ
والزَّمِ النَّوْحَ أَيَا طَيْرُ وَلَا تَبْتَهَجِ بِالشَّدْوِ فَالشَّدْوُ حَدُّ^{٩٩}
فلقد ولَّى «فريد» وانطوى ركنُ مصرٍ وفتاها والسَّنْدُ

* * *

خالد الآثار لا تخشَ البلى ليس يبلى من له ذِكْرُ خلدُ
زرت «برلين» فنادى سَمْتُهَا نزلت شمس الضحى برجَ الأسدُ
واختفت شمسك فيها وكذا تختفي في الغرب أقمار الأبد^{١٠٠}

* * *

يا غريبَ الدار والقبر ويا سلوة النيل إذا ما الخطبُ جدُ
وحُسامًا فلَّ حدييه الردى وشهابًا ضاء وهنًا وخمدُ
قُلْ لـ «صب النيل»^{١٠١} إن لاقيته في جوار الدائم الفرد الصمدُ

^{٩٨} كنى بيومي الجمعة والأحد عن المسلمين والمسيحيين.

^{٩٩} الحد: الحرام الذي لا يحل أن يرتكب.

^{١٠٠} كانت وفاة الفقيد في برلين يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩.

^{١٠١} يريد مصطفى كامل.

إن مصرًا لا تني عن قصدها رغم ما تلقى وإن طال الأمدُ
جئت عنها أحمل البشرى إلى «أول البانين»^{١٠٢} في هذا البلدُ
فاسترح واهنأ ونم في غبطة قد بذرت الحب والشعبُ حصدًا^{١٠٣}

* * *

آثر النيلَ على أمواله وقواه وهواه والولدُ
يطلب الخير لمصرٍ وهو في شقوةٍ أحلى من العيش الرغدُ
ضاربٌ في الأرض يبغي مأربًا كلما قاربه عنه ابتعدُ
لم يعبه أن تجنّي دهره رُب جدٍّ حاد عن مجراه جدًّا^{١٠٤}
يستجم العزم حتى إن بدت فرصة شدَّ إليها وصمدُ
فهو لا يثني عنانًا عن منى وهو هجّيراه «مَن جد وجد»
فأياديه إذا ما أنكرت إنما تُنكرها عين الحسدُ

* * *

فقدت مصر «فريدًا» وهي في موطنٍ يُعوّزها فيه المددُ
فقدت مصر «فريدًا» وهي في لهوة الميدان والموتُ رصدُ
فقدت منه خيرًا حَوْلًا^{١٠٥} وهي والأيام في أخذٍ وردُ
لم يكد يُمتّعها الدهر به في ربوع النيل حيًّا لم يكدُ
ليته عاش قليلًا فترى شعب مصر عينه كيف اتحدُ
ويح مصر بل فويحًا للثرى إنه أبلغ حزنًا وأشدُ
كم تمنى وتمنى أهله لو يُورى فيه ذِيك الجسدُ^{١٠٦}

* * *

^{١٠٢} يريد مصطفى كامل.

^{١٠٣} يُشير إلى قيام ثورة سنة ١٩١٩.

^{١٠٤} الجد: (بالكسر) الاجتهاد، و(بalfتح) الحظ. والمعنى: رُب اجتهادٍ أخطأه الحظ.

^{١٠٥} الحول: الحاذق البصير بتحويل الأمور.

^{١٠٦} يُشير في هذا البيت والبيت الذي سبقه إلى أن جثمان الفقيد ثوى في برلين، وقد نُقل إلى مصر في يونيو

سنة ١٩٢٠.

لهفَ نفسي هل «ببرلين» امرؤٌ
هل بكّت عينٌ فُروّتُ تَرْبِهِ
فوق ذاك القبر صلّى وسجدُ؟
هل على أحجاره خطٌ أحدُ؟
ها هنا قبرٌ شهيدٍ في هوى
أمةٍ أيقظها ثم رقدُ!

ثورة سنة ١٩١٩

حيّا حافظ ثورة سنة ١٩١٩ في قصيدة نظمها عن أول مظاهرة للسيدات قُمنَ بها يوم ١٦ مارس ١٩١٩ احتجاجًا على عسف الإنجليز حيال المظاهرات السابقة وما ارتكبه مع المتظاهرين من فظائع القتل والتنكيل، وقد مجّد حافظ شعور السيدات المتظاهرات وشجاعتهن، وحمل في قصيدته حملة لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن، قال:

خرج الغواني يَحْتَجِجُ — نَ وَرُحْتُ أَرْقُبُ جَمْعَهُنَّ
فإذا بهنَّ تَخَذَنَ من — سود الثياب شعَارَهُنَّ
فطلعنَ مثل كواكبٍ — يسطعنَ في وَسَطِ الدُّجْنَةِ ١٠٧
وأخذنَ يجتزنَ الطريقَ — ق ودارُ «سعد» قصْدُهُنَّ
يمشينَ في كنفِ الوقا — ر وقد أبْنَى شعورهنَّ
وإذا بجيشٍ مُقْبِلٍ — والخيلُ مُطْلَقَةُ الأعْنَةِ
وإذا الجنودُ سيوفُها — قد صُوِّبَتْ لنحورهنَّ
وإذا المَدافعُ والبنا — دق والصوارم والأسِنَّةُ
والخيلُ والفرسانُ قد — ضَرَبَتْ نَطاقًا حولهنَّ
والوردُ والريحانُ في — ذاك النهار سَلاحهنَّ
فتطاحنَ الجيشانُ سا — عاتٍ تشيبُ لها الأجنَّةُ
فتضعضع النسوانُ والن — سوان ليس لهن مُنَّةُ ١٠٨
ثم انهزمنَ مُشَتَّتَا — ت الشمل نحو قصورهنَّ

* * *

١٠٧ الدجّة: الظلام.

١٠٨ المنّة: القوة.

فليهنأ الجيش الفخو رُ بنصره وبكسرهنه!
فكأنما «الألمان» قد لبسوا البراقع بينهنه
وأثوا بـ «هندنبرج»^{١٠٩} مُخـ تتفياً بمصر يقودهنه
فلذاك خافوا بأسهن وأشفقوا من كيدهنه!

وأنشأ قصيدة حيًا بها جمعية المرأة الجديدة، وألح فيها إلى بطولة المرأة في ثورة
سنة ١٩١٩، قال:

إليكنَّ يُهدي النيل ألف تحية مُعطرة في أسطرٍ عطراتِ
ويُثني على أعمالكن مُوَكَّلي^{١١٠} بإطراء أهل البر والحسناتِ
أَقمتنَّ بالأمس الأساسَ مُباركًا وجئتنَّ يوم الفتح مُغتبطاتِ
صنعتنَّ ما يُعيي الرجالَ صنيعةُ فزِدتنَّ في الخيراتِ والبركاتِ

* * *

يقولون: نصف الناس في الشرق عاطلٌ نساءً قضينَ العمر في الحجراتِ
وهذي بنات النيل يعملنَ للنهي ويغرسنَ غرسًا داني الثمراتِ
وفي السَّنة السوداء كُنْتَنَّ قدوة لنا حين سال الموتُ بالمُهجَاتِ
وقفتنَّ في وجه الخميس مُدَجَّجًا وكُنْتَنَّ بالإيمان مُعتصماتِ
وما هالكنَّ الرمحُ والسيفُ مُصلَّتًا ولا المدفع الرِّشاشُ في الطرقاتِ
تعلَّم منكن الرجال فأصبحوا على غمرات الموت أهلَ ثباتِ

مصر تتحدث عن نفسها

قصيدة غرَّاء قالها سنة ١٩٢١ على أثر قطع مفاوضات عدلي-كيرزون، حين سفرت نيات
الإنجليز في العدوان على مصر، وقد أشاد فيها بمجد مصر وعظمتها، ثم أشار إليها وهي
تستنجد ببنيتها البرَّة على غدرات الأيام، ويهيب بهم أن ينظروا من تليد مجدها إلى المثل

^{١٠٩} المارشال هندنبرج، القائد الألماني الشهير في الحرب العالمية الأولى.

^{١١٠} موكلي: أي النيل قد أنابه عنه في إبلاغهن ثناءه عليهن.

الأعلى ليحتذوه، ويتعاونوا على التمسك بالحق كاملاً حتى يبلغوه، وقد أجرى الخطاب في القصيدة على لسان مصر ليُنصت الجميع لصوتها؛ إذ هي فوق الجميع، وكان عنوان القصيدة حين نُشرت «مصر فوق الجميع»:

وقف الخلق ينظرون جميعاً	كيف أبني قواعد المجد وحدي
وَبُناة الأهرام في سالف الدهـ	ر كَفُونِي الكلام عند التحدي
أنا تاج العلاء في مَفَرَق ^{١١١} الشر	ق وَدُرَاتِه فرائدُ عِقْدِي
أَيُّ شَيْءٍ في الغرب قد بهر النا	سَ جمالاً ولم يكن منه عندي؟
فَتُرَابِي تَبَرُّ ونهري فراتُ	وسمائي مصقولة كالفرندي ^{١١٢}
أينما سِرْتُ جدولٌ عند كَرَم	عند زَهر مُدَنَّر عند رَندي ^{١١٣}
ورجالي لو أنصفوهم لَسادوا	من كهولٍ ملءِ العيون ومُردٍ ^{١١٤}
لو أصابوا لهم مجالاً لأَبَدُوا	معجزات الذكاء في كلِّ قصدي
أنا إن قَدَّر الإله مماتي	لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي

* * *

ما رمانِي رام وراحٍ سليمًا	من قديم عناية الله جندي
كم بَغَت دولةً عليَّ وجارَت	ثم زالت وتلك عقبى التمدِّي
إنني حُرَّة كسرتُ قيودي	رغم رُقبى العدى وقطعتُ قَدِّي ^{١١٥}

* * *

قُلْ لمن أنكروا مَفاخر قومي	مثل ما أنكروا مآثر وُلدي
هل وقفتُم بِقِمَّة الهرم الأكـ	بر يوماً فرِيتُم بعضُ جُهدي؟ ^{١١٦}

^{١١١} المفرق: وسط الرأس.

^{١١٢} الفرات: العذب. والفرندي: السيف.

^{١١٣} المدنر: أي مختلف الألوان، أو المُشْرِق المتلألئ. والرند: شجر طيب الرائحة.

^{١١٤} مرد: جمع أمرد، وهو الشاب.

^{١١٥} القد: القيد، يُقَد من جلد.

^{١١٦} فرِيتُم: أي فرأيتُم.

هل رأيتم تلك النقوش اللواتي أعجزت طوق صنعة المُتحدِّي؟
حال لون النهار من قَدَم العهد - وما مسَّ لونها طولُ عهدٍ
هل فهمتُم أسرارَ ما كان عندي من علومٍ مخبوءةٍ طيَّ بُردِي؟
ذاك فنُّ التحنيط قد غلب الدهرَ - رَ وأبلى البلى وأعجزَ نِدِّي

* * *

قد عقدتُ العهودَ من عهد فرعو - ن ففي «مصر» كان أولُ عقدٍ
إن مجدي في الأوليات عريقُ - مَنْ له مثل أولياتي ومَجدي؟
أنا أمُّ «التشريع» قد أخذ الرُّو - مان عنِّي الأصول في كلِّ حدٍّ
ورصدتُ النجوم منذ أضاءت - في سماء الدُّجى فأحكمتُ رصدي
وشدا «بنتنور»^{١١٧} فوق ربوعي - قبل عهد اليونان أو عهد «نجدٍ»
أُتراني وقد طويت حياتي - في مراسٍ لم أبلغ اليوم رشدي؟
أيُّ شعبٍ أحقُّ مِنِّي بَعيشٍ - وارفِ الظلُّ أخضر اللّون رغدٍ؟

* * *

أمن العدلِ أنهم يردُّون الـ - سماء صفوًا وأن يُكدَّر وردي؟
أمن الحقِّ أنهم يُطَلِّقون الـ - أسد منهم وأن تُقَيَّد أسدي؟
«نصفُ قرنٍ إلا قليلًا أعاني - ما يُعاني هوانه كلُّ عبدٍ»^{١١٨}
نظر الله لي فأرشدَ أبنا - ئي فشدُّوا إلى العُلا أيَّ شدِّ
«إنما الحقُّ قوَّة من قوى الدِّيَا - ن أمضى من كلِّ أبيضٍ هندي»

وقال في تمجيد التضحية والصمود والصبر أمام الشدائد:

قد وعدتُ العُلا بكلِّ أبيٍّ - من رجالي فأنجزوا اليوم وعدي

^{١١٧} بنتنور: أقدمُ شاعرٍ عرَفه التاريخ وهو مصري، وقبل عهد اليونان إلخ؛ أي قبل شعراء اليونان وشعراء

العرب.

^{١١٨} يقصد عهد الاحتلال البريطاني.

أَمْهَرُوهَا بِالرُّوحِ فَهِيَ عَرُوسٌ تَشْنَأُ الْمَهْرَ مِنْ عُرُوضٍ وَنَقْدٍ^{١١٩}
 وَرَدُّوا بِي مَنَاهْلِ الْعِزِّ حَتَّى يَخْطُبُ النِّجْمُ فِي الْمَجْرَةِ وَدِّيْ
 «وَارْفَعُوا دَوْلَتِي عَلَى الْعِلْمِ وَالْأَخْ» لَقَّاقَ فَالْعِلْمُ وَحْدَهُ لَيْسَ يُجْدِي
 وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ فَالصَّبْرُ إِنْ فَا رَقَّ قَوْمًا فَمَا لَهُ مِنْ مَسَدٍّ
 خُلِقَ الصَّبْرُ وَحْدَهُ نَصَرَ الْقَوَى مَ وَأَغْنَى عَنْ اخْتِرَاعٍ وَعَدٍّ
 شَهِدُوا حَوْمَةَ الْوَعَى بِنَفُوسٍ صَابِرَاتٍ وَأَوْجُهُ غَيْرِ رُبْدٍ
 فَمَحَا الصَّبْرُ آيَةَ الْعِلْمِ فِي الْحَرِّ بَ وَأَنْحَى عَلَى الْقَوَى الْأَشَدِّ

وقال يدعو إلى توحيد الكلمة ونبذ الشقاق، وكانت البلاد وقتئذٍ في غمرة من الانقسام:

إِنْ فِي الْغَرْبِ أَعْيُنًا رَاصِدَاتٍ كَحَلَّتْهَا الْأَطْمَاعُ فَيَكُمُّ بِسُهِدٍ
 فَوْقَهَا مَجْهَرٌ يُرِيهَا خَفَايَا كُمْ وَيَطْوِي شِعَائُهُ كُلَّ بُعْدٍ
 فَاتَّقَوْهَا بِجُنَّةٍ مِنْ وَثَامٍ غَيْرِ رَثِّ الْعُرَا وَسَعِيٍّ وَكَدٍّ
 «وَاصْفَحُوا عَنْ هَنَاتٍ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ رُبُّ هَافٍ هَفَا عَلَى غَيْرِ عَمَدٍ»
 نَحْنُ نَجْتَازُ مَوْقِفًا تَعَثَّرُ الْآ رَاءَ فِيهِ وَعَثْرَةُ الرَّأْيِ تُرْدِي
 وَنُعِيرُ الْأَهْوَاءَ حَرْبًا عَوَانًا مِنْ خِلَافٍ وَالْخُلْفِ كَالسُّلِّ يُعْدِي
 «وَنُثِيرُ الْفَوْضَى عَلَى جَانِبِيهِ فَيُعِيدُ الْجَهْلُ فِيهَا وَيُبْدِي»
 وَيَظُنُّ الْغَوِيُّ أَنْ لَا نِظَامَ وَيَقُولُ الْقَوِيُّ قَدْ جَدَّ جِدِّي
 فَاقْفُوا فِيهِ وَقْفَةً الْحَزْمِ وَارْمُوا جَانِبِيهِ بِعِزْمَةِ الْمُسْتَعِدِّ
 إِنَّا عِنْدَ فَجْرِ لَيْلٍ طَوِيلٍ قَدْ قَطَعْنَاهُ بَيْنَ سُهْدٍ وَوَجْدٍ
 غَمَرْتَنَا سُودُ الْأَهَاوِيلِ^{١٢٠} فِيهِ وَالْأَمَانِيُّ بَيْنَ جِزْرِ وَمَدٍّ
 وَتَجَلَّى ضِيَاؤُهُ بَعْدَ لَأَيٍ وَهُوَ رَمَزٌ لِعَهْدِي الْمُسْتَرَدِّ
 فَاسْتَبِينُوا قَصْدَ السَّبِيلِ وَجِدُّوا فَالْمَعَالِي مَخْطُوبَةٌ لِلْمُجِدِّ

^{١١٩} تشنأ: تكره.

^{١٢٠} الأهوايل: جمع أهوال.

الاستقلال المُقَيَّد

قالها عندما أُعلنَ تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢:

أصبحتُ لا أدري على خبرةٍ
أموقفٌ للجد نجتازه
ألمحٌ لاستقلالنا لمعةً
وتطمس الظلمة آثارها
قد حازت الأفهام في أمرهم
فقائلٌ لا تعجلوا إنكم
وقائلٌ أوسع بها خطوةً
وقائلٌ أسرف في قوله:
إن تسألوا العقل يقل عاهدوا
«وأسسوا داراً لنوابكم
ولتذكر الأمة ميثاقها
«وتنخب صفوة أبنائها
وليتق الله أولو أمرها
أو تسألوا القلب يقل حاذروا
إني أرى قيذاً فلا تسلموا
إن هيئوه من حرير لكم
حتّام — والصبر له غاية —
حتّام — والأموال مشفوهة^{١٢٢} —
حتّام يُمضي أمرنا غيرنا

أجدت الأيام أم تمزح؟
أم ذاك للآهي بنا مسرّح؟
في حالك الشك فاستروح
فأننني أنكر ما ألمح
إن لمحو بالقصد أو صرحوا!
مكانكم بالأمس لم تبرحوا
وراءها الغاية والمطمح
هذا هو استقلالكم فافرحوا
واستوثقوا في عهدكم تريحوا
للرأي فيها والجبا أفسحوا
ألا ترى عزتها تُجرّح
فمنهم المخلص والمصلح
أن يُسكتوا الأصوات أو يُرفحوا^{١٢١}
وصابروا أعداءكم تفلحوا
أيديكم فالقيد لا يسجح^{١٢٢}
فهو على لين به أفدح
لغيرنا من بئرننا نمتح؟
نمنح إلا «مصر» ما نمنح؟
وذاك بالأحرار لا يملح؟

^{١٢١} يريد تأمين المواطنين من النفي إلى «رفح»، وكانت منذ ثورة سنة ١٩١٩ مَنفى للأحرار.

^{١٢٢} يلين ويسهل.

^{١٢٣} أي مُستنفدة مُضيعة.

وعاد يدعو إلى الوحدة والوئام ويستنكر الفرقة والانقسام:

ظناً وقد أمسوا وقد أصبحوا	أساء بعض الناس في بعضهم
فينا وما كانت لهم تسنح	فانتَهزت أعداؤنا نُهزةً
فإنما إجماعكم أرجح	فالرأي كلُّ الرأي أن تُجمعوا
فإنه في صخرة ينطح	وكلُّ من يطمع في صدعكم
من قادة الآراء أن تُفضحوا	أخشى إذا استكثرتم بينكم
فإنما في القلة المنجح	فلتقصدا ما اسطعتم فيهم

يستحث المواطنين على التضحية والجهاد

نظم حافظ سنة ١٩٠٤ قصيدة رائعة عن «غادة اليابان» ضرب فيها الأمثال في التضحية والجهد، وجعلها على لسان غادة وطنية من اليابان وأشاد بشجاعتها في الحرب التي شبت بين بلادها والروسيا عام ١٩٠٤؛ إذ ذهبت مُتطوعة إلى ميادين القتال تُواسي الجرحى، وترعى حقهم، قال:

صَحَّ مني العزمُ والدهرُ أبى	لا تلم كيف إذا السيف نبا ^{١٢٤}
أخطأ التوفيق فيما طلبا	رُب ساعٍ مُبصرٍ في سعيه
كانت العليا فيه السببا	مرحباً بالخطب يبلوني إذا
لا أرى برقك إلا خلباً ^{١٢٥}	إيه يا دنيا اعبسي أو فابسي

إلى أن قال:

وهبَ الله لها ما وهبا	كنت أهوى في زماني غادةً
لا رعاك الله يا ذاك النبا	حملت لي ذات يوم نبأً
وهلال الأفق في الأفق حبا	وأنت تخطر والليل فتى

^{١٢٤} نبا السيف: كلٌّ وارتد.

^{١٢٥} البرق الخلب: الذي ينتظر الناس مطره ويخلفهم.

ثم قالت لي بثغرٍ باسمٍ نظم الدرّ به والحَبَا
نَبَّؤني برحيلٍ عاجلٍ لا أرى لي بعده مُنْقَلَبَا^{١٢٦}
ودعاني موطني أن أغتدي^{١٢٧} علّني أقضي له ما وهبا
نذبح الدُّب^{١٢٨} ونفري جِلده أيظن الدُّب ألا يُغَلِّبَا؟

* * *

قلت والآلام تفري مهجتي وَيْكَ! ما تصنع في الحرب الظُّبَا؟
ما عهدناها لظبي مَسْرَحًا يبتغي ملهى به أو ملعبا
ليست الحرب نفوسًا تُشترى بالتمني أو عقولًا تُستبى
أحسبتِ القدَّ من عُدَّتْها أم ظننت اللحظ فيها كالشُّبَا^{١٢٩}
فدَعِيها للذي يعرفها والزّمي يا ظبية البان الخِبا^{١٣٠}

* * *

فأجابتني بصوتٍ راعني وأرتني الظبي ليثًا أغلبا
إن قومي استعذبوا وردَ الرّدى كيف تدعونني ألا أشربَا؟
أنا يابانية لا أنثني عن مُراذي أو أذوق العَطبا
أنا إن لم أحسن الرمي ولم تستطع كَفَايَ تغليب الظُّبا
أخدم الجرحى وأقضي حقهم وأواسي في الوغى من نُكبا
هكذا «الميكادو» قد علّمنا أن نرى الأوطان أمّا وأبا
ملكٌ يكفيك منه أنه أنهض الشرق فهزّ المَغربا
بعث الأمة من مرقدها ودعاها للعلّا أن تدأبا
فسمّت للمجد تبغي شأوه وقصّت من كل شيء مآربا

^{١٢٦} المنقلب: العودة.

^{١٢٧} أغتدي: أي أبادر مُبَكِّرة للدفاع عنه.

^{١٢٨} الدب: رمز لروسيا.

^{١٢٩} الشبا: جمع شباه، وهي حد السيف.

^{١٣٠} البان: شجر لين تألفه الظبا. والخبا: البيت.

يستنهض الهمم، ويدعو إلى توحيد الكلمة

قال من قصيدة له سنة ١٩٢٣ يُخاطب المواطنين:

ويد الإله مع الجماعة فاضربوا
كُونُوا رجالاً عاملين وكذَّبوا
وَدَعُوا التخاذل في الأمور فإنما
والله ما بلغ الشقاء بنا المدى
بعضا الجماعة تظفروا بنجاح
— والصبحُ أبلجُ — حاملُ المصباح^{١٣١}
شبحُ التخاذل أنكرُ الأشباح
بسوى خلافٍ بيننا وتلاحي^{١٣٢}

* * *

قُم يا ابن مصر فأنت حرٌّ واستعد
شَمِّر وكافح في الحياة فهذه
وإذا ألحَّ عليك خُطْبٌ لا تَهْنُ
وَحُض الحياة وإن تلاطم موجُّها
في البحر لا تَثْنِيكَ نارُ بوارجٍ
وانظر إلى الغربيِّ كيف سَمَتْ به
مَجَدَ الجدود ولا تُعَدِّ لمراح^{١٣٣}
دنياك دارُ تناحُرٍ وكفاحٍ
واضرب على الإلحاح بالإلحاح
خوضُ البحار رياضةُ السَّبَّاحِ
في البَر لا يَلْوِيكَ غابُ رماحٍ
بين الشعوب طبيعةُ الكدَّاحِ

إلى أن قال:

وابن الكنانة في الكنانة راكدٌ
لا يستغل كما علمت نكاهه
فانهض ودع شكوى الزمان ولا تنح
واربح لمصر برأس مالك عِزَّةً
واشرب من الماء القُرَّاح مُنْعَمًا
يرنو بعينٍ غيرِ ذاتِ طماحٍ
وذكائه كالخاطف اللَّمَّاحِ
في فادح البؤسى مع الأنواحِ
إن الذكاء حُبالةُ الأرباحِ
فلکم وردت الماء غيرَ قَرَّاحِ

^{١٣١} الإشارة إلى الفيلسوف ديوجنس الذي كان يحمل في رابعة النهار مصباحًا يبحث عن رجل.

^{١٣٢} التلاحي: التخاصم.

^{١٣٣} يريد بمراح: الأخذ بأسباب المرح واللّهو.

يُحذِّر سعدًا من خِداع الإنجليز

قال سنة ١٩٢٤ يُخاطب سعد زغلول من قصيدة له في تهنئته بنجاحه من محاولة اغتياله، وكان إذ ذاك مُعتزماً السفر إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية في القضية الوطنية:

لا تقرب «التاميز» واحذر ماءه	مهما بدا لك أنه معسولٌ
الكيد ممزوجٌ بأصفى مائه	والختل ^{١٣٤} فيه مُدَوَّبٌ مصقولٌ
كم وارِدٍ يا «سعد» قبلك ماءه	قد عاد منه وفي الفؤاد غليلٌ ^{١٣٥}
القوم قد ملكوا عِنانَ زمانهم	ولهم روايات به وفصولٌ
ولهم أحابيلٌ ^{١٣٦} إذا ألقوا بها	قنصوا النُهي فأسيرهم مخبولٌ
ولكلّ لفظٍ في المعاجم عندهم	معنى يُقال بأنه معقولٌ
نصَلت ^{١٣٧} سياستهم وحال صباغها	ولكل كاذبة الخضابِ نُصولٌ
جمعوا عقاقير الدواء وركّبوا	ما ركبوه وعندك التحليلُ

حافظ والإنجليز وجهًا لوجه

في سنة ١٩٣٢ ساهم الإنجليز مع العناصر الرجعية في إلغاء الحياة الدستورية، وتظاهروا بأنهم على الحياد في هذه المحنة، مع أنهم مُدبروها، وقد هاجمهم حافظ بقصائد رائعة نعى فيها عليهم بغيهم وعدوانهم، وكشف فيها الستار عن حيادهم الكاذب، وطعن على سياسة الاستعمار عامة، وأعاد بحملاته عليهم ذكرى قصائده الوطنية الخالدة التي نظمها في تمجيد الحركة الوطنية ومهاجمته الاحتلال في عهد مصطفى كامل ومحمد فريد.

^{١٣٤} الختل: الخداع.

^{١٣٥} الغليل: شدة العطش.

^{١٣٦} الأحابيل: المصايد.

^{١٣٧} نصلت: انكشفت وخرجت من لونها الكاذب إلى لونها الحقيقي. وحال: تحوّل.

قال في مارس سنة ١٩٣٢ مُخاطبًا الإنجليز مُنددًا بسياسة «الحياد» التي أعلنوها، ناعيًا عليهم ظلمهم وإخلافهم وعودهم للأمة:

فكان لكم بين الشعوب ذمام ^{١٣٨} وحلَّ بها ضعف ودبَّ سقام فليس لملك الظالمين دوام لما قام بين الأمنين خصام وبعد الجروح الناغرات ^{١٤٠} وثام؟ فليس على باغي الحياة ملام	بنيتم على الأخلاق أساس مُلككم فما لي أرى الأخلاق قد شابَ قرنُها ^{١٣٩} أخاف عليكم عثرةً بعد نهضة أضعتُم ودادًا لو رعيتُم عهوده أبعدَ «حيادٍ» لا رعى الله عهدَه إذا كان في حُسن التفاهم موتُنَا
--	---

وقال في هذا المعنى:

فمُصابُكم ومُصابنا سيان أخلاقنا فتألم الشعبان	لا تذكروا الأخلاق بعد «حيادكم» حاربتم أخلاقكم لتحاربوا
--	---

وقال عن «الحياد الكاذب»:

تَ العهد نقضَ الغاصبِ وأبنتَ ودَّ الصاحبِ س من «الحياد» الكاذبِ	قصرَ الدُّبارة قد نقضَ أخفيتَ ما أضمرته الحرب أرواحَ للنُفُو
---	--

وقال مُخاطبًا السير برسي لورين المندوب السامي البريطاني وقتئذٍ، مُنددًا بحياد الإنجليز المُصطنع:

ألم ترَ في الطريق إلى «كياد»^{١٤١} تصيد البطَّ بؤس العالمينا؟

^{١٣٨} الذمام هنا: الحق والحرمة.

^{١٣٩} القرن: الذؤابة من الشعر.

^{١٤٠} الناغرات: الداميات.

^{١٤١} بركة بمركز فاقوس بالشرقية كان المندوب السامي البريطاني يذهب إليها لصيد الطيور.

ألم تلمح دموع الناس تجري
ألم تُخبر بني «التاميز» عنا
«بأننا قد لمسنا الغدر لمسًا
كشفنا عن نواياكم فلستم
سنجمع أمرنا فتزول منّا
ونأخذ حقنا رغم العوادي
ضربتم حول قادتنا نطاقًا
على رغم المروءة قد ظفرتهم
فهل يُجديكم الأسطول نفعًا
من البلوى؟ ألم تسمع أنينا؟
وقد بعثوك مندوبًا أمينًا؟
وأصبح ظنُّنا فيكم يقينًا»
وقد برح الخفاء مُحايديننا
لدى الجُلَى^{١٤٢} كرامًا صابرينا
تُطيف بنا ورغم القاسطينا^{١٤٣}
من النيران يُعيي الدَّارِعينَا
ولكن بالأسود مُصقِّدينَا
إذا ما نازل الحقُّ المُبينَا؟

وقال في هذا المعنى «أبريل سنة ١٩٣٢»:

إلى المُحايدين

أُمحايِدُ أم حائِدُ
نازلت شعبًا أعزلاً
وأمنت عقبي الظالمين
مهما تُصب منّا فلس
إنا بجبار السما
«إن العقيدة لا تزل
فلئن ملكتم يومكم
أأمنتُمْ صرفَ الزما
عن مَنهج الحق المُبين؟
بمُدَرَّعين مُدَجَّجين
من وبئس عقبي الظالمين!
بنا الجازعين اليائسين
ء وبالعقيدة نستعين
زلها جراب الغاصبين»
لغدُ لرب العالمين
ن وفتكّه بالغاشرين؟

* * *

كم من قويِّ هَدَّه كيدُ الضعيف المُستكين

^{١٤٢} الجُلَى: النازلة الشديدة.

^{١٤٣} القاسطون: الظالمون.

أولم تروا ما ذاقه بالأمس ذيك السجين؟^{١٤٤}
في «سنت هيلين» قضى من دوح الدنيا سنين
من كان في غاراته في الكون منقطع القرين
أمسى ألانته الخطو ب وكان صلباً لا يلين
أوتتقون مصيره أم لستم بالمُتقين؟

* * *

ضيقنا بكيدٍ مُحايدي ن لنا وكيدٍ مُبشِّر
ثاروا على دين الهدى وتخطَّفوا منّا البنين
داسوا العرين وقد خلا من أسده ذاك العرين
خسر المُبشِّر، إنَّ ديد ن الحق دين المسلمين
الله حاميه وكا فيه شرور المُعتدين

نحن والإنجليز وجهًا لوجه

وقال أيضًا:

قل للمحايد هل شهدت دماءنا تجرى وهل بعد الدماء سلام؟
سُفكت مودتنا لكم وبدا لنا أن الحياد على الخصام لثام
إن المراحل شرُّها لا يُتقى حتى يُنفَس كربَهَن صمام
لم يبقَ فينا من يُمنِّي نفسه بودادكم فودادكم أحلام
أمن السياسة والمروءة أننا نشقى بكم في أرضنا ونضام؟
«إنا جَمَعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نحيا ونحن كرام»

^{١٤٤} نابليون، وقد مات أسيرًا سجينًا في جزيرة سنت هيلين.

وقال في أبريل سنة ١٩٣٢ تحت عنوان «إلى الإنجليز»، وهي من أبلغ ما قيل في تحدي القوة الغاشمة والصمود أمام الشدائد مهما عظمت:

حوّلوا النيلَ واحجبوا الضوءَ عنا
واملئوا البحر إن أردتم سفينًا
وأقيموا للعسف في كل شبر
«إننا لن نحول عن عهد مصر
واطمسوا النجم واحرمونا النسيما
واملئوا الجو إن أردتم رُجوما
«كونستبلًا» بالسُّوط يفري الأديما^{١٤٥}
أو ترَونا في التُّرب عظمًا رميما

* * *

عاصفُ صانٍ مُلككم وحماكم
غال «أرمادة»^{١٤٦} العدو ففزتم
فعدلتُم هُنيهةً، وبغيتُم
فشهدنا ظلمًا يُقال له العد
فأتقوا غضبةَ العواصف إنني
وكفاكم بالأمس خطبًا جسيما
وبلغتم في الشرق شأوا عظيما
وتركتُم في النيل عهدًا زميما
لُ وودًا يسقي الحميمَ الحميما^{١٤٧}
قد رأيت المصير أمسى وخيما!

وقال أيضًا «أبريل سنة ١٩٣٢»:

لقد طالَ الحياؤُ ولم تكفُوا
أخذتم كلَّ ما تبغون منَّا
بلونا شدةً منكم ولينا
وسالمتُم وعاديتُم زمانًا
فليس وراءكم غيرُ التَّجني
أما أرضاكمُ ثمنُ الحياؤِ؟
فما هذا التحكُّمُ في العبادِ؟
فكان كلاهما ذرُّ الرِّمادِ
فلم يُغنِ المُسالِمَ والمُعادي
وليس أمامنا غيرُ الجهادِ

^{١٤٥} يفري الأديم: أي يشق الجلد.

^{١٤٦} الأرمادة: هي الأسطول الإسباني الذي تحطَّم في السادس عشر بعاصفةٍ حالت بينه وبين مهاجمة الأسطول الإنجليزي الذي كان بدوره قوة وعدداً.

^{١٤٧} الحميم الأول: الصديق. والحميم الثاني: الشراب الشديد الحرارة.

وُعود الإنجليز في الجلاء

وقال في سنة ١٩٣٢ يُندد بكاتب فرنسي زعم أن جلاء الإنجليز سيكون في أكتوبر من ذلك العام:

كم حدّوا يوم الجلاء الذي أصبح في الإبهام كالمحشر
وسنّ قوم الطيش من جهلهم كذبة «أبريل لأكتوبر»

حافظ وصدقي باشا

وقال في سنة ١٩٣٢ يُندد بسياسة صدقي باشا رئيس الوزارة وقتئذٍ من قصيدة لم يُنشر منها إلا النزر اليسير:

قد مرَّ عامٌ ياسعادُ وعامٌ وابنُ الكنانة في حماه يُضامُ
صَبُّوا البلاءَ على العباد فنصفُهم يجبي البلاد ونصفُهم حُكامُ
أشكو إلى «قصر الدبارة» ما جنى «صدقي» الوزير وما جبي «علام»^{١٤٨}

ومنها في مُخاطبة صدقي باشا:

ودعا عليك الله في محرابه الشيخُ والقسيسُ والحاخامُ
لأهمُّ أحيَ ضميره ليذوقها غصصًا وتنسف نفسه الآلامُ

يُكافح الاستعمار ويدعو إلى الفداء

قال في حرب طرابلس (سنة ١٩١١-١٩١٢) حين اعتدت إيطاليا على العرب، يستحث أمم الشرق أن تنهض وتُكافح الاستعمار، ويُمجّد التضحية في سبيل الحرية:

طمعُ ألقى عن الغرب اللثاما فاستفّق يا شرقُ واحذر أن تناما!

^{١٤٨} محمد علام باشا، وكيل حزب الشعب الذي ألفه صدقي باشا. يُشير إلى ما كانوا يجربونه من الأموال إعانةً لحزب الشعب.

واحِملِي أَيْتَهَا الشَّمْسُ إِلَى
 وَاشْهَدِي يَوْمَ التَّنَادِي^{١٤٩} أَنَّنَا
 مَادَتِ الْأَرْضَ بِنَا حِينَ انْتَشَتْ
 عَجَزَ الطَّلِيَانُ عَنْ أَبْطَالِنَا
 كَبَلُوهُمْ، قَتَلُوهُمْ، مَثَّلُوا
 ذَبَحُوا الْأَشْيَاخَ وَالزَّمَنِي،^{١٥١} وَلَمْ
 أَحْرِقُوا الدُّورَ، اسْتَحْلُوا كُلَّ مَا
 بَارَكَ الْمَطْرَانُ فِي أَعْمَالِهِمْ
 أَبْهَذَا جَاءَهُمْ إِنْجِيلُهُمْ
 كَشَفُوا عَنْ نِيَّةِ الْغَرْبِ لَنَا
 فَقَرَأْنَاهَا سَطَوْرًا مِنْ دَمٍ

وختم قصيدته بقوله:

فَاطَمَتْنِي أُمُّ الشَّرْقِ وَلَا
 «إِنْ فِي أَضْلَاعِنَا أَفئِدَةٌ
 تَقْنَطِي الْيَوْمَ فَإِنَّ الْجَدَّ قَامَا
 تَعَشَّقُ الْمَجْدَ، وَتَأْبَى أَنْ تُضَامَا»

تمجيده للشورى

قال في عمريته المشهورة التي أنشأها في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

يَا رَافِعًا رَايَةَ الشُّورَى وَحَارِسَهَا
 لَمْ يُلْهِكَ النَّزْعُ عَنْ تَأْيِيدِ دَوْلَتِهَا^{١٥٢}
 جَزَاكَ رَبُّكَ خَيْرًا عَنْ مُجْبِيهَا
 وَلِلْمَنْيَّةِ أَلَامٌ تُعَانِيهَا
 إِلَى الْجَمَاعَةِ إِنْذَارًا وَتَنْبِيهَا
 لَمْ أَنْسَ أَمْرَكَ لِلْمِقْدَادِ يَحْمِلُهُ

^{١٤٩} يوم القيامة.

^{١٥٠} أعلوا: أي سقوا.

^{١٥١} الزمنى: ذوو العاهات.

^{١٥٢} دولتها: أي دولة الشورى.

إِنْ ظَلَّ بَعْدَ ثَلَاثٍ ١٥٣ رَأَيْهَا شُعْبًا
فَاعْجَبْ لِقَوَّةِ نَفْسٍ لَيْسَ يَصْرِفُهَا
دَرَى عَمِيدُ بَنِي الشُّورَى بِمَوْضِعِهَا
وَمَا اسْتَبَدَّ بِرَأْيٍ فِي حُكُومَتِهِ
رَأْيُ الْجَمَاعَةِ لَا تُشْقَى الْبِلَادُ بِهِ
فَجَرَّدَ السِّيفَ وَاضْرِبْ فِي هَوَادِيهَا
طَعْمُ الْمَنِيَّةِ مُرًّا عَنْ مَرَامِيهَا
فَعَاشَ مَا عَاشَ يَبْنِيهَا وَيُعْلِيهَا
إِنَّ الْحُكُومَةَ تُغْرِي مُسْتَبِدِّيَهَا
رَغْمَ الْخِلَافِ وَرَأْيُ الْفَرْدِ يُشْقِيهَا!

الاستمرار في الكفاح

قال سنة ١٩٢٤ يدعو إلى الاستمرار في الكفاح:

إِنَّا سَنَعْمَلُ لِلْخِلَاصِ وَلَا نَنْي
كَمْ دَوْلَةٌ شَهِدَ الصَّبَاحُ جَلَالَهَا
وَقُصُورِ قَوْمٍ زَاهِرَاتٍ فِي الدُّجَى
وَاللَّهِ يَقْضِي بَيْنَنَا وَيُدِيلُ ١٥٤
وَأَتَى عَلَيْهَا اللَّيْلُ وَهِيَ فُلُولُ
طَلَعَتْ عَلَيْهَا الشَّمْسُ وَهِيَ طُلُولُ

* * *

يَأْيُهَا النَّشْرُ الْكَرَامَ تَحِيَّةً
يَا زَهَرَ مِصْرَ وَزَيْنَهَا وَحُمَاتَهَا
جُدْتُمْ لَهَا بِالنَّفْسِ فِي وَرْدِ الصَّبَا
كَمْ مِنْ سَجِينٍ دُونَهَا وَمُجَاهِدٍ
سِيرُوا عَلَى سَنَنِ الرَّئِيسِ وَحَقَّقُوا
أَنْتُمْ رِجَالُ غَدٍ وَقَدْ أَوْفَى غَدُ
كَالرَّوْضِ قَدْ خَطَرَتْ عَلَيْهِ قَبُولُ ١٥٥
مَدَحِي لَكُمْ بَعْدَ الرَّئِيسِ ١٥٦ فُضُولُ
وَالْوَرْدُ لَمْ يُنْظَرْ إِلَيْهِ ذُبُولُ
دَمُهُ عَلَى عَرَصَاتِهَا مَطْلُولُ
أَمَلُ الْبِلَادِ فَكُلُّكُمْ مَأْمُولُ
فَاسْتَقْبِلُوهُ وَحَجِّلُوهُ وَطُولُوا ١٥٧

تقريره للمواطنين

وبلغ حثه المواطنين على النهوض حد التقرير أحياناً، وله ١٩٠٤ قصيدة ينعى فيها على مواطنيه بعضَ عيوبهم الاجتماعية، وقد نظمها لمناسبة قضية شخصية تَارَ لها الرأي

١٥٣ بعد ثلاث: أي بعد ثلاث ليالٍ. والهوادي: الأعناق.

١٥٤ يدِيلُ: أي يجعل الدولة لنا عليهم.

١٥٥ القبول: ربح الصَّبَا.

١٥٦ يقصد هنا سعد زغلول.

١٥٧ حجلوه: أي اجعلوه يوماً أبيض: وطولوا: أي افخروا واعتزوا.

العام بغير مُوجب؛ إذ تزوّج صاحب المؤيد المرحوم الشيخ علي يوسف بكريمة السيد عبد الخالق السادات، فرفع هذا دعوى أمام المحكمة الشرعية طالباً فسخ عقد الزواج بحجة عدم الكفاءة في النسب، وانحاز الرأي العام إلى جانب المدّعي، وأخذ القضاء بوجهة نظره رغم علو مكانة الشيخ علي يوسف في الهيئة الاجتماعية، قال حافظ:

حَطَمْتُ اليراعَ فلا تَعَجَّبِي	وَعِفْتُ البَيانَ فلا تَعْتَبِي
فما أَنْتِ يا مصرُ دار الأديب	ولا أَنْتِ بالبلد الطيّبِ
وكم فيك يا مصر من كاتِبٍ	أَقَالَ اليراعَ ولم يَكْتَبِ
فلا تَعْذِلِينِي لهذا السُّكُوتِ	فقد ضاق بي منك ما ضاق بي
أُيَعِجِبُنِي مِنْكَ يَوْمَ «الوفاق» ^{١٥٨}	سكُوتُ الجمادِ وَلَعْبُ الصَّبِيِّ؟
وكم غضب الناسُ من قبلنا	لَسَلِبِ الحقوقِ ولم تَغْضَبِ

* * *

أُنَابَتَةَ العصرِ إن الغريب	مُجِدَ بمصرِ فلا تَلْعَبِي
يقولون: في النِّشْءِ خيرٌ لنا	وَلَلنِّشْءِ شرٌّ من الأجنبي
أُفِي «الأزبكية» مَثَوَى البنين	وبين المساجد مَثَوَى الأب؟
«وكم ذا بمصر من المُضْحِكَاتِ»	كما قال فيها «أبو الطيّب» ^{١٥٩}
أُمُورٌ تَمُرُّ وَعَيْشٌ يُمَرُّ ^{١٦٠}	ونحن من اللّهُو في مَلْعَبِ
وشعبٌ يَفِرُّ من الصالحات	فِرَارَ السَّلِيمِ من الأَجْرِبِ
وصحفٌ تَطْنُ طَنِينَ الذباب	وأخرى تَشْنُ على الأقْرِبِ
وهذا يلوذ بقصر الأمير	ويدعو إلى ظِلِّهِ الأَرْحَبِ
وهذا يلوذ بقصر السِّفِيرِ	ويُطْنِبُ في وِردِهِ الأَعْذَبِ

^{١٥٨} يقصد الاتفاق الذي عُقد بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ وبمقتضاه أُقرَّت فرنسا الاحتلال البريطاني لمصر.

^{١٥٩} يُشير إلى قول أبي الطيب المتنبي:

وكم ذا بمصر من المُضْحِكَاتِ ولكنه ضحكٌ كالبُكا

^{١٦٠} عيش يمر: أي يصير مرّاً.

وهذا يصيح مع الصّائحين على غير قصدٍ ولا مَأربٍ

* * *

وقالوا: «المؤيد» في غمرة	رماه بها الطمع الأشعبي
دعاه الغرام بسنّ الكُهل	فجُنّ جنوناً ببنتِ النَّبي!
فضجّ لها العرش والحاملوه	وضج لها القبر في «يثرِب» ^{١٦١}
ونادى رجالٌ بإسقاطه	وقالوا: تلَوْن في المَشْرِبِ
وعدّوا عليه من السيئات	ألفوا تدور مع الأحقُبِ
وقالوا لصيقُ ببيت الرسول	أغار على النّسب الأنجبِ
وزكّى «أبو خطوة» قولهم	بحُكم أحدٍّ من المَضْرِبِ
فما للتهاني على داره	تساقط كالمطر الصيّبِ؟
وما للوفود على بابه	تزفُ البشائر في موكبِ؟
وما للخليفة أسدى إليه	وساماً يليق بصدر الأبى؟

* * *

فيا أمةً ضاقَ عن وصفها	جَنانُ المُفَوِّهِ والأخطَبِ
تضيع الحقيقة ما بيننا	ويصلى البريء مع المُذنبِ؟
ويُهْضَمُ فينا الإمام الحكيم	ويُكْرَمُ فينا الجهول الغبي

* * *

على الشرق منّي سَلامُ الدود	وإن طأطأ الشرق للمَغْرِبِ
لقد كان خصباً بجذب الزمان	فأجذب في الزمن المُخَصِبِ

شعره الاجتماعي

يزخر شعر حافظ بالاجتماعيات؛ فهو من هذه الناحية أغزرُ مادةً وأعمقُ غوراً من شوقي، ولا غرو فقد كان أكثر اتصالاً بالطبقات الشعبية، وعانى ما تُعانيه من الألم والحرمان،

^{١٦١} اسم قديم للمدينة المنورة.

فصار أدقّ تصويرًا لأحوالها وآلامها، وفي ذلك يقول بحق عن نفسه في قصيدته التي أنشدتها بدار الأوبرا سنة ١٩١١ في حفلة جمعية رعاية الأطفال:

لم أقف موقفي لأنشد شعراً	صُبَّ في قالبٍ بديعِ النظامِ
إنما قمتُ فيه والنفسُ نشوى	من كئوسِ الهمومِ والقلبُ دامي
«ذُقتُ طعمَ الأسى وكابدتُ عيشاً	دُونَ شُرْبِي قَدَاهُ شَرِبُ الحِمَامِ» ^{١٦٢}
فتقلَّبتُ في الشَّقَاءِ زماناً	وتنقَّلتُ في الخطوبِ الجِسامِ
ومشى الهمُّ ثاقباً في فؤادي	ومشى الحزنُ ناخراً في عظامي
فلهذا وقفتُ أستعطفُ النّا	سَ على البائسين في كلِّ عامِ

عطفه على منكوبي حريق ميت غمر

في سنة ١٩٠٢ شب حريق مُروّع في مدينة ميت غمر، وبقيت النار مُشتعلة فيها عدة أيام، فدمرت كثيراً من دورها ومات في الحريق كثيرون، ولِعظم النكبة تسابَق أهل الخير في إعانة المنكوبين وإسعافهم، وفاضت أعمدة الصحف بأنباء ما أصابهم، وفي ذلك أنشأ حافظ قصيدته المشهورة في وصف هذه الكارثة والعطف على ضحاياها، قال:

سائلوا اللَّيلَ عنهم والنهاراً	كيف باتت نساؤهم والعذارى؟
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم	وكيف اصطلى مع القوم ناراً؟
كيف طاح العجوز تحت جدارٍ	يتداعى وأسقفٍ تتجارى؟
رَبِّ إِنَّ القضاءَ أنحى عليهم	فاكشف الكُربَ واحجُب الأقداراً
ومُر النارَ أن تكفَّ أذاها	ومُر الغيثَ أن يسيل انهماراً
أين طوفان صاحب الفُلك يُروي	هذه النَّارُ فهي تشكو الأواراً ^{١٦٣}
أشعلت فحمةً الدياجي فباتت	تملاً الأرض والسماء شَراراً
غشيتهم والنحسُ يجري يميناً	ورمّتهم والبؤسُ يجري يساراً

^{١٦٢} الجمام: الموت.

^{١٦٣} الأوار: شدة الحرارة والعطش.

فأغارت وأوجهُ القومِ بيضُ
أكلت دورهم فلمَّا استقلت
أخرجتهم من الديار غُرَّةً
يلبسون الظلام حتى إذا ما
حُلَّة لا تقيهم البردَ والحرَّ
ثم غارت وقد كسَّتهنَّ قارا
لم تُغادر صغارهم والكبار
حذرَ الموت يطلبون الفِرا
أقبل الصبح يلبسون النهار
ولا عنهم تُردُّ الغُبارا

* * *

أيُّها الرَّاغلون في حُلِّ الوَش
إن فوق العراء قومًا جِيعًا
أيُّهذا السجين^{١٦٥} لا يمنع السَّج
مُر بألف لهم وإن شئت زدها
ي^{١٦٤} يجرُّون للذُّيول افتخارا
يتوارون ذِلَّةً وانكسارا
من كريماً من أن يُقيل العثارا
وأجرهم كما أجرت النصارى

* * *

قد شهَدنا بالأمس في مصر عُرْسًا^{١٦٦}
سأل فيه النُّصارى حتى حسَبنا
بات فيه المُنعمون بَلِيل
يكتسون السرورَ طَوْرًا وطورًا
وسمِعنا في «ميت غَمِر» صياحًا
ملأ العين والفؤاد ابتهارا
أن ذاك الفناء يَجري نُصارا
أخجل الصبح حُسْنُه فتواری
في يد الكأس يخلعون الوقارا
ملأ البر ضجَّةً والِبَحارا

* * *

جلَّ من قسَم الحظوظ؛ فهذا
رُب ليلٍ في الدهر قد ضمَّ نحسًا
يتغنَّى وذاك يبكي الدِّيارا
وسُعودًا وعُسرة ويسارا!

^{١٦٤} حلل الوشي: الثياب المزركشة.

^{١٦٥} يقصد أحمد المنشاوي باشا المحسن المشهور وصاحب المبرات المعروفة.

^{١٦٦} يقصد عرس زواج «الأمير» حيدر فاضل من كريمة علي فهمي «باشا» سنة ١٩٠٢ وكان من أعظم المهرجانات.

الجامعة سبيل الكفاح

وقال من قصيدة له في سنة ١٩٠٨ يدعو إلى معاضدة مشروع الجامعة المصرية:

حَيَّاكُم اللهُ أَحْيَاوُا الْعِلْمَ وَالْأَدْبَا
وَلَا حَيَاةَ لَكُمْ إِلَّا بِجَامِعَةٍ
تَبْنِي الرِّجَالَ وَتَبْنِي كُلَّ شَاهِقَةٍ
ضَعُوا الْقُلُوبَ أَسَاسًا لَا أَقُولُ لَكُمْ
وَابْنُوا بِأَكْبَادِكُمْ سَوْرًا لَهَا وَدَعَا
لَا تَقْنَطُوا إِنْ قَرَأْتُمْ مَا يُزَوِّقُهُ
وَرَاقِبُوا يَوْمَ لَا تُغْنِي حَصَائِدُهُ
بَنَى عَلَى الْإِفْكَ أَبْرَاجًا مُشَيَّدَةً
وَجَاوَبُوهُ بِفَعْلٍ لَا يُقَوِّضُهُ
لَا تَهْجَعُوا إِنَّهُمْ لَنْ يَهْجَعُوا أَبَدًا

إِنْ تَنْشُرُوا الْعِلْمَ يَنْشُرْ فَيْكُمْ الْعَرَبَا^{١٦٧}
تَكُونُ أُمًّا لَطُلَابِ الْعُلَا وَأَبَا
مِنَ الْمَعَالِي وَتَبْنِي الْعِزَّ وَالْغَلْبَا
ضَعُوا النُّضَارَ فَإِنِّي أُصْغِرُ الذَّهْبَا
قِيلَ الْعَدُوُّ فَإِنِّي أَعْرِفُ السَّبَبَا^{١٦٨}
ذَاكَ الْعَمِيدَ وَيَرْمِيكُمْ بِهِ غَضَبَا^{١٦٩}
فَكُلُّ حَيٍّ سَيُجْزَى بِالَّذِي اكْتَسَبَا^{١٧٠}
فَابْنُوا عَلَى الْحَقِّ بُرْجًا يَنْطَحُ الشُّهْبَا
قَوْلَ الْمَفْنَدِ أَنِّي قَالَ أَوْ خَطْبَا
وَطَالِبُوهُمْ وَلَكِنْ أَجْمِلُوا الطَّلْبَا

وختمها بقوله:

إِنْ تَقْرِضُوا اللَّهَ فِي أَوْطَانِكُمْ فَلَكُمْ أَجْرُ الْمَجَاهِدِ طَوْبَى لِلَّذِي اكْتَتَبَا

رعاية الأطفال

وألقي في أبريل سنة ١٩١٠ القصيدة الآتية في احتفالٍ أقامته جمعية رعاية الأطفال يصف
بؤس أم فقيرة حامل وكيف لقيت الرعاية والإسعاف في مستشفى الجمعية:

شَبَّحًا أَرَى أَمْ ذَاكَ طَيْفُ خِيَالٍ؟ لَا، بَلْ فَتَاةٌ بِالْعَرَاءِ حِيَالِي

^{١٦٧} أَي يُبْعَثُ فَيْكُمْ مَجْدُ الْعَرَبِ.

^{١٦٨} يُشِيرُ إِلَى مَا كَانَ يُقِيمُهُ الْمُعْتَمَدُ الْبَرِيطَانِي مِنَ الْعُقَبَاتِ فِي سَبِيلِ إِنْشَاءِ الْجَامِعَةِ.

^{١٦٩} يُشِيرُ إِلَى مَا كَانَ يُقِيمُهُ الْمُعْتَمَدُ الْبَرِيطَانِي مِنَ الْعُقَبَاتِ فِي سَبِيلِ إِنْشَاءِ الْجَامِعَةِ.

^{١٧٠} حَصَائِدُ: أَي حَصَائِدُ الْعَمِيدِ؛ أَي مَا يَقُولُهُ لِيُثْنِيَ بِهِ الْعَزَائِمُ عَنْ مَشْرُوعِ الْجَامِعَةِ.

أَمَسَتْ بِمَدْرَجَةِ الْخُطُوبِ فَمَا لَهَا
حَسْرَى تَكَادُ تُعِيدُ فَحْمَةً لَيْلَهَا
مَا خَطْبُهَا، عَجَبًا، وَمَا خَطْبِي بِهَا؟
دَانَيْتُهَا وَلَصَوْتُهَا فِي مِسْمَعِي
وَسَأَلْتُهَا: مَنْ أَنْتِ؟ وَهِيَ كَأَنَّهَا
فَتَمَلَمَلَتْ جَزَعًا وَقَالَتْ: حَامِلٌ
قَدْ مَاتَ وَالِدُهَا وَمَاتَتْ أُمُّهَا
رَاعٍ هُنَاكَ وَمَا لَهَا مِنْ وَالِي
نَارًا بِأَنَاتٍ ذَكَّيْنِ^{١٧١} طَوَالَ
مَا لِي أَشَاطِرُهَا الْوَجِيعَةَ مَا لِي؟
وَقَعَ النَّبَالُ عَطْفَنَ إِثْرِ نَبَالٍ
رَسْمٌ عَلَى طَلَلٍ مِنَ الْأَطْلَالِ
لَمْ تَدْرِ طَعْمَ الْغَمَضِ مِنْذُ لَيْالِي
وَمَضَى الْجِمَامُ بِعَمِّهَا وَالْخَالِ

* * *

وإلى هنا حبسَ الحياءَ لسانها
«فَعَلِمْتُ مَا تُخْفِي الْفَتَاةُ وَإِنَّمَا
وَوَقِفْتُ أَنْظَرُهَا كَأَنِّي عَابِدٌ
وَرَأَيْتُ آيَاتِ الْجَمَالِ تَكْفَّلَتْ
لَا شَيْءَ أَفْعَلُ فِي النَفُوسِ كَقَامَةِ
أَوْ غَادَةِ كَانَتْ تُرِيكَ إِذَا بَدَتْ
وَجَرَى الْبُكَاءُ بِدَمْعِهَا الْهَطَّالِ
يَحْنُو عَلَى أُمَثَالِهَا أُمَثَالِي»
فِي هَيْكَلٍ يَرْنُو إِلَى تَمَثَالٍ
بَزَوَالِهِنَّ فَوَادِحُ الْأَثْقَالِ
هَيْفَاءَ رَوْعِهَا الْأَسَى بِهِزَالٍ
شَمْسُ النَّهَارِ فَأَصْبَحَتْ كَالْأَلِ^{١٧٢}

* * *

قُلْتُ انْهَضِي قَالَتْ أَيْنَهُضُ مَيِّتُ
فَحَمَلْتُ هَيْكَلَ عَظْمِهَا وَكَأَنَّنِي
وَطَفِئْتُ أَنْتَهَبُ الْخُطَا مَتِيئًا
أَمْشِي وَأَحْمِلُ بَائِسِينَ؛ فَطَارِقُ
أَبْكِيهِمَا وَكَأَنَّمَا أَنَا ثَالِثُ
مَنْ قَبْرِهِ وَيَسِيرُ شَنَّ بِالِي^{١٧٣}
حُمَلْتُ حِينَ حَمَلْتُ عُودَ خِلَالٍ
بِالْليلِ «دَارُ رَعَايَةِ الْأَطْفَالِ»
بَابَ الْحَيَاةِ وَمُؤْذِنَ بَزَوَالِ^{١٧٤}
لَهُمَا مِنَ الْإِشْفَاقِ وَالْإِعْوَالِ^{١٧٥}

^{١٧١} ذكَيْن: أي توقدن واشتعلن.

^{١٧٢} الآل: السراب.

^{١٧٣} الشن: القرية الخلق البالية.

^{١٧٤} طارق باب الحياة: الجنين. ويريد بالموذن بالزوال أمه.

^{١٧٥} الإعوال: البكاء.

* * *

وطرقتُ باب الدار لا متهيِّبًا طرُقَ المُسافر أَبَ من أسفاره
أحدًا ولا مترقِّبًا لسؤال وإذا بأصواتٍ تصيح: ألا افتحوا
أو طرَّقَ رب الدار غير مُبالي وإذا بأيِّدٍ طاهراتٍ عُوِّدت
دَقَّاتُ مَرَضَى مُدْلِجِينَ عِجَالٍ جاءت تُسابقُ في المَبَرَّةِ بعضها
صُنْعَ الجميل تطوَّعت في الحال فتناولتُ بالرَّفَقِ ما أنا حاملٌ
بعضًا لوجه الله لا للمال وإذا الطبيب مُشَمَّرٌ وإذا بها
كالأم تكلأ طفلها وتوالي جاءوا بأنواع الدواء وطوَّفوا
فوق الوسائد في مكان عالي وجثا الطبيب يجسُّ نبضًا خافتًا
بسرير ضيقتهم كبعض الآل لم يدرِ حين دنا ليبلو^{١٧٦} قلبها
ويُرود مَكْمَن دائها القتال دَقَّات قلب أم دبيب نِمال؟

* * *

ودَّعْتُها وتركتها في أهلها وعجزتُ عن شكر الذين تجرَّدوا
وخرجتُ مُنشرِّحًا رضيَّ البال لم يُخجلوها بالسؤال عن اسمها
للباقيات وصالح الأعمال خير الصنائع في الأنام صنِعة
تلك المروءة والشعور العالي وإذا النوال أتى ولم يهرق له
تنبو بحاملها عن الإذلال من جاد من بعد السؤال فإنه
ماءُ الوجوه فذاك خير نوال — وهو الجواد — يُعد في البُخال

* * *

لله دُرهم فكم من بئس ترمي به الدنيا فمن جوع إلى
جَم الوجيعة سيئ الأحوال عينٌ مُسَهَّدة وقلب واجف
عُرِي إلى سُقمٍ إلى إقلال لم يدرِ ناظره أعريانا يرى
نفس مُروَّعة وجيب خالي أم كاسيًا في تِلْكمُ الأسمال

^{١٧٦} يبلو: أي يختبر.

فكأن ناحل جسمه في ثوبه خلف الخروق يُطل من غربال
يا برد فاحمل قد ظفرت بأعزل يا حر تلك فريسة المغتال
يا عين سُحِّي يا قلوب تفتطري يا نفس رقي يا مروءة والي
لولاهم لَقضى عليه شقاؤه وخلا المجال لخاطف الآجال
لولاهم كان الردى وقفًا على نفس الفقير ثقيلة الأحمال

* * *

لله درُّ الساهرين على الألى سهروا من الأوجاع والأوجال^{١٧٧}
القائمين بخير ما جاءت به مدنية الأديان والأجيال
أهل اليتيم وكهفه وحُماته وربيع أهل البؤس والإمحال^{١٧٨}

* * *

لا تُهملوا في الصالحات فإنكم لا تجهلون عواقب الإهمال
إني أرى فقراءكم في حاجة — لا تعلمون — لقائل فعَّال
فتسابقوا الخيرات فهي أمامكم ميدان سبق للجواد النال^{١٧٩}
والمُحسنون لهم على إحسانهم يوم الإثابة عشرة الأمثال
وجزاء رب المُحسنين وجلُّ عن عدُّ وعن وزن وعن مكيال

وقال في سنة ١٩١١ يدعو إلى العطف على البؤساء:

دعوة البائس المعذب سُورُ يدفع الشر عن حياض الكرام
وهي حربٌ على البخيل وذئب البغ سي وسيفٌ على رقاب اللئام
إن هذا الكريم قد صان عرضي وحماني من عاديات السقام
عال طفلي وعالني وحباني بكساء وبدره وطعام
وهو من معشر أغاثا ذوي البؤ س وقاموا في الله خير القيام

^{١٧٧} الأوجال: المخاوف.

^{١٧٨} الإمحال: الجذب.

^{١٧٩} الجواد: الكريم، والنال: الكثير النائل وهو العطاء.

وَأَقَامُوا لِلْبِرِّ دَارًا فَكَانَتْ
خَيْرَ وَرْدٍ يَوْمُهُ كُلُّ ظَامِي
مُلِئَتْ رَحْمَةً وَفَاضَتْ حَنَانًا
فَهِيَ لِلْبَائِسَاتِ دَارُ السَّلَامِ

إلى أن قال في الإحسان والزكاة:

قد نجا المُنْعِمُ الجواد من المو
فَأَطَفْنَا بِهَا وَقَدْ مَلَأَ الْأَنْبُ
وشهدنا ثغر الوفاء تجلَّى
ورأينا شخص المروءة والبر
وعلمنا أن الزكاة سبيلُ الله
خصَّها الله في الكتاب بذكر
بدأت مَبْدَأُ الْيَقِينِ وَظَلَّتْ
لو وفى بالزكاة مَنْ جَمَعَ الدُّنْ
ما شكا الجوعَ مُعْدِمٌ أَوْ تَصَدَّى
راكبًا رأسه طريدًا شريدًا
سائلًا عن وصية الله فيه

ت بفضل الزكاة والإنعام
فُسُ مِنْ جَلَالُ ذَاكَ الْمَقَامِ
إِذْ تَجَلَّى فِي ثَغْرِهَا الْبَسَامِ
تَبَدَّى فِي شَخْصِ ذَاكَ الْهَمَامِ
قبل الصلاة، قبل الصيام
فهو ركن الأركان في الإسلام
لحياة الشعوب خير قوام
يا وأهوى على اقتناء الحطام
لركوب الشرور والآثام
لا يُبَالِي بِشَرْعَةٍ أَوْ زِمَامِ
أَخَذًا قَوْتَهُ بِحَدِّ الْحَسَامِ

ملجأ الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ في تحية ملجأ الحرية، وفيها يهيب بالأثرياء أن يبرؤوا الأيتام والفقراء، ويشير إلى يقظة الأمة سنة ١٩١٩ وما أحدثته الثورة في النفوس من التطلع إلى المثل العليا.

أيها الطفل لك البشرى فقد
قَدَّرَ اللَّهُ لَنَا أَنْ نُنْشِرَا^{١٨٠}
قَدَّرَ اللَّهُ حَيَاةَ حُرَّةٍ
وَأَبَى سَبْحَانَهُ أَنْ تُقْبَرَا
لا تخف جوعًا ولا عُريًا ولا
تَبِكْ عَيْنَاكَ إِذَا خَطَبَ عِزًّا^{١٨١}

^{١٨٠} ننشر: أي نحيا ونعيب.

^{١٨١} عرا: ألم ونزل.

لك عند البر في ملجئه حيث تأوي خاطر لن يكسرا
حيث تلقى فيه حذباً وترى بين أترابك عيشاً أنضرا

* * *

لا تُسِئْ ظَنًّا بِمُثْرِينَا فَقَدْ تاب عن آثامه واستغفرا
كان بالأمس وأقصى همه — إن أتى عارفة^{١٨٢} — أن يظهرها
فغدا اليوم يُواسي شعبه وهو لا يرغب في أن يُشكرا
نَبَّهَتْ عاطفة البر به محنة عمّت ومقدار جرى
جمعتنا في صعيد واحد وأرادتنا على أن نُقهرها
فتعاهدنا على دفع الأذى بركوب الحزم حتى نظفرا
وتواصينا بصبر بيننا فغدونا قوة لا تُزدرى
أنشرت^{١٨٣} في مصر شعباً صالحاً كان قبل اليوم مُنفك العرا
كم مُجب هائم في حبها ذاد عن أجفانه سرح الكرى
وشبابٍ وكهول أقسموا أن يشيدوا مجدها فوق الذرى

* * *

يا رجال الجِد هذا وقته آن أن يعمل كلُّ ما يرى
ملجأً أو مَصرفاً أو مَصنعاً أو نقاباتٍ لزراع القُرى
أنا لا أعذر منكم من ونى وهو ذو مَقدرة أو قَصْرا
فابعدوا بالملجأ الحر الذي جئت للأيدي له مُستمطرا
واكفلوا الأيتام فيه واعلموا أن كل الصيد في جوف الفِرا
أيها المُثري! ألا تكفلُ من بات محروماً يتيماً مُعسِرا؟
أنت ما يُدريك لو أنبئته ربما أطلعت بدراً نيِّرا
ربما أطلعت «سعداً» آخرًا يُحكِم القول ويَرقي المنبرا
ربما أطلعت منه «عبده» من حمى الدين وزان «الأزهرا»

^{١٨٢} العارفة: العطية والمعروف.

^{١٨٣} أنشرت: أي أحبت.

ربما أطلعت منه شاعراً
ربما أطلعت منه فارساً
كم طوى البؤس نفوساً لو رعت
كم قضى العُدم على موهبة

مثل «شوقي» نابهاً بين الورى
يدخل الغيل على أسد الشرى^{١٨٤}
منبتاً خصباً لكانت جوهرها
فتوارت تحت أطباق الثرى

* * *

كلُّ من أحميا يتيماً ضائعاً
إنما تُحمَد عقبى أمره

حسبه من ربه أن يؤجرا
من لأخراه بدنياه اشترى

جمعية إعانة العميان

وقال في سنة ١٩١٦ في احتفالٍ أقامته جمعية إعانة العميان:

إن حق الضرير عند ذوي الأب
لم يضره فقدانه نور عيني
أنسوا نفسه إذا أظلم العي
وجّهوه إلى الفلاح يُفدكم
أكملوا نقصه يَكُن عبقرياً
كم رأينا من أكمه لا يُجارى
لم تقف آفة العيون حجازاً
عدم الحس قائداً فحداه
مثل هذا إذا تعلّم أغنى
ذاك أن الذكاء والحفظ حللاً
فعلى كل أكمه وبصير

صار حقٌ مُستوجب التقديس
ه إذا اعتاض عنهما بأنيس
ش بعلم فالعلم أنس النفوس
فوق ما يستفيده من دروس
مثل «طه» مُبرّزاً في الطُروس
وضرير يُرجى ليوم عبوس
بين وثباته وبين الشموس
هدي وجدانه إلى المحسوس
عن كثير وجاءنا بالنفيس
في جوار النُهى بتلك الرؤوس
شكر أعضائكم وشكر الرئيس

^{١٨٤} الغيل: الشجر الكثير الملتف تأوي إليه الأسود. والشرى: مأسدة جانب الفرات يُضرب بأساها المثل.

المال والعلم والأخلاق

قال سنة ١٩٢١ باسم مصر، من قصيدته «مصر تتحدث عن نفسها»:

وارفعوا دولتي على العلم والأخـ لاق فالعلم وحده ليس يُجدي

وقال سنة ١٩١٠ في قصيدة له [انظر فصل حافظ إبراهيم شاعر النيل] في الحث على إعانة مدرسة البنات ببورسعيد:

كم ذا يُكابد عاشق ويُلاقي	في حب مصر كثيرة العشاق
إنني لأحمل في هواك صباية	يا مصر قد خرجت عن الأطواق
لَهْفِي عليك متى أراك طليقةً	يحمي كريم حماك شعبٌ راقِي
كلَّفَ بمحمود الخِلال مُتِيْمٌ	بالبدل بين يديك والإنفاق
إنني لتُطربني الخِلال كريمةً	طربَ الغريب بأوبة وتلاقي
وتهزُّني ذكرى المروءة والندى	بين الشمائل هزة المُشتاقِ

* * *

فإذا رُزقت خليقةً محمودة	فقد اصطفاك مُقسَّم الأرزاقِ
فالناس هذا حظُّه مال وذا	علم وذاك مكارم الأخلاقِ
والمال إن لم تدَّخره مُحَصَّنًا	بالعلم كان نهايةَ الإملاقِ ^{١٨٥}
والعلم إن لم تكتنفه شمائلٌ	تُعليه كان مَطيَّةَ الإخفاقِ
لا تحسبنَّ العلم ينفع وحده	ما لم يُتَّوَجَّ رَبِّه بِخَلاقِ ^{١٨٦}

فضل المرأة على المجتمع

وقال في هذه القصيدة يُنَوِّه بفضل المرأة في المجتمع:

مَنْ لي بتربية النساء فإنها في الشرق علة ذلك الإخفاقِ

^{١٨٥} الإملاق: الفقر.

^{١٨٦} الخلاق: النصيب من الخير والصلاح.

«الأم مدرسةً إذا أعددتها
الأم روضٌ إن تعهده الحيا»^{١٨٧}
الأم أستاذ الأساتذة الألى
أعددت شعباً طيب الأعراق»^{١٨٨}
بالرّي أورق أيما إيراقي
شغلت مآثرهم مدى الآفاق

* * *

أنا لا أقول دُعوا النساء سوافراً
يدرجن حيث أردن لا من وازع
يفعلن أفعال الرجال لواهياً
في دُورهن شئونهن كثيرة
كلا ولا أدعوكم أن تُسرفوا
ليست نساؤكم حُلّى وجواهرًا
ليست نساؤكم أثناءً يُقتنى
تشكل الأزمان في أدوارها
فتوسّطوا في الحالّتين وأنصفوا
ربُّوا البنات على الفضيلة إنها
وعليكم أن تستبين بناتكم
بين الرجال يجلن في الأسواق
يحذرن رقبته ولا من وازع
عن واجبات نواعس الأحداق
كشئون ربّ السيف والمزراق»^{١٨٩}
في الحجب والتضييق والإرهاق
خوف الضياع تُصان في الأحقاق
في الدور بين مخادع وطباق
دولاً وهنّ على الجمود بواق
فالشر في التقيد والإطلاق
في الموقفين لهنّ خير وثاق
نور الهدى وعلى الحياء الباقي

المناصب والفضائل

من قوله في رثائه لعمود سامي البارودي:

إن المناصب في عزل وتولية
غير المواهب في ذكر وتخليد

ومات حافظ سنة ١٩٣٢ بعد أن خلف لمصر والشرق ذخيرةً من الوطنية وكنوزاً من
الشعر والحكمة والأخلاق لا تفنى ولا تنفد على مر الزمان.

^{١٨٧} الأعراق: الأصول، الواحد عرق.

^{١٨٨} الحيا: المطر.

^{١٨٩} المزراق: الرمح.

خليل مطران شاعر الحرية

١٩٤٩-١٨٧٢



شاعر الحرية والعروبة، حمل لواء التجديد في الشعر، نيقاً ونصف قرن من الزمان،
وبلغ الذروة في عالم الشعر والفن والبلاغة والخيال.

وُلِدَ سنة ١٨٧٢ في بعلبك إحدى المدن الشهيرة بלבّنان، ونشأ نَزاعاً إلى الحرية سمَحَ النفس، كريم الخلق، صفّي السيرة، محبّاً للخير، وديعاً في شَمَم وإباء، معتزّاً بكرامته، عيوقاً عن الصغائر.

ضاق صدرًا منذ صباه بجوّ يضغط على حرية الرأي والفكر، فارتحل إلى باريس يُتَمِّم فيها دراسته وعلومه، وهناك ارتوى من مَناهل الآداب الغربية، وإذ كانت شاعريته وليدة فطرته وسليقته، فقد اتجهت نفسه بتأثير الأدب الفرنسي إلى التجديد في شعره، فجمع بين البلاغة العربية والأساليب والمعاني الأوروبية.

ثم هاجر إلى مصر، واتخذها موطنه الثاني، بل موطنه المختار. أخلص لها، وغرّد في أكنافها، وتعشّق نيلها وأرضها وسماءها، وهو ثالث الثلاثة الذين عاشوا معاً وانتهت إليهم زعامة الشعر في العصر الحديث؛ شوقي وحافظ ومطران. ألهمه حبُّ الحرية نظمَ القصائد الرائعة في تمجيدها والذود عنها، والجهاد في سبيلها، فكان من أعلامها الخالدين.

كان إنساناً في شخصه وفي أخلاقه وفي شعره وأدبه. كان في شعره ينشد الكمال، ويحلّق في أجواء الحرية والوطنية. كان يستلهم شعره من المثل العليا، وفي ذلك يقول عن نفسه في الاحتفال ببوبيله الذهبي سنة ١٩٤٨:

كان في الشعر لي مرامٌ خطيرُ	فعدا طوقِي المَرامُ الخطيرُ
هائم في الوجود أسأله الوحـ	يَ كما يسأل الغنيّ الفقيرُ
أكبروني ولست أكبر نفسي	أنا في الفن مُستفيدٌ صغيرُ
لا يَضِق صدرُ شاعر بأخيه	يكره الفضلُ أن تضيق الصدورُ
والسموات لو تأملتَ فيها	ليس تُحصي شمسُها والبدورُ
كل جرم يعلو ويُصبح نجماً	فله حيّز وفيه بدورُ
والنجوم التي تلوح وتخفى	ربّواتٌ وما يضيق الأثيرُ

وبهذه الروح العالية والنفس الصافية والود الخالص والإيثار والأريحية، عاش محبوباً من مُعاصريه؛ يُحبهم ويُحبونه، وينشد لهم الخير والكمال. وقد أرّخ في شعره الوطني العذب مراحل النهضة المصرية والشرقية، وسجّل حوادثها ووقائعها، وترجم لرجالها وأشخاصها، وغدّى بقصائده الروح الوطنية جيلاً بعد جيل.

يمتاز شعره بسعة الخيال وجمال التصوير وبلاغة التعبير، هذا إلى اقتباسه من آداب اللغة الفرنسية التي درسها وتمكّن منها تمكُّنه من آداب اللغة العربية، فجمع بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية، وهو زعيم مدرسة التجديد في الشعر العربي، وسار على نهجه تلاميذه ومُريدوه.

وقد عبّر أبلغ تعبير وأرقّه عن منهج التجديد في شعره، بقوله في مقدمة الطبعة الثانية لديوانه سنة ١٩٤٨ قال:

هذا شعري، وفيه كل شعوري، هو شعر الحياة والحقيقة والخيال، نظمته في مختلف الآونة التي تخلّيت فيها عن العمل لرزقي، نظمته مُصَبِّحاً ومُمَسِّياً، مُنفرداً ومُتحدّثاً مع عُشْرَائِي، وقيدت فيه زفراتي وأحلامي، وسجلت بقوافيه أحداثَ زمني وبيئتي في دقة واستيفاء.

أتابع السابقين في الاحتفاظ بأصول اللغة، وعدم التفريط فيها، واستيحاء الفطرة الصحيحة، وأتوسع في مذاهب البيان مُجَارَةً لما اقتضاه العصر، كما فعل العرب من قبلي. أما الأمانة الكبرى التي كانت تجيش بي، فهي أن أدخل كل جديد في شعرنا العربي بحيث لا يُنْكَر، وأن أستطيع إقناع الجامدين بأن لغتنا أم اللغات إذا حُفِظَتْ وحُدِّمَتْ حق خدمتها؛ ففيها ضروب الكفاية للتجاري كل لغة قديمة وحديثة في التعبير عن الدقائق والجلال من أغراض الفنون، وإني لأرجو أن يرى المُطَّلِعُونَ على هذا الجزء الثاني وما يليه من أجزاء «ديوان الخليل» مصداقاً لدعواي.

وقال عنه صَنُوهُ وصديقه حافظ يُشيد بنزعتِه في التجديد:

هو في طليعة أولئك الذين خرجوا من أفق التقليد وصدّعوا قيود التقيد، وأوسعوا صدر الشعر العربي للخيال الأعجمي، وأفسحوا فيه للقصاص وتصوير الحوادث، وطوّفوا بسرد وقائع التاريخ، ففتح بذلك فتحاً جديداً شَن فيهِ الغارة على أهل الحفاظ والتمسك.

وكان من أركان المسرح العربي بما كتب لهذا المسرح وعزَّب؛ فقد ترجم ليالي ألفريد دي موسيه، ورواية هرناني لفكتور هيجو، كما ترجم لكورنيل مسرحيات «السيد» وسينا وبوليكت، وترجم روايات شكسبير؛ هاملت، ومكبث، وعطيل، وتاجر البندقية.

النهضة العربية

قال سنة ١٩٠٨ يُحيي نهضة الشعوب العربية:

داع إلى العهد الجديد دعاكِ	يا أمة العرب التي هي أُمنا
يا أمة العرب التي هي أُمنا	يمضي الزمان وتنقضي أحداثه
وهُوَ مَنْ فِي الْقُلُوبِ هَوَاكِ	إنا نُقَاضِي الدَّهْرَ فِي أَحْسابنا
بالرأي لا بالصَّارِمِ الفَتَّاكِ	ومِلاكُ شَيمَتنا الوفاءُ فَإِنَّه
لِسَعادةِ الأَقْوامِ خَيْرُ مِلاكِ	أَمالُنا أَلَمُنا، أرواحُنا
أَشْباحُنا يَوْمَ الفِداءِ فِداكِ	بالعلم ننشر ما انطوى من مَجْدنا
وبه نُزَكِّي في الورى ذِكرَكِ	

مطران ومصطفى كامل

كان بينه وبين الزعيم مصطفى كامل صداقةٌ وودٌ داما طول العمر، كان مؤيداً لدعوته نصيراً لرسالته، دافع عنها في حياة مصطفى، وظل وفياً لها بعد وفاته، ويبدو مبلغ إعجابه به وتقديره لعبقريته في قصيدته التي أنشدها سنة ١٩٠٨ في حفلة الأربعين لوفاته، وقد نشرها في ديوانه وصدرها في طبعته الأولى بهذه الكلمة التي تُعد في ذاتها قصيدة من النثر المنظوم، قال: «مُصاب الشَّرق في رَجُلِه المَفرِد، وبطله الأَوحد، مصطفى باشا كامل، أيتها الروح العزيزة! إن في هذا الديوان الذي أختتمته برثائك نفحات من نفحاتك، ودعوات من دعائك، فألى هيكلك المدفون بالتكريم تحية الأخ المُخلص للأخ الحميم، ووداع المُجاهد المتطوِّع للقائد العظيم.»

وجعل عنوان القصيدة «حق الوطن وحق الإخاء» قال:

أعلى مكانتَكَ الإلهُ وشَرَفنا	فانعم بطيب جوارِه يا «مصطفى»
اليومَ فُزْتَ بأجرٍ ما أَسْلَفْتَه	خيرًا وكلُّ وَاجِدٌ ما أَسْلَفنا
وَجُزِيتَ مِن فاني الوجودِ بخالد	ومن الأسى الماضي بمُقْتَبَلِ الصفا

* * *

أعْظَمُ بيومك في الزمان ومن له بك واصفًا ذاك الجلالَ فيُوصفا

حيث الوفود من الملائك أقبلوا
وتحمّلوك على الأشعة وارتقوا
فوردت وردك في الخلود منعماً
لم تُلَفَ قبلك أمة في مشهد
يمشون من حول الجنازة ضائقاً
مُتثاقلين من الوقار وإنما
بحر من الأحياء نعشك فوقه
يبكون في آثاره العلم الذي

حافين حولك في السرير وعُغفا
سرباً يجوز بك الداروي مُوجفا
والأرض مائدة عليك تأسُفا
يذرو الرجال به المدامع ذُرُفا
بهم الرحيب من المسالك مصرفا
ساروا بطيف ناحل أو أنحفا
فُلك يظللّ اللواء مُرفرفا
آثاره من رفعة لا تُقتفى

* * *

سعت الخوادر حاسرات والأسى
ولئن سفرن ولم يخلن فإنه
فزع الشباب إلى الشيوخ بثأرهم
ومن الغضاضة أن دعا داعي العلا
جزع النصارى واليهود لمسلم
بگوا المرجى في خلاف عارض
واشتد رُزء المسلمين وحزنهم

مُلِق على الأبصار سِتراً أغدفا
خَطَبُ الآن برّوعه صُم الصفا
من دمعهم إن خانهم مُتكفكفا
بعد الفقيّد فتنى بهم فتوقفا
هو خير من والى وأوفى من وفى
ليُزيل ذاك العارض المتكشفا
لما مضيت ولست فيهم مُخلفا

* * *

من بعد كاتبهم وبعد خطيبهم
من يُبرئ الإسلام من تُهم العدى
يُبدى لأعين جاهليه فضله
ويُثير من غضب الغضاب لمجده
لكن من أعلام جندك حوله
ولعل حرّاً لا يدين به انبرى
قف أيها الناعي عليه جموده
إن يعتري الشمس الكسوف هنيهة
وهل الكسوف سوى تعرّض حائل
لم تنزل الأديان إلا هادياً

يُعلي لهم صوتاً وينشر مصحفاً؟
ويردُّ نقد الناقدين مزيفاً؟
ويُزيل ما يلدُ التناكر من جفا
همماً تُعيد له المقام الأشرافا
سُمرّاً تهزُّ لكل خطب معطفا
ليزود عنه خصمه المتعسفا
فلقد تجاوزت الهدى مُتفلسفا
أَيكون منقصة لها أن تُكسفا؟
يُثني أشعتها إلى أن يُكشفا
للعالمين وراذعاً ومثقفاً

بشعار حيٍّ على الفلاح وما بها
وبكلٍّ أمرٍ موجبٍ إصلاحهم
قد كان للإسلام عهدٌ باهر
ملأ البلاد إنارةً وحضارة
فالخير كل الخير فيه مُقبلًا
يدعو البقاء إلى التكافؤ بالقوى
والخلق جسمٌ إن ألمَّ ببعضه
بشرى البرية بعد مُزمن دائها
إن أغضبت تلك السلامة جائرًا
يا من نهضت بنصره وأبنته
ما زلت في مصر تُقيم مناره

* * *

مصرُ العزيزةُ قد ذكرتُ لك اسمها
وكأنني بالقبر أصبح منبرًا
مصرُ التي لم تحظَ من نُجباؤها
مصرُ التي لم تبغِ إلا نفعها
مصرُ التي غسَلت يداك جراحها
مصرُ التي كافحت لدُعداتها
مصرُ التي سقت الجيوش مناقبًا
«مصرُ التي أحببتَها الحب الذي
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفًا
أمنيةً أعيَت خلالك دونها
وهي التي لو قُسمت لنما بها

* * *

مَنْ كان أجراً منك يوم كريمة
مَنْ كان أقدَرَ منك تصرُّفاً لما
من كان أظهرَ منك خلقاً جامعاً
بالحق لا شكسًا ولا متصلاً
يُعيي الحكيم مدبراً ومصرفاً
فيه مهيبَ الطبع والمستظرفاً

من كان أزهّد منك إلا في الذي يُجدي البلادَ فتبتغيه مُلجفاً
من كان أسمع منك مناعاً لما تهوى ومِعطاءً لغيرك مُسرّفاً
من كان أصدق منك لا متنصلاً مما تقول ولا تُعاهد مُخلفاً

* * *

لَهفي على فخر الصّبا هادي النّهي
يا مَنْ نعى تلك الفضائل والعُلا
لا لا وحقّك يا شهيد وفائه
ما أنت بالرجل الذي يُمسي وقد
إنّي أراك ولا تزال كعهدها
ثابر على تلك العزائم ذائداً
أصير صحائفك التي تُحيي بها
تجري بها الأنهار وهي دوافقُ
وتكاد أسطرها تهبُّ نواطقاً
فإذا حنوت على الجمي متحبّباً
وكأنما الألفاظ مما خففت
تُستام من أثوابها أرواحها
قم للخطابة في المجامع وامتلك
أعد القديم من الممالك والقرى
شدّد عزائمنا وقاتل ضعفنا
ما هذه الآيات يرمي لفظها
ما ذلك الترصيع ليس مرصّعاً
وحيّ بأهجية إذا ما أطلّقت
تُحيي حرارتها ويهدي نورها
تالله ما أنت الخطيب وإنما
عن نطقه تقعّ الصروف مواعظاً

عالي اللواء حمى المروعة والوفا
أغدّت معالمهنّ قاعاً صفصفاً
ورجائه كذب النعي وأرجفاً
ملئ الوجود به ويصبح قد عفا
بك في جهادك أو أشد وأشعفاً
عن مصر تضرب في البلاد مطوّفاً
نضو الطريق وتدفع المتخلفاً
همماً وتوشك أن تطم فتجرفاً
ويكاد يعزف كلّ حرف معزفاً
فهو النسيم وقد ذكا وتلطّفاً
نقش المداد رسومها وتخفّفاً
وتعاف تحلية لئلا تُكشفاً
تلك النفوس مروّعاً ومشنّفاً
ذكرى وعرفنا الحياة لنعرفاً
حتى نبيت ولا نرى متخوّفاً
شرّاً وتهوي الشهب فيها أحرفاً
ما ذلك التفويف ليس مفوّفاً
هبطت رواسب عنه والمغزى طفاً
متماهل الإشراق أو متخطّفاً
وقّف القضاء من المنصة موقفاً
وكأمره أمر الزمان مصرّفاً

* * *

يا حبذا لو كلّ ذلك لم يزل لكنه حُلْمٌ مضى مستطرّفاً

والآن نحن لدى ثراك نحجُه
نُثني وهل يوفى ثناؤك حقَه
مأذا يُعِيضُك من شبابك نظمنا
ويُعِيضُ منك وكنت جوهرة الجُمى
مُتلهِّبين تشوقًا وتشوفاً
وبأي ألفاظ المحامد يُكتفى
فيك الرثاء منسَّقًا ومصفًا
صوغُ الكلام مرصَّعًا ومُزخرفًا

* * *

يا أخلص الخُلصاء أبكي بُعده
هذا مثالك لآخ يرعانا وقد
جاد الهلال برسمه تاجًا له
يا من رماه عداته بتطرُّف
«كهواك للأوطان فليكن الهوى
يجري على قدر المطالب ناميًا
أنشأت من مصر الشتات بفضله
أحدثت فيها أمة أندى يدًا
عرَّفت أهلها حقيقة قدرهم
نفحات روحك خامرت أرواحهم
حصنٌ أشمُ تساندت أجزاؤه
فارقُد رقادك إن ربَّك قد محا
كبكاءٍ مصر تحرُّقًا وتلهُّفاً
كشف الجوى عنه الحجاب فأشرفا
وكسَّته ناسجة الطهارة مُطرِّفاً
حققت آمال الهدى متطرِّفاً
لا مفتزى فيه ولا متكلِّفاً
ويجلُّ في مجراه عن أن يصدفا
مصر الفتاة حمى يُعزِّ ومألِّفا
للصالحات وبالعظائم أكلِّفا
وكفاهم من قدرهم أن يُعرِّفا
فهمُ مرأىك ساء دهر أو صفا
علمًا وأمنه النُّهى أن يُنسِّفا
بك ذنب مصر كما رجوت وقد عفا

وله في سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ إبراهيم، ضمَّنها وصفًا رائعًا للنهضة القومية التي كوَّنت حافظًا، وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن آمالها وآلامها، وكيف أن هذه النهضة هي غرس مصطفى كامل، وكيف تعهدها بجهاده إلى أن مات، وبموته كانت الآية التي تم بها استقرارها، قال فيها:

طرأت حالةٌ تيقِّظ فيها
فإذا «حافظ» وقد بثَّ ما في
لدعاة الهدى ضميرُ السواد^١
نفسه من تجهُّم واربداٍ

^١ يريد الجمهور.

وبدا للمنى الجلائل فيها
ما تجلّى نبوغه كتجلّي
يوم نادى الفتى العظيم قلبى
وورى^٢ ذلك الشعور الذي كا
فتأتى بعد القنوط الدجّوج
مسّ منه السواد فانبجست نا
أكبر الدهر وثبة وثبتتها
وثغاء^٥ غدا هزيمًا^٦ فألقى
ما الذي أخرج الشجاعة من حي
وجلا غرة الصلاح فلاح
فإذا أمة أبية ضيم
نهضت فجأة تُنافح في آ
أجنبياً ألقى المراسي حتى
وهواناً كأنما طبع الشع
حلبة يُعذر المقصّر فيها
ليس تغيير ما بقوم يسيراً
غير أن الإيمان كان حليفاً
فاستعانوا به على ما ابتغوه

أفقّ واسع المدى لارتياح
ه وقد هبّ «مصطفى» للجها
من نبا^٢ قبله بصوت المُنادي
ن كميناً كالنار تحت الرماد
سي^٣ رجاءً للشاعر المجو
ر ونور من طيّ ذاك السواد
مصر مفتكة من الاصفا
رُعبه في مَرابض الأسار
ث طوتها قرون الاستبداد
تزدهي من غياهب الإفساد
ما لها غير حقها من عتاد
ن عدوين أسرفا في اللداد
تقلع الراسيات في الأطواد
ب عليه تقادم الإخلاد
والخواتيم رهن تلك المبادي
كيف ما عودوه من آماد
لقلوب الطليعة الأنجاد
غير باغين من بعيد المراد

إلى أن قال:

بعد وثب في إثر وثبٍ عنيف وارتداد في الشوط غبّ ارتداد

^٢ نبا: تجافى وتباعد.

^٣ ورى الزند: خرجت ناره.

^٤ المظلم.

^٥ الثغاء: صوت الشاة والمعز.

^٦ الهزيم، صوت الرعد.

ساور الأمة التردد والتأ
لا تسأل يومذاك عن جلد القا
كلما ازدادت الصعاب أبوا إلا
يبذلون القوى وفوق القوى غي
و«الزعيم الأبر» أطيبهم نف
هل يُنجي شعباً من اليأس إلا
مصطفى مصطفى بحسبك إن يُد
مصطفى مصطفى ليهنئك أن أح
دب فيهم روحٌ جديد له ما
تنقضي الحادثات بعدك والرؤ
كاد يومٌ شيعت فيه يريهم
صدروا عنه بالتعارف فيما
واستشفوا لبأسهم فيه سرّاً
هذه مصر الفتية هبت
رجلٌ مات مُخلفاً منه جيلاً
عهد نور من الحفاظ ونار
تخذت عبقرية الشعر فيه
أبلغت «حافظاً» من الحظ أوجاً

ث^٧ عليها في السير وجه الرشاد
دة في مُلتقى الخطوب الشداد
كفاحاً وعزمهم في ازدياد
ر مُبالين أنها لنفاد
ساً عن النفس في صراع العوادي
حدث من خوارق المُعتاد
كر فداءً أن كنت أول فادي
ييت قومًا بذاك الاستشهاد
بعده في القلوب والأخلاق^٨
ح مقيم فيهم على الآباد
لمحة من جلال يوم المعاد
بينهم وهو قوة الأعداد
كم تحامى أن يُدركوه الأعادي
في صفوف فتية للذيات
رابط الجأش غير سهل المقاد
بعد طول الخمود والإخماد
سُلماً للعروج والإصعاد
زاد منه العلياء كل مراد

إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل

وله في سنة ١٩٤٠ قصيدة عن مصطفى كامل نظمها لمناسبة إزاحة الستار عن تمثاله
بعد أن ظل حبيساً في «مدرسة مصطفى كامل» من سنة ١٩١٤، قال:

أمنوا بموتك صولة الرئبال ماذا خشوا من فتنة التمثال؟

^٧ التأت عليه الأمر: اختلط والتبس.

^٨ الأخلاق: العقول.

فاضت أسى ودموعهن غوالي
وجلاء من أوفى بانيها جالي
وتُذادَ عنهم يوم الاستقلال؟
في بدئها ولكل بدء تالي
فيما ادعى صلفاً وجدك عالي
تلقاك بالإكرام والإجلال
من غُرّ فتیانٍ وصيد رجال
في هذه الآساد والأشبال
وسواك يحسبه رجاء مُحال
سرفٌ لمطلوبٍ بعيدٍ نوال

حبسوه عن مُقلٍ إليه مَشوقة
حتى أرادت مصر غير مرادهم
أُتْهيئَ استقلالَ قومك جاهداً
أنصفتَ بعض الشيء بل هي توبة
فلقد تئوب وجدٌ غيرك عاثر
يا حُسنَ عودك والكنانة حرة
أيروك الحشد الذي بك يحتفي
ماذا بثنتَ من الحياة جديدة
بعثَ لموطنك العزيز رجوتُه
خاطرتُ فيه بالشباب وبذله

* * *

شوقي إليك فهن جدُّ طوالٍ
زالوا ولم يشأَ القضاء زوالي
فأحقَّ حيٍّ بالأسى أمثالي
وجب الرثاء فإنما يُرثى لي
وشخصهم ملء الزمان حيالي
وإلى يميني تارة وشمالي
في كل حادثة ولست بألي
يقضي الجمى من حقهم ويوالي
متجدداً بتعاقب الأحوال
يغدو الفراق بها شبيه وصال
لا ينقضي بتحول الأحوال

أي مصطفى! ولت سنون وما اشتفى
عجبٌ بقائي بعد أكرم رفقة
هم صفوة الدنيا وكانوا صفوها
حزنٌ بعيد الغور في قلبي فإن
ماذا أقول وهذه أسماؤهم
تعتادني في مسمعي أو ناظري
إنني لأحفظ عهدهم وأصونه
وكان حسي حسم فرجاً بما
كم في مغارسهم جنى ألفيته
سلوى أتاحتها مآثرهم وقد
وكذاك مجد العبقرية والفدى

* * *

لو كان يتصف امرؤ بكمالٍ
غير المكاره فيه والأهوال
عانيت في الغدوات والأصال
من جهد أيام وسهد ليالي

أي مصطفى ما كنت إلا كاملاً
ماذا لقيت من الصبا ونعيمه
إنني شهدت شهادة العيّنين ما
متطوعاً تسخو بما يُفني القوى

فيمَن أَهَبْتَ بِهِمْ مُجِيبَ سَوَالٍ
زَمَنًا نَمَا مِنْ مُسْعِدٍ وَمُوَالِي
لَكِنْ يَرَوْنَ لَهُ رَفِيفَ الْآلِ
فِي كُلِّ حِلٍّ مِنْكَ أَوْ تَرَحَالٍ
تُلْقِي إِلَى نَظَرِ الْحَبُوطِ بِبَالِي
لَا يَنْتَنِي وَبِلَاءٌ غَيْرِ مُبَالٍ
دَعَاكَ آيَةُ رَبِّكَ الْمَتَعَالِي
مَصْرَ بِعَقْبِي دَائِكَ الْمُغْتَالِي

إِذْ قَمْتُ بِالْأَمْرِ الْجَسَامِ وَلَمْ يَكُنْ
حَالُ التَّوَرَعِ دُونَ إِغْرَاءِ الْمُنَى
وَالْقَوْمِ فِي ظَمَأٍ وَوَعْدِكَ مَطْمَعِ
تَسْعَى وَيَعْتَزُّ السَّبِيلَ قَنُوطَهُمْ
فَتُظَلُّ تَضْرِبُ فِي جَوَانِبِهِ وَمَا
لَكَ دُونَ مَا تَبْغِي مِضَاءَ مَصْمَمِ
حَتَّى إِذَا وَضَحَ الْيَقِينَ وَصَدَّقْتَ
فَثُوبَيْتَ أَظْهَرَ مَا تَكُونُ عَلَى عَدَى

* * *

بِأَشَدِّ مِنْهَا هَزَّةَ الزَّلْزَالِ
أَلْ وَقَدْ رَزَّوْا عَزِيزَ الْآلِ
أَنْ الْحَيَاةَ مَطَالِبَ وَمَعَالِي
لَا يُسْتَطَالُ بِهَا مَدَى الْأَجَالِ
مُتَضَافِرِينَ دَوَامَ تِلْكَ الْحَالِ
بَرَّتَ مِنَ الْأَحْقَادِ وَالْأَوْجَالِ
مُسْتَبْسِلِينَ ضُرُوبَ الْاسْتِبْسَالِ
فِي يَوْمِهِ إِحْسَانِ يَوْمٍ خَالِي
مُتَخَضِّبًا بِدَمِ الشَّبَابِ الْغَالِي
لَا أَنْتَ سَالِيهِ وَلَا هُوَ سَالِي
فِي أَفْقِهِ كَالْكُوكَبِ الْمُتَلَالِي
وَلِزَهْرَهَا الْمُتَأَلِّقَاتِ مَجَالِي
وَإِذَا نَأَتْ عَنْكَ فَتْلِكَ لَآلِي
وَتَجُولُ فِي الْأَفْكَارِ كُلِّ مَجَالِ
بَرْجٍ حَلَلَتْ بِهِ لَغِيرِ زِيَالِ
فَالْحَالُ مُتَّصِلٌ بِالْإِسْتِقْبَالِ
فَرَضْتَ مُحِبَّتَهُ عَلَى الْأَجْيَالِ

هَزَّتْ مَنِيَّتَكَ الْبِلَادُ وَلَمْ تَكُنْ
فَالْقَوْمِ مِنْ جَزَعٍ عَلَيْكَ كَأَنَّهُمْ
كَشَفَ الْأَسَى لَهُمُ الْحَجَابَ فَأَيَّقَنُوا
وَتَبَيَّنُوا أَنَّ الْخَنُوعَ مَهَانَةٌ
لِلَّهِ حُسْنُ بِلَائِهِمْ لَمَّا أَبَوْا
وَتَوَثَّبُوا بِعَزِيمَةٍ مَصْدُوقَةٍ
يَرِدُونَ حَوْضًا وَالْمَنَآيَا دُونَهُ
حَتَّى أُتِيحَ الْفَتْحُ يَجْلُو حُسْنَهُ
فَتَحَّ بِدَا اسْمِكَ وَهُوَ فِي عَنَوَانِهِ
إِيَّاهُ شَدِيدُ الْحُبِّ لِلْبَلَدِ الَّذِي
أَبْهَجَ بِأَوْبَتِكَ السَّنِيَّةِ طَالِعًا
لِلذِّكْرِ أَفَاقَ سَحِيْقَاتِ الْمَدَى
فَإِذَا دَنَتْ مِنْكَ فَتْلِكَ عَوَالِمِ
تَطْوِي مِنَ الْأَدْهَارِ مَا لَا يَنْقُضِي
أَنْوَارَ وَجْهِكَ طَالَعَتْنَا الْيَوْمَ مِنْ
قَدْ أَثْبَتَتْهَا مِصْرَ بَيْنَ عَيُونِهَا
نَعَمُ الثَّوَابِ لَذِي مَآثِرٍ فِي الْفَدَى

* * *

فَتَيَانِ مِصرَ وَعَهدَها غَيرَ الَّذي
حَيُّوا مُدِيلَ حَياتِها مِن يَأسِها
حَيُّوا زَعيمَ اليَقِظَةِ الأولى بِها
هَذي مَواكِبِها وتَلكَ وفودِها
حَفَلتَ بِرمزَ نَهِوضِها ومِثالِها
لَكنَها مُهَجُّ بَنَتَها ولم تَكنْ
وكَفاهَ فَخراً أَنَّ ذاكَ المَمالَ لَم
رَسمٌ يَلوَحُ وفيه مَعنَى أَصلِها
لأنَ الحَديدَ لَها فَصاغَ لَعيَينَها
كَم في بَليغِ سَكوتهِ مِن عِبرَةٍ
هو خالِدٌ وَيَظلُ مِدرَةَ قَومِها

عائَتَها في الأَصْفادِ والأَغلالِ
وَمُذَلَّلِ الأَلامِ لِلأَمالِ
وخطيبِ ثورتِها في الاستِهلالِ
في مُلتَقَى ذي رَوعَةٍ وجَمالِ
ما لا تُداني صَنعَةُ المِثالِ
إِلا ذرائِعُها فَضولُ المَمالِ
يَكُ مَكسٌ جابٍ أو تَطوُّلُ والي
فيروَعُ بَينَ حَقيقَةٍ وخِيالِ
أثراً على الأَيامِ لَيسَ بِبالي
أوفى وأَكفى مِن فَصيحِ مَقالِ
في كُلِّ نازِلَةٍ وكُلِّ نِضالِ

تحيته للمجاهدين في المؤتمر الوطني ببروكسل سنة ١٩١٠

ونظم في سنة ١٩١٠ قصيدةً ناجى فيها الوطنيين الأحرار الذين اغتربوا عن مصر لحضور المؤتمر الوطني الذي عُقد برئاسة المرحوم محمد فريد بمدينة بروكسل في سبتمبر سنة ١٩١٠، وقال:

أُتِراهُ فَوَوقَ مَناكِبِ الأَدهارِ
حَقَبٌ دَجَتَ مِنها السُّفوحُ ولم يَزَلْ
يا مَغربَ المَاضِي أَمّا مِن آيَةٍ
هَذا صَباحٌ مُقْبِلٌ مِن غَيبِها
تَجدُ العَيونُ على نَواصِي أَفقِها

شَفَقٌ تَخَلَّفَ عَن بَديعِ نَهارٍ^٩
فَوَوقَ الذَرى مِنها بَريقُ نِصارٍ^{١٠}
فَتَعودُ في سَحَرٍ مِنَ الأَسحارِ؟
فَتَبَيَّنُوهُ يا أُولي الأَبصارِ
ضَوءاً تالَّقَ مِن وِراءِ سِطارِ

^٩ يُشير إلى ذكرى المجد القديم وأنها باقية على الدهر ويُعبّر عنها بالشفق؛ أي النور المتخلف عن الشمس بعد غروبها.

^{١٠} الحقب: السنون. ودجا: أظلم. والذرى: جمع ذرة؛ أعلى الشئ. والنصار: الذهب. أي أن عهود التأخر قد تركت ظلاماً مُخيماً على البلاد، ومع ذلك لا يزال فوق الذرى نور الشمس التي غربت.

سَحَرَ الرجاء بدا لكم وإزاءه شفق البقية من علٍّ وفخارٍ^{١١}
 شَقَّانَ من حَلِيٍّ أغرَّ تصوغه تاجًا لمصر أناملُ المقدارِ^{١٢}
 تاجٌ ستلبسه الفتاة مخلَّفًا عن أمها في سالفِ الأعصارِ
 ويكون من آياته وشُعاعه آيات مَجْد رجالها الأخيارِ

* * *

نُجَبَاءَ مصر الواترين لعِزها وجلالها من ذلة وصغارِ^{١٣}
 حُوضوا غمار الضيم دون رجائكم لا فوز إلا بعد خوضِ غمارِ
 ما شاء سعدُ الدار أن تشقُّوا له فاشقُّوا له ما شاء سعدُ الدارِ
 إن شقَّ ترحالُ فهذي هجرةٌ لا شُقةٌ^{١٤} في مثلها فبدارِ
 سَـيروا تتموا في الحياة فطالما كان التقاعس مُؤذِنًا ببوارِ
 ما اللُّجُ وادَّع أو تشاكس حارنًا إلا ذلول الراكب الكَرَّارِ^{١٥}
 ما البَر أنجد أو أغار بِجائب إلا سليب خُطى ونهبُ قطارِ^{١٦}

* * *

ركبَ النجاة استطلِّعوا لبلادكم في الغرب كلَّ مطالعِ الأنوارِ
 هُزُوا منابره بعالي صوتكم حتى يرنَّ صداه في الأقطارِ
 أنتم جنود السِّلْم رُسل جهاده أنتم أشعة مصر في الأمصارِ
 أنتم أشعة حزمها شفافَةٌ عن حزنها والنورُ بثُّ النارِ
 ترجون أن تحيوا وتحيا مصركم حق الحياة وما بها من عارِ
 لا تسأمون تغربًا في مُبتغى أسمى الهنات وأشرفَ الأوطارِ

^{١١} أي ينجلي فجر الأمل وأمامه الذكرى الساطعة للمجد القديم.

^{١٢} الحَلِي، وجمعه حُلِي: ما يصنع من مصوغ المعدنيات، أو الحجارة الكريمة. والمقدار هو القدر، يريد أن

مجد الماضي والمجد المأمول للمستقبل يتقابلان كشقي تاج لمصر.

^{١٣} يُخاطب ركب المؤتمر وأعضائه، ويصفهم بأنهم ناهبون ليثأروا لمصر مما أصابها من ذلة وضميم.

^{١٤} الشُّقة: السفر البعيد.

^{١٥} لج البحر أمواجه: أي ليس البحر إن سهل أو صعب إلا كالركوبة الذلول للفارس الذي يروضها.

^{١٦} الجائب: المسافر.

* * *

«الحُكم شورى لا تفرّد صالحُ	في غير حُكم الواحدِ القهارِ»
لا تسترقُ عشيرةً وديارُها	لعشيرة غلابةً وديارِ
العدل إن يُقصد فليس بكائن	في نُكر معرفة وغصبِ جوارِ
الرأي تكمد شمسُه في موطن	متناقضِ الإعلانِ والإسرارِ
الخير تُفقد سُبله في مجمع	متعارضِ الإقبالِ والإدبارِ

* * *

ماذا عليكم أن تكون شعاركم	هذي المطالبُ وهي خيرُ شعارِ
لستم بسفاكي دمٍ لستم إلى	غير الحقيقة طامحي الأنظارِ
لستم غلاةً والأقل مرامكم	بين الشعوب السُّبُق الأحرارِ
لستم غلاةً خال ذلك منكم	من لم يخلكم من ذوي الأخطارِ ^{١٧}
ليس الذي تبغونه من مطلب	إلا أحقَّ مطالبِ الأحرارِ
من لم يخل في مصر عبدًا شاكيًا	في فترة التفكير والإضممارِ
أجزعُ بسارٍ آمنٍ في معهد	وثبت عليه فجأةُ التَّزَّارِ ^{١٨}

* * *

إني ليعجبني كبيرُ مرامكم	وهو التحقيق بغاية الإكبارِ
وأقول للمُزري بسنِّ صغاركم	ليس العظيم نفوسُهم بصغارِ
«أمهاجري أرض الكنانة إنكم	وجميعٌ من فيها من الأنصارِ» ^{١٩}
امضوا دعاةً للهدى واستنصِفوا	بالحق للبلد العزيز الجارِ
كونوا الشهود له على أعدائه	برجوعِ شمسِ نهاره المُتواري

^{١٧} أي لستم غلاة كما توهم ذلك من ظن أنكم لستم من ذوي الكفايات والأقدار.

^{١٨} أجزع: أي ما أشد جزعًا. والفجأة: مصدر فجأه. والتزَّار: زئير الأسد. يريد أن الإنجليز فوجئوا بالحركة الوطنية في ذلك العهد، كما يفاجأ الساري بزئير الأسد.

^{١٩} يُسمي أعضاء المؤتمر المهاجرين، وسكان مصر الأنصار، تشبيهاً لهم بالمهاجرين والأنصار في صدر الإسلام.

الثبات في الكفاح

وقال لما زاد اضطهاد الحكومة للأحرار وسلَّطت قانون المطبوعات على الصحف:

شَرَّدُوا أختيارها بحرًا وبرًا	واقْتَلُوا أحرارها حرًّا فحرًّا
إنما الصالح يبقى صالحًا	آخر الدهر ويبقى الشر شرًّا
كَسَّرُوا الأقلام هل تكسيرها	يمنع الأيدي أن تنقش صخرًا؟
قَطَّعُوا الأيدي هل تقطيعها	يمنع الأقدام أن تركب بحرًا؟
حَطَّمُوا الأقدام هل تحطيمها	يمنع الأعين أن تنظر شزرا
أَطْفَأُوا الأعين هل إطفأؤها	يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا؟
أَحْمَدُوا الأنفاس هذا جهدكم	وبه مَنجاتنا منكم فشكرا!

وقال في هذا المعنى حين توعَّدته الحكومة بالنفي من مصر على أثر نشره الأبيات السابقة:

أنا لا أخاف ولا أُرَجِّي	فرسي مؤهَّبة وسرجي
فإذا نبا بي متنُّ بر	فالمطية بطنُ لُج
لا قول غير الحق لي	قولُ وهذا النهج نهجي
الوعد والإيعاد ما كانا	لديَّ طريق فلج ^{٢٠}

يُحيي رأس السنة الهجرية

ونظم سنة ١٩١١ قصيدة عصماء حيًّا بها العام الهجري ١٣٢٩، خاطب فيها شباب مصر ودعاهم إلى الاعتبار بما في هجرة الرسول الكريم من المعاني الجليلة، والأغراض السامية، وأهاب بهم أن يُضَاعِفُوا جهودهم لبعث الحياة في مصر والشرق، قال:

هَلَّ الهلال فحيُّوا طالع العيد حيُّوا البشير بتحقيق المواعيد

^{٢٠} الفلج: الظفر.

يا أيها الرمز تستجلي العقول به
كأن حُسنك هذا وهو رائعنا
«لله في الخلق آياتٌ وأعجبُها
لحكمة الله معنًى غيرَ محدودٍ
حُسنٌ لبكرٍ من الأقمار مولودٍ
تجديدٌ روعتها في كل تجديدٍ»

* * *

فتيانَ مصر وما أدعو بدعوتكم
سوى الأهلّة من علمٍ ومن أدبٍ
المُستسرّ شعار المقتدين به
ما زال من مبدأ الدنيا يُنبئنا
فإن تسيروا إلى الغايات سيرته
سوى مُجيبين أحرارًا مناجيد^{٢١}
مؤمّلين لفضلٍ غيرٍ محدودٍ
العاملين بمغزًى منه مقصود^{٢٢}
أن التمام بمسعاةٍ ومجهودٍ
إلى الكمال فقد فُزتم بمنشودٍ

* * *

يا عيدُ جنّتَ على وعدٍ تُعيد لنا
بل كنتَ «عيدين» في التقريب بينهما
رُددتَ يومًا يُسرّ المؤمنون به
أولى حوادثك الأولى بتأبيدٍ
معنًى لطيفٌ يُنافي كلّ تبعيدٍ
ولم تكن بادئًا يومًا لتعييدٍ

* * *

رسالةُ الله لا تُنهى بلا نصبٍ
رسالةُ الله لو حلّت على جبلٍ
ولو تحمّلها بحرٌ لشبّ لظًى
فليس بدعًا إذا ناء الصّفي بها
ينوي الترحّل عن أهلٍ وعن وطنٍ
يكاد يمكث لولا أن تداركه
يُشقي الأمينَ وتغريبٍ وتنكيدٍ
لاندكّ منها وأضحى بطنُ أخدودٍ
وجفّ وانهاه فيه كلّ جُلمودٍ
وبات في ألمٍ منها وتسهيّدٍ
وفي جوانحه أحزانٌ مكبودٍ
أمرُ الإله لأمرٍ منه موعودٍ

* * *

فإذ غلا القوم في إيذائه خطلاً
وشرّدوا تابعيه كلّ تشريدٍ

^{٢١} المناجيد: الشجعان السباقون إلى النجدة.

^{٢٢} المستسر: المستتر؛ أي القمر الذي لم يبدُ في مطلة إلا أقله.

دعا الموالين إزماعاً لهجرته
مضى هو البدء والصديقُ يصحبه
مولئياً وجهه شطر «المدينة» في
حتى إذا اتخذ الغار الأمينُ جمى
حماه وشي بباب الغار مُنسدِل
يا للعقيدة والصديقُ في سهر
«إن العقيدة إن صحت وزلزلها
أما أصحاب الذين استأخروا فتلوا
ما جند قيصر أو كسرى إذا افتخروا
كانهم في الدجى والنجم شاهدهم
كانهم وضياءُ الصبح كاشفهم
في حيلة الله ما شعت أسنتهم

فلم يُجبه سوى الرهط الصناديد
يُغامر الحزن في تيهاء صيخود^{٢٣}
ليل أغرَّ على الأدهار مشهود
ونام بين صفاه نوم مجهود
من الألى هدَّوه شرَّ تهديد^{٢٤}
تؤذيه أفعى ويبكي غير منجود
مُفني القرى فهى حصنٌ غير مهدود
سارين في كل مَسرى غير مرصود
كهؤلاء الأعداء المطاريذ^{٢٥}
فرسان رؤيا لشأنٍ غير معهود
آمالٌ خير سرت في مهجة البید
فوق الظلال على المهرية القود

* * *

عانى «محمد» ما عانى بهجرته
وكم غزاةً وكم حربٍ تجشَّمها
«كذا الحياة جهادٌ والجهاد على
أدنى الكفاح كفاحُ المرء عن سَفِه
ليغنم العيش طلقاً كل مُقتَحَم
ومن عدا الأجل المحتوم مطلبُه

لمأرب في سبيل الله محمود
حتى يعود بتمكين وتأييد
قدر الحياة ومَن فادى بها فُودي
للاحتفاظ بعمرٍ رهنٍ تحديد
وليبغ في الأرض شقاً كل رعديد
عدا الفناء بذكرٍ غير ملحود

* * *

لقد علمتم وما مثلي يُنبئكم
ما أثمرت هجرة الهادي لأمته

لكن صوتي فيكم صوتُ ترديد
من صالحاتٍ أعدتها لتخليد

^{٢٣} التيهاء: أرض يتيه فيها السالك. وصيخود: شديد الحر.

^{٢٤} إشارة إلى ما نسج العنكبوت ببابه فضل المتعقبين للرسول.

^{٢٥} المطاريذ: فرسان الطراد في الحرب.

وسَوَّدَتْهَا على الدنيا بأجمعها
بدا وللشُّرك أشْيَاعٌ تُوطِّده
والجاهليون لا يَرْضَوْنَ خالقهم
مؤلَّهون عليهم من صناعتهم
مستكبرون أباة الضَّيم غُرَجَّى
لا ينزل الرأي منهم في تفرُّقهم
ولا يضمُّ دعاءً من أوابدهم
ولا يُطيقون حُكمًا غير ما عقدوا

طوال ما خلُقت^{٢٦} فيها بتسويد
في كلِّ مَسْرَحٍ بادٍ كلَّ توطيدٍ
إلا كعبدٍ لهم في شكلٍ معبودٍ
بعضُ المعادن أو بعضُ الجلاميدِ^{٢٧}
ثقالُ بطِشٍ لدان كالأماليدي^{٢٨}
إلا منازلٌ تشتيت وتبديد
إلا كما صيَّح في عُفرِ عباديدٍ
لذي لواء على الأهواء معقودٍ

* * *

بأيِّ حلمٍ مُبِيد الجهل عن ثقة
أعاد ذاك الفتى الأميُّ أُمَّته
لَتلك تاليةُ الفرقان في عَجَبٍ
صعبان راضَهما؛ توحيد معشرهم
وزاد في الأرض تمهيدًا لدعوته
وبدئه الحُكم بالشورى يتمُّ به
هذا هو الحق والإجماع أيَّده

وأيَّ عزمٍ مُذِل القادة الصَّيدِ
شملاً جميعاً من الغرِّ الأماجيدِ
بل آية الحق إذ يُبغى بتأكيدٍ
وأخذهم بعد إشراكٍ بتوحيدٍ
بعهده للمسيحيين واليهودِ
ما شاءه الله عن عدل وعن جودٍ
فمن يُفَنِّده أولى بتفنيدي

* * *

أيُّ مُسلمي «مصر» إن الجِد دينكم
طال التقاعس والأعوام عاجلة
هُبُّوا إلى عمل يُجدي البلاد فما
سعيًا وحزمًا فودَّ العدل ودُّكم
تعلموا كلَّ علم وانبغوا وخذوا

وبئس ما قيل: شعبٌ غيرُ مجدودٍ
والعام ليس إذا ولَّى بمردودٍ
يُفيدها قائل: يا أُمَّتي سُودي
وإن رأى العدل قومٌ غيرَ مودودٍ
بكلِّ خُلُقٍ نبيه أخذ تشديدٍ

^{٢٦} خلقت: استحقت.

^{٢٧} الجلاميد: الصخور.

^{٢٨} لدان: جمع لدن، وهو اللين.

فكُّوا العقول من التصفيد^{٢٩} تنطلقوا وما تُبالون أقدامًا بتصفيدٍ

* * *

«مصر» الفؤاد فإن تُدرِك سلامتها فالشرق ليس وقد صَحَّت بمفئود^{٣٠} سوى المتاع بما يُضني وما يُودي
والشرق نصف من الدنيا بلا عمل والغرب يرقى وما بالشرق من همَم
تشكو الحضارة من جسمٍ أشلَّ به شطرٌ يُعد وشطرٌ غيرٌ معدودٍ

* * *

أبناء «مصر» عليكم واجبٌ جَلَلٌ فليرجع الشرق مرفوعُ المقام بكم
ولتُزه «مصر» بكم مرفوعةُ الجيدِ حقيقة الفعل والذكرى بتمجيدِ
ما أجمل الدهر إذ يأتي وأربُعنا والشرق والغرب معوانان قد خلاصا
من حاسدٍ كائد كيدًا لمحسودِ صنوان برَّان في علم وفي عمل
حُران من كلِّ تقييد وتعبيدٍ لا فعلٌ يُخطئ فيه الخيرُ بعضُهما
إلا تداركه الثاني بتسديدٍ ولا خصومة إلا في استباقهما
لما يعمُ بنفعٍ كلِّ موجودٍ هذى الثمار التي يرجو الأنام لها
من روضكم كلَّ نامٍ ناضرٍ العودِ لمصر والشرق بل للخافقين معًا
دع زعمَ كلِّ عدوِّ الحق مرَّيد^{٣١}

* * *

جُوزوا على بركات الله عامكم جُوزوا على بركات الله عامكم
يُنفي بحسنى ولا يُوْهى بتهديدٍ رجاؤكم أبدًا ملءُ النفوس فما
بشرى التمام لوقتٍ غير ممدودٍ بدا الفلاح وفي هذا الهلال لكم
بخاتم النور زلَّت الدُّجى السود غداً نرى البدر في طَرسِ السماء محاً

^{٢٩} التصفيد: التقييد.

^{٣٠} المفئود: المصاب فؤاده.

^{٣١} مرَّيد: الخبيث.

يُحيي بعثة الأطباء إلى حرب طرابلس

وقال سنة ١٩١١ يُحيي بعثة الأطباء المصريين الذين ارتحلوا إلى ليبيا لمعاونة المجاهدين العرب الذين قاوموا العدوان الإيطالي:

أجر الجهاد وأجر البر بالناس
صدع الرصاص وجرح الصارم القاسي
غول الردى بين أنياب وأضراس
ترى العيون غياضاً فوق أفراس
ندى الجفاف وتخبو شعله الباس
وإن هم استوحشوا إخوانَ إيناس
ودافعوا الموت عنهم دفع أكياس^{٣٢}
منا وآلامهم في كل إحساس
والخلق يذكرها ترديد أنفاس
بها مراتب فوق الضيم والياس
ما قد تلاقون من ضر ومن باس
وفي اعتكار الدياجي خير نبراس
لبلساً لجراح القلب والراس
صرعى مطامع قواد وسواس
لصور الملك الإنسي في آس^{٣٤}

سيروا على بركات الله واغتنموا
ليشف مبضعكم والرفق يُعمله
لهفي على شوس^{٣٢} أبطال تلوكهم
كانوا وقد ركبوا للحرب أبهج ما
واليوم قد عثروا تندى نضارتهم
كونوا لهم إن شكوا إخوان تأسية
ردوا على الوطن الباكي أعزته
فإن أسقامهم في كل جارحة
لله مسعاتكم والحق يشكرها
مبرة طهرت أرواحكم وسمت
خوضوا المصاعب لا يلّم بأنفسكم
هذا الهلال لكم رآد النهار هدى
وإن في ظله النادي برحمته
أي عصبة الخير داؤوا أبرياء هؤوا
لو صور الله في جسم امرئ ملكاً

عتب وطني

وقال سنة ١٩٢٠ يعتب على أحرار مصر في موقف تردد:
إن تكونوا حُماتها وبنيتها ما لتلك الذئاب تعتس فيها؟^{٣٥}

^{٣٢} شوس: جمع أشوس، وهو الشجاع الجريء.

^{٣٣} أكياس: جمع كيس، وهو الفطن الذي يُحسن الفهم.

^{٣٤} آس: أي مُداوٍ للجروح.

^{٣٥} تعتس: تطرق ليلاً.

أفترضون أن تهون عتيدياً بعد ذاك الإباء في ماضيها؟
«تلك أوطانكم تُباع عليكم صفقة بخسة فمن مُشترِها؟»

رثاؤه لمحمد فريد

ونظم قصيدة رائعة في رثاء الزعيم الشهيد محمد فريد سنة ١٩١٩، قال:

أفريدُ لا تبعد على الأدهار أنت الشهيد الخالدُ التذكارِ
بالأهل بالدم بالرفاهة بالغنى فدَّيت مصر وفُدَّيت من دارِ
حرَّرتَ نفسك دائبَ المسعى إلى تحريرها لتعزَّ بعد صغارِ
مسترسلاً والدهر في إقباله مستبسلاً والدهر في الإبدارِ
ثبَّتاً إذا ما الراسخون تقلقلوا مُتوافِق الإعلان والإسارِ
فبرَّرتَ بالعهد الذي عاهدته ووفَّيت في الإيسار والإعسارِ
ما كان ذاك العمر إلا قُرْبَةً موصولةً الأصل بالأسحارِ
ومن المُنَى ما ليس يُوفى حقه حتى يكون الجُود بالأعمارِ

فريد ومصطفى:

إنني لأذكُر مصطفى ورفيقه في مستهلِّهما وفي الإبدارِ
متوَحِّياً إعتاق مصر كلاهما وكلاهما يسعى الغداةً مذللَّاً
وكان مصر حيالَ كلِّ مخاطِر إذ ذاك في شغل عن الأخطارِ
في قلبها حب الحياة طليقة لكنها تخشى أذى الإظهارِ
وضميرها أنا فأنا يُجتلى فيرى كما اقتدح الزناد الواري
عرفا حقيقتها وبثاً بثها ثقة وما كانا من الأيسارِ
لم يلبثا مُتأزَّرين بنية مصدوقة في خفية وجهارِ
حتى إذا ما أيقظا إيمانها فذكا ذكاء النور قبل النارِ
أبدت أساها يومَ فارَق مصطفى هذا الجوار ورام خيرَ جوارِ

فريد رئيسًا للحزب الوطني:

بالأنزَه الأوفى من الأنصارِ
وسبقتَ مَنْ جارك في المضمارِ
واستسقى صوبَ العارضِ المدرارِ
أو رفعةً فاظفرَ بالاستيزارِ
يتحملون غرائبَ الأعذارِ
ما أَمُنْ مُقتعدٍ متونَ بحارِ
قد تستفيق ولات حين حذارِ
كُوفيتَ من عُرِف بالاستنكارِ
وتذوق كلَّ مرارةِ الإقتارِ
وإن ابتليت بشقوة وضرارِ
لك أن تُلبي داعيَ الإخفارِ
بالمنصب المُزجى أو الدينارِ
عند الوفاء وفوق الاستئثارِ
ورسوخ إيمان بالاستمرارِ
يرنو إليك بمُقلّة الغدارِ
والبغي جنّاء على الأطهارِ
عُدّت فضائله من الأوزارِ

ذهب الرئيس فنيطاً عبء مقامه
أفريد هذا الشأو قد أدركته
فتقاض أضعافَ الذي قدّمته
إن تلتمس جاهًا أصب ما تشتهي
والشرق يقبل قد علمت من الألى
الشعب شبه البحر لا تأمن له
فغدًا ويا حذرًا لمثلك من غد
يسلو الألى عبدوك أمس وربما
فتبيت صفر يد وكنت مليئها
لكن أبيت العرض إلا سالمًا
لم تعتقد إلا الولاء وقد أبى
وسموتَ عن أن يستملك خادع
«فظللت مبدؤك القويم كعهده
تزداد صدق عزيمة بمراسه
ما إن تبالي ساهرًا مترصّدًا
يجني عليك لغير ذنب باغيًا
من كان جارُ السوء يومًا جاره

فريد في السجن:

إن السجون مَعاهدُ الأحرارِ
أن اعتقالك مُطلقُ الأفكارِ
نورًا تُضاء به سبيلُ الساري
فيلوح فوق ذراه ضوء منارِ
ونرى هدى في وجهك المتواري
غنيّت عن الأسماع والأبصارِ

قلّ للرئيس إذا مررت بسجنه
«وافيته طوعًا ورأيك ثابت
إن يحجبوك فإن فكرك رافع
كم تحجب الظلمات طودًا شامخًا
إنا لنسمع من سكوتك حكمة
وإذا النفوس تجرّدت لمرامها

علم بأن التّم بعد سِرارٍ
لزموا التفرد عن رُضًا وخيارٍ
شظفي المَعايش لابسي الأطمارِ
لقيام دعوتهم على الأخطارِ
بعثوا الهدى كالشمس في الإزهارِ
كَلِم المهيمن في اصطعاق النارِ
يسمو به راقٍ من الأنوارِ
في الغار عن صرعاته في الغارِ
للنفس حرّرها بالاستئسارِ
من أن تُمحّصهم يدُ المقدارِ

حاشاك أن تأسى وهل تأسى على
الأنبياء انتابهم زمنٌ به
لجئوا إلى الخلوات واحتبسوا بها
مُستجمعين مُروّضين قلوبهم
ومن الغيابات التي أمسوا بها
سَل مُوحِشًا في طور سينا سامعًا
سَل طيف جلجلة يكاد من الطوى
سَل خاليًا بحرًا يُلبّي ربه
بالعزلة اكتملوا ورُب مُروّض
لا شيء أبلغ بالدعاة إلى المُنَى

فريد في طريق المنفى:

ما فوق غلّ الجيد والإحصارِ
أعلى وأعلى صفقة للشاري»
شرفًا إلى سجن بغير جدارِ
إلا ليُدركه القضاء الجاري
إحدى المَدائن سُيرت ببخارِ
دامي الفؤاد وشيك الاستعبارِ
والزاحفات أمانةُ الأجحارِ
ما فيه من غُصص ومن أكرارِ
لشفاء مَسغبة به وأوارِ
أعطافها بالأزرق الزخارِ
أنس الحمى وجماله السحارِ
من طيب تلك الجنة المعطارِ
لغة الأنيس إلى لغى الأطيارِ
سيهيم في الدنيا بغير قرارِ
في قومه ويزور كلّ مزارِ

لم يكفه ما كان حتى جاءه
«النفى بعد السجن تلك عقوبة
يسمو بها السجن القريب جداره
لا يترك الجاري عليه حكمه
أيّ السفائن تستقل كأنها
ينأى بها عن أهله ورفاقه
ينبو ذرا البلد الأمين بمثله
متلفتًا حين الوداع وفي الحشى
متشبهًا مترويًا مما يرى
يرنو إلى صُفر الشواطئ مُنطقت
ويذوب قبل البين من شوق إلى
يستاف ما تأتي الصبا بفضوله
وبسمعه لحن المواطن جامعا
لهفي عليه مشردًا قبل الردى
من أجل مصر يؤم كلّ مُيمّم

لا يومَ يسكن فيه من وثبَ ومَن
في غربةٍ موصولةٍ ألامُها
تنتابه الصدمات لا يشكو لها
ثقة بأن الفوز ليس لجازع
وتعضه الفاقات لا يلوي بها
حرصاً على المتطولين بفضلهم
بسكينةٍ للكوكب السيَّار؟
أنضته في الرحلات والأسفار
إلا شكاة المحرَّب الكرارِ
في العالمين، الفوزُ للصبارِ
عزاً ويسترها بسترٍ وقارِ
أن يجنحوا وجلاً إلى الإقصارِ

فريد في مرضه:

ما كان هذا الحد حد عذابه
صال الشقاء على فريد صولة
قصرت ليالیه على مجهوده
ما بال ذاك الوجه بعد تورُّد
ما بال ذاك الوجه بات من الضنى
ما بال ذاك العزم بعد مضائه
ما بال ذاك القلب بعد خفوقه
أمسى يُعالج سكرة في نزعه
ولو استطاع لما أضاع دقيقة
وفى بما أعطاه حق بلاده
أمكانه هذا أهلك حليُّه
أكذاك يختم في الشقاء حياته
ماذا تفني من حقه بعد الذي
إن الذي يبلوه شاري قومه

تُردي الأسودَ ضرورةَ الأخدارِ
بين الجوانح أنذرت ببوارِ
واليوم عُدن عليه غيرَ قصارِ
خلع النضارة واكتسى ببهارِ؟
كالرسم في جرفٍ به منهاجِ؟
عثرت به العللات كلَّ عثارِ؟
تنتابه هداًتُ الاستقرارِ؟
من لم يذُق في العمر طعمَ عقارِ
يمضي الزمان بها مُضيَّ خسارِ
والموهبات تُرد رَدَّ عواري
والبيت خالٍ والمُقلد عاري؟
من كان جمَّ الجاه والإيسارِ؟
عاناه كلُّ قلائد الأشعارِ؟
غير الذي نتلوه في الأسطارِ

عظة وفاته:

مات الرئيس فراغَ مصرَ وأهلها
مات العصاميُّ العظاميُّ الذي
ذاك النعيُّ وذاع في الأمصارِ
ما كان بالعاتي ولا الجبارِ

تحية الختام:

أفريد هذا ما يُهيئُه الفدى
نَم إن مصرًا عنك راضية وفُز
لِعشيرةٍ فدَيْتَها وديارٍ
أُنست فيك مشيئةً للباري
أوشكُتُ أجزعُ فانتهيتُ بأنني

تحية الشهداء

قال في حفلةٍ أُقيمت سنة ١٩٢٤ لتحية أرواح شهداء الحركة الوطنية:

إلى أرواح الشهداء

تحيةً أيها القتلى وتسليماً
«لا يعبد المرء ربًّا لا ولا وطنًا
قُلْتُم وصدَّق ما قلْتُم تحمُّلُكم
ما الموت إن كان إنقاذ البلاد به
يُحطِّمُ العظمُ منكم دون بُغيتكم
برًّا بـ «مصر» وخوفًا أن يُسلِّمها
ليس الشهادة إلا من يموت على
امضوا رفاقًا كرامًا حسبكم عوضًا
للمُشتري بصباهُ عز أُمته
وللتي استبدلت بالقبر مرَّتها
لا تحسبوا مصر تنساكم فكلُّكم
وفي المربع من أرواحكم نسَمٌ

بلغتم الشأوَ تخليدًا وتعظيمًا
بمثل إغلائه القُربان تقديمًا
أدَّى يردُّ فرندَ الصبر مثلوما^{٣٦}
من غاصبٍ وانتصافُ الشعب مظلومًا
فتصبرون ويأبى العزم تحطيمًا
إلى العدى واهنو الإيمان تسليماً
حق ومن لا يُبالي فيه ما سِما
مجدُّ عزيز على الخُطاب إن رِما
زُكُرٌ يُديم اسمه بالتَّبَر مرقوما
قَسَطُ من الفخر فوق العمر تقويمًا
يبقى على الدهر مرثومًا ومرحوما
تظلُّ تأتي بها الأرواح تنسيمًا

^{٣٦} الفرند: حد السيف.

تحية للذين أُطلقوا من الاعتقال

وقال في هذه القصيدة مخاطبًا من أُفْرِج عنهم من الاعتقال:

يا خارجين كرامًا من محابسهم كم كُجِّلَ الحق بالأصفاد من قَدَم يا سوءَ دهرٍ قَضَتَه قبل نهضتها تَهَيَّ قوَى الليث من عَيْثِ الذئاب بها فاليومَ عادَ إلى رأيٍ يشرَّفها دلَّت على قوة فيها صلابتكم هل يُجزئُ الشكرَ من ضيمٍ تحمَّله قد أئتموكم وكم من مثله نزلت وبعض ما عاقبوكم فيه جعلكم لا حاكمًا دون ما أوحى ضمائركم	ومُبَهْجِي كُلَّ قلب كان مغموما ثم انطوين وباء البطل مهزوما «مصرُ» خيَّم فيها الذل تخيما ويلتوي الأمر تحليلاً وتحريما مَنْ ظن إقليمها للخفض إقليما تذود عنها الأشداء المقاحيما بالأمس من منكم في رأيهِ ضيما بالأبرياء وبالأبرار تأثيما صدقَ الهوى للحمى دينًا وتعلima تُراقِبون ولا ترعون محكوما
---	---

* * *

لقد ظفرتُم بما أدنى القصيِّ لكم هل استقام زمانٌ لا يقوِّمه أو نال حرية قومٍ بها جدروا	من المرام فليس الفوز مزعوما بنؤه بالصبر والإقدام تقويما؟ وهم يُبالون تقتيلاً وتكليما؟ ^{٣٧}
---	---

* * *

يا سادة كالنجوم الغر منزلةً حمدًا لإقبالكم هذا وحفلتكم من الألى ما ونوا عن واجب فبنوا أولئكم إن بدا من فضلهم أثرٌ فلتحي «مصرُ» وأبرارٌ نُجلُّهم	وسَيِّدات كعقدِ الدُر منظوما تُهنَّئون الصناديد المقاديما لعزُّ «مصرُ» طرافًا ^{٣٨} كان مهدوما فكم لهم من جميل ظلٍّ مكتوما ونحتفي بهم حبا وتكريما
---	---

^{٣٧} التكليم: التجريح.

^{٣٨} الطراف: البيت.

رثاؤه لأمين الرافعي

ومن قصيدة له في رثاء المرحوم أمين الرافعي الذي انتقل إلى جوار ربه في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٧، وقد أُلقيت هذه القصيدة في حفلة تأبينه:

وباعوا المخلّد بالحطام الفاني	وشرّيت بالأعلى من الأثمان
تلك الحياة أمانةً أدّيتها	بتمامها لله والأوطان
بالصبر والإيمان أخلص بدوها	وختامها بالصبر والإيمان
أعرضت عن لذاتها منذ الصبا	والروض تُغري والقطوف دواني
متوخيّا من دونها أمنية	لم يوه وحدتها شتيت أمني
تهوى البلاد ولا هوى لك غيرها	أو تُفتدى من ذلة وهوان
ظلت تُنازعك الصروف بما بها	من مُنة وظللت ثبت جنان
مُستنزفاً دمك الزكيّ ولم يُرق	بشّابة قرضاب ولا بسنان
في صولة للدهر تعقب صولة	مُنتابّة في الآن بعد الآن
حتى قضيت شهيداً رأيك وانقضى	ما كنت تلقى دونه وتُعاني
ويح الأبّي تسوءه أيامه	وتسرُّ كلّ مُماذق ^{٣٩} مِذعان
ممن يقدّم في الرجال وما به	إلا الطّلاء بكاذب الألوان
ماذا دهى «الفسطاط» حين تجاوزت	أصداؤها لنواك بالإرنان؟ ^{٤٠}
وجلا عن القدر المخبأ ليلها	وبدا الصباح مقرّح الأجفان

* * *

حَطَبُ أَرانا في مجالات الفدى	والصدق كيف مَصارعُ الشجعان
فالشرق في شرقٍ من الدمع الذي	أجرى العيون وفاض بالغدران

* * *

أَيّ «مصطفى» يبكيك قومك كلما	عادتهمُ ذكرى فتى الفتیان
------------------------------	--------------------------

^{٣٩} مَماذق: أي غير مخلص.

^{٤٠} الإرنان: رفع الصوت.

خليل مطران شاعر الحرية

وطلّيعَةً لطلّيعَةِ الفرسانِ	يوم الوفاء دعا فكنّتَ لواءه
يهوي بحيث هَوَيْتَ في الميدانِ	هذا شهيدٌ من ولاتك خامسٌ
يتراکضون إليه خيلَ رهانِ	لَکأنهم والموتُ أسوأَ مَغنم
ما عزَّ من جاءٍ ومن قُنْيانِ	بذلوا النفوس كما بذلتَ وأرخصوا
فاسم الرفاق تتمّةُ العنوانِ	فإذا ذُکرتَ وأنت عنوان الفدى

وظل خليل مطران يُغرّد بشعره ألحان الحرية، ولا ينقطع عن التغريد حتى فاضت روحه الكريمة مساء ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٩.

أحمد محرم

١٩٤٥-١٨٧١



شاعر مُلهم، من شعراء الوطنية والأخلاق، كان أدباء الجيل يضعونه في صف شوقي وحافظ ومطران، وكان شيخ الشعراء إسماعيل صبري يتغنّى بشعر هؤلاء الأربعة ويطيب له التحدث عنهم، وامتاز محرم إلى جانب مكانته الشعرية بحرارة العاطفة، وتذوقه للفن

والجمال، وقوة إيمانه، وتأملاته العميقة الفلسفية، واستمساكه طول حياته بمبادئه الوطنية؛ فكان شعره كله وقفًا على هذه المبادئ، لم ينحرف عنها يومًا في قصيدة أو في أي بيت من الشعر، ظل مُقيماً عليها وفياً لها في السراء والضراء، فكان حقاً مثلاً أعلى في الشعر والوطنية، وكان مصطفى كامل يُعجّب به وبشعره، ويُشيد به على صفحات «اللواء»، ويُسميه «نابغة البحيرة»، وبقي أحمد محرم على صلته به ووفائه له ولذكراه، كما ظل وفياً لمبادئ الوطنية إلى أن توفاه الله في ١٣ يونيو سنة ١٩٤٥. كان شاعراً بفطرته وسليقته، قال الشعر وهو في سن مُبكرة، ومُعلّقة التي يقول في مطلعها:

منازل سلمى لا عدّتك الغمامُ وإن درست بالجزع منك المعالمُ

قد نظمها وهو في السادسة عشرة من عمره.

وطنيته في شعره

تتجلى روحه الوطنية التي ألهمته الشعر أكثر ما تتجلى حين أصدر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٨، فقد أهداه إلى «النيل»، وكتب كلمة الإهداء في عنوان الكتاب «هدية النيل»، وأعقبها بهذا البيت الذي يُترجم عن وطنيته الأصيلة مخاطباً النيل، قال:

وهبتك مُلك القريض العتيدُ وذلك أفضل ما يوهبُ

وقال في مقدمة ديوانه يشرح المعنى الذي استوحاه في إهداء ديوانه إلى النيل:

لقد جرى أكثر الكُتاب والشعراء على أن يُهدوا مؤلّفاتهم إلى من شاءوا من ذوي الثروة والجاه؛ تعرضاً لمؤازرتهم والانتفاع بهم وسط هذا الكساد الآخذ بأكظام الأدب في بلادنا، ولكنني انصرفت بشعري عن تلك المواقف، وبرئت إلى نفسي أن آخذ بهذه الأسباب، على ما أعلم من وعورة مَسلكي، وضيق مضطربي، وما كنت في ذلك إلا جاريًا على سنتي في سياسة نفسي، وتصريف ما آتي وأدع من أمور الحياة، فما استظهرت بغير أخٍ حفي، أو صديق صفي، ولا آثرتُ أن أُهدي ديواني إلى غير «النيل»، ذلك الأب الذي وهبني نعمة الحياة، وأفاض عليّ هذه المنح والصلات.

«فيا نيلُ أنت الهوى والحياة	وأنت الأمير وأنت الأبُ»
«ويا نيل أنت الصديق الوفي	وأنت الأخ الأصدق الأطيبُ»
وأنت القريض الذي أقتفي	فيزهى به الشرق والمغربُ
فإن أهب الخصبَ هذه العقول	فمما سننتَ لها تخصبُ
وإن أنا أطربت هذه النفوس	فصوتك لا صوتي المُطربُ
تسيل فتندفق الرائعات	وتجري فتستبق الجوبُ

إلى أن قال:

لئن فاتني الذهب المستفاض	فما فاتني الأدب المذهبُ
وهبتك مُلك القريض العتيد	وذلك أفضل ما يوهبُ

وقد ظهر الجزء الثاني من ديوانه سنة ١٩٢٠.

دعوة الوطنية

قال يدعو مواطنيه إلى الإخلاص لبلادهم والعمل على استعادة مجدها:

دعا فأتار الساكنين دعاؤه	ونادى فراع الأمنين نداؤه
أخو وصبٍ ما إن يحمُّ انقضاؤه	وذو أربٍ ما إن يحين قضاؤه
به من بني مصر عناءٌ مبرِّح	فيا ليت شعري هل يزول عناؤه؟
أما إنه لو كان يشفي غليله	بكاءً على مصر لَطال بكاءؤه
تقسّمها الأقوام لا ذو حمية	فيحامي ولا واق فيُرجى وقاؤه
«وما مصر إلا موطن نحن أهله	عزيز علينا أرضه وسماؤه»

إلى أن قال يستنكر الاحتلال البغيض ويهيب بالأمة أن تحاربه:

ثوى فيه أقوامٌ مللنا ثواءهم	ويا ربِّ ثاوي لا يملُ ثواؤه
«لقد كان يأبى أن يذل لغاصب	فيا ليت شعري أين ضاع إباؤه؟»

شعراء الوطنية

لقد كان يرعاه رجال أعزة بهم من صروف الدهر كان احتماؤه
هم ناضلوا عنه فصانوا ذماره بصارم عزم ما يُردُّ مضاهؤه

* * *

بني وطني لا تُسَخِّطوه عليكمُ فليس سواءً سخطه ورضاؤه
بني وطني خلُّوا التخاذل إنه بلاؤكمُ يجتاحكم وبلاؤه
سلامٌ عليكم من أخٍ ذي حمية دعا فأثار الساكنين دعاؤه

لواء الوطنية

وقال يُمجِّد لواء الوطنية ويدعو إلى الالتفاف حوله والتضحية في سبيله:

فداؤك نفسي من لواءٍ مُحَبَّبٍ حمى جانبيه كلُّ ما ضِ مدرِّبٍ
إذا ما دعا أنصاره التف حوله جحاجة^١ من ذائد ومُذَبِّبٍ
فمنهم قنول للصواب مسدَّد يصرف صرَّارًا له وقعُ أشطبٍ
يدين له الجبار غير مُعذَّل ويعنو له المغوار غير مؤنَّبٍ
ومنهم فعولٌ للمكارم ماجدٌ يلبي نداه كلُّ داعٍ مَثُوبٍ
همُ الصَّحب صانوا للديار لواءها وصالوا على أعدائها غير هُيِّبٍ
يكروُن كَرَّ الدارعين إلى الردى إذا الحرب أبدت عن عبوسٍ مقطَّبٍ
إذا طلبوا حقًّا تداعوا فأجلبوا على سالبية فانتنوا غير خُيِّبٍ

إلى أن قال:

وما منع الأوطانَ إلا حماتها وذادتها من ذي شبابٍ وأشيِبٍ
همُ ذخرها المرجوُّ في كلِّ حادث وعُدَّتْها في كلِّ يومٍ عَصَبِصِبٍ
سلامٌ عليهم من كهول وفتية وبُورك فيهم من شهودٍ وغُيِّبٍ

^١ جحاجة: جمع ججاج؛ السيد المُسارع في المكارم.

كبوة الشرق

وقال تحت عنوان «كبوة الشرق» يستصرخ أهله ليُعيدوا إليه سالف مجده:

متى ينهض الشرق من كبوته	وحتى متى هو في غفوته؟
كبا وكذلك يكبو الجواد	براكبه وهو في حلبته
ونام كما نام ذو كربة	تملّكه اليأس في كربته
وهى عزّمه ما يُطيق الحراك	وقد كان كالليث في وثبته
تجرّ عليه عوادي الخطوب	كلاكلّها وهو في غفلته
نواهبُ ما كان من مجده	سوالبُ ما كان من عزّته

إلى أن قال:

فيا لهف قلبي لمجدٍ مضى	ويا شوق نفسي إلى عودته!
ويا لهف آبائنا الأولين	على الشرق إن ظل في نكبته
همُ غادروه كروضٍ أريض	تتوّق النفوس إلى نضرته
«ونحن تركناه للعاديات	ولم نرعَ ما ضاع من حرّمته»
فأذهبنَ ما كان من حُسنه	وأفنينَ ما كان من بهجته

* * *

فهل يُسمع القولَ أهل القبور	خطيبٌ فيُسهب في خطبته
يُناديهُم فيم هذا الرقاد؟	كفى ما دهى الشرق من رقده
لقد ضاع بعدكمُ مجده	وكل المثالب في ضيعته
وأنتم رجال ذوو نجدة	فلا تقعدوا اليوم عن نجدته

يدعو إلى بعث مصر

وقال يذكر مجد مصر الغابر ويدعو مواطنيه إلى النهوض لاستعادة هذا المجد:

أهذي ديار القوم غيّرها الدهرُ	فُعوجوا عليها نبيكها أيها السفُرُ
محا أيّها مرُّ العصور وكُرّها	إذا مرَّ عصرٌ كرَّ من بعده عصرُ

نُسأِّلُهَا أَيْنَ اسْتَقَلَّ قَطِينُهَا وهل تنطق الدار المُعَطَّلَة القفر؟
وكائن ترى من ذي ثمانين خَضَبَتْ لِطُولِ البُكَاءِ من شيبه الأدمعُ الحمرُ
«بكى وطنًا أودت بسالفِ مَجده حوادث دهر من خلائقه الغدرُ»
أغارت عليه من جنوب وشمأل فما برحت حتى أُتِيحَ لها النصرُ

* * *

ألا إنها مصر التي شَقِيَتْ بنا فيا ويح مصر ما الذي لقيت مصرُ؟
مضى عزُّها القُدُموسُ^٢ ما يستعيده بنوها فلا عزٌ لديهم ولا فخرُ
هم رقدوا عنها فطال رقادهم فديتكم هبوا فقد طلع الفجرُ!

ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

وقال عن ذكرى احتلال الإنجليز القاهرة يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢:

نلومك يا يوم النحوس ونعذلُ وأنت على ما أنت تمضي وتقبِلُ
فلا نحن ما عشنا عن اللوم نرعوي ولا أنت ما كرَّ الجديدان تحفلُ

إلى أن قال:

لعلك أن تأتي بما تعد المُنَى نفوس رجال أوشكت تتململُ
لحى الله قومًا حملونا من الأذى بما ضيَّعوا الأوطان ما ليس يُحمَلُ
هم خذلوها فاستُبِيحَ حريمها وما برحت تبغي انتصارًا فتُخذَلُ

يُهاجم الاحتلال

وقال سنة ١٩٠٢ ينعى على الاحتلال بغيه وعدوانه، وعلى الإنجليز نقضهم للعهود والمواثيق:

في كل يوم شرعةً ونظامُ ما هكذا الأحكام والحكَّامُ

^٢ القدموس: القديم.

عشرون عامًا والديارُ مريضة
لم يعرف المتطبِّبون دواءها
إن الأساة لَتَعْلَمُ الداء الذي
ولربما غَشَّ الطبيبُ عليه
كيف الشفاء لمصر من أدوائها
والمُصلِحون كما علمت وأهلها
تنتابها الأدوية والأسقامُ
فتنَوَّعت في دائها الأوهامُ
ترك العليل تَذيبه الآلامُ
حتى يعود الداء وهو عقامُ
أم كيف يُرجى عزُّها ويُرامُ؟
عنها على زَجَر المهيِّب نيامُ

إلى أن قال مُخاطِبًا بريطانيا:

يا دولة رفعت على أوطاننا
أين المواثيق التي أبرمتها
لم تحفلي بعهودنا فنقضتِها
عشرون عامًا ما كَفَتِكَ وهكذا
طال المُقام وأنتِ أنتِ ولم يَكُنْ
علَمًا تُنكِّس تحتَه الأعلامُ
إن كان منك لموثق إبرامُ؟
يا هذه، نقضُ العهود حرامُ
تأتي وتذهب بعدها الأعوامُ
ليطول لولا الجهل منك مُقامُ

وقال يَهيب بالأمة أن تهبَّ للجهاد:

يا أمةً خاط الكرى أجفانها
هُبِّي فما يحمي المحارمَ راقدُ
هُبِّي فما يُغني رقادك والعدى
غنموا نفائسه وثم بقيةُ
هُبِّي فقد أودت بك الأحلامُ
والمرءُ يُظَلَم غافلًا ويُضامُ
حول الجَمي مستيقظون قيامُ
ستُنيلها أيديهم الأيامُ

* * *

«عجا لهذا النيل كيف نعقه
لو كان يجزينا بسوء صنيعنا
لكنها رَحِمَ الجدود ولم تزل
ويدوم منه البر والإكرامُ؟»
أودى بهاتيك النفوس أواُمُ
تُرعى لدى أمثاله الأرحامُ

* * *

يا آلَ مصر خذوا نصيحةَ شاعر
لا تغفلوا عنها فليس بغافل
أبدًا يُكَلِّفُ نصحكُم ويُسامُ
عنكم وعننا ذلك الضرغامُ

«شيثان يذهب بالشعوب كلاهما
إلا يحن للراقدين قيام
نومٌ عن الأوطان واستسلامٌ
فعليلهم وعلى الديار سلامٌ

يدعو إلى البذل والتضحية في سبيل مصر

من قصيدة له نظمها سنة ١٩٠٤ بمناسبة إنشاء مدرسة محمد علي الصناعية بالإسكندرية:

من يُسعد الأوطانَ غيرُ بَنِيها
ليس الكريم بمن يرى أوطانه
ترجو بنجده انقضاء شقائها
وتودُّ جاهدةً به دفع الأذى
سُبُلُ المكارم للكرام قويمة
ما أَكثَرَ المتفاخرين وإنما
يحوي الكريمُ المالَ لا يبغى به
والجود يُحمد حيث كان وخيره
«ولَقَلَّمْها أَرْضى امرؤُ أوطانَه
وَيُنيلها الآمالَ غيرُ ذويها
نهبَ العوادي ثم لا يحمياها
وهو الذي بقعوده يُشقيها
عن نفسها وهو الذي يُؤذيها
فعلامَ يُخطئها الذي يبغياها؟
فخر الكرام بما حَبَّتْ أيديها
شيئاً سوى أكرومةٍ يحويها
ما نال أوطان الفتى وبَنِيها
حتى تراه بنفسه يفديها»

* * *

يا آل مصر وما يُؤدِّي حَقَّها
هي أمكم لا كان من أبنائها
«وهبَّتكم الخير الجزيل فهل فُتِّي
سعدتْ لعمرى بالصنائع حقبةً
دار الصنائع خيرُ دارٍ تُبتنى
إلا فُتِّي يكفي الذي يعنياها
من لا يُواسيها ولا يُرضيها»
منكم بحسن صنيعها يجزيها؟
دلَّت على عجل فمن يثنيها؟
فالله يجزي الخيرَ مَنْ يبنيها

يطعن في الملوك، ويستهن الرتب والألقاب

من قصيدة له بعنوان «الشرف والملوك»، وإذا عرفت أنه نظم هذه القصيدة ونشرها سنة ١٩٠٨ في الجزء الأول من ديوانه، لرأيت أنه أول شاعر وطني حمل على الرتب والألقاب،

وأول من هاجم الملكية والملوك بهذه القوة والشجاعة، فسبق بهذه القصيدة الخالدة عجلة الحوادث بنصف قرن من الزمان، قال:

«كذبَ الملوك ومن يُحاول عندهم رُتْبٌ وألقابٌ تغرُّ وما بها أنا تُباع وتارة هي خدعة كم رتبةٍ نعم الغبي بنيلها «لو كان يعلم ذُلها وهوانها يلقى الكرامة حيث كان وفعله تلك الجهالة والغرور وباطلُ	شرفاً ويزعم أنهم شرفاء» فخرٌ لمُحرزها ولا استعلاءً تُمني بشرُّ سُعاتها الأمراءُ من حيث جَلَّلها أسَى وشقاءُ ما طال منه الزهو والخيلاءُ جُمُ المساوي والمقال هراءُ ما يصنع الأغرار والجهلاءُ
---	---

* * *

«ذنبُ الملوك رمى الشعوب بنكبة «لا المجد مجدٌ بعدما عبثت به «مالوا عن الشرف الصميم وأحدثوا «رفعوا الطغام على الكرام فأشكلت «وإذا الرعاة تنكَّبت سبل الهدى «وإذا الطبيب رمى العليل بدائه	جُلَّى تنوء بحملها الغبراءُ أيدي الملوك ولا السناء سناءُ ما شاءت الأوهام والأهواءُ قِيمُ الرجال ورابت الأشياءُ غَوَتْ الهداة وطاشت الحكماءُ فبِمَن يُؤمَل أن يُبلِّ الداءُ؟
---	--

* * *

لو جاوَر الشرفُ الملوك لأورقت «ظلمٌ يبرِّح بالبريء وغلظةُ الحق منتَهكُ المحارم بينهم رفعوا العروش على الدماء وإنما	صُمُ الصخور وضاءت الظلماءُ يشقى بها الضعفاء والفقراءُ والعدل وهمُ والوفاء هباءُ تبقى السفينة ما أقام الماء!
---	--

يرثي مصطفى كامل

قال سنة ١٩٠٨ من قصيدة له في رثاء مصطفى كامل:

ما زِلَتْ تقحم المصاعب مجهدًا نفسًا موطنَّةً على الأهوالِ

حتى طواك الموت غير مُجامل شعباً يُجلك أيّما إجلال
أحييته وقتلت نفسك بالذي حمّلتها من فادح الأثقال
هلا رحمت نفوسنا فرحمتها وبقيت تكفيننا أذى المُغتال

وختمها بقوله:

إن كان قد حُمَّ الفراق فوقفةً تشفي نفوساً أذنت بزوال
هيهات ما جزع النفوس لراحل سارت به الحدياء غيرُ خيال
سر فالحياة كما علمت رواية محتومة الأدواء بالآجال

يُدافع عن حرية الصحافة، ويلوم الخديو عباس

قال من قصيدة له سنة ١٩٠٩ ينعى على الحكومة تقييدها حرية الصحافة، وفيها يُوجّه اللوم إلى الخديو عباس الثاني في خذلانه للأمة:

صُبوا المداد وحطّموا الأقلاما واطوّوا الصحائف وانزعوا الأقفاما!
وخذوا على الوجدان كل ثنية واقضوا الحياة مزملين نياما
ودعوا البلاد تذوق من عنت العدى ما شاء خادمها الخئون وناما

* * *

اليوم نمنع أن نئنَ لمؤلم أو نشتكى الإعنات والإرغاما
والله لا ندع الشكاية منهم أو يمنعوا الأوصاب والآلاما
كيف القرار على الإساءة والأذى أم كيف نكتم في القلوب ضراما؟
ومتى رضيّا أن نعيش أذلة فنُطيق مسكنة أو استسلاما؟

إلى أن قال يُخاطب الخديو عباس الثاني ويلومه:

ماذا بدا لك فاعتزلت صفوفنا أفأصبحت حرب الغزاة سلاما؟
الحرب دائرة وجيشك قائم يُنضي السيوف ويرفع الأعلاما
والملك مُضطرب ومصر كعهدا تدعو الحماة وتشتكي الأقواما

إن كنت خاذلها ولست بفاعل
أتخون مصر وما تحوّل نيلها
نبغي لها الشرف الأشمّ مؤيداً
ونُعز رايته ونمنع حوضها
عباسُ رأيك في البلاد وأهلها
إن كان عسف فالزمان مؤرّخ
فحُماتها لا يخفرون ذماماً^٣
سمّاً وما انقلب الضياء ظلاما
بالباس يُؤيس صرحه الهداما
ونزيد صادق حبها استحكاما
أن الأذى يستتصرم الأوغاما
يُحصي لنا الحسنات والآثاما

* * *

قلمي، كتابي، أمّتي، وطني، متى
نشفي نفوساً تستطير أوما؟

يُنذد بملوك الشرق

من قصيدة له سنة ١٩١٢ بعنوان «الملك الزائل» يُنذد فيها بملوك الشرق لمناسبة ضياع
مراكش بعد توقيع السلطان عبد الحفيظ المعاهدة التي قبل فيها وضع بلاده تحت حماية
فرنسا:

هوت العروش وزُلزلت زلزالا
ريعت لمصرعه المَشارق إذ مشى
سلب المُغير حياته واستأصلت
«تنجو الممالك ما نجا استقلالها
«أين «ال خليفة» ما دهاه وما له؟
عرش هوى وقديم مُلك زالا!
فيها النعيّ وأجفلت إجفالا
أيدي الجوائح عزّه استئصالا
فإذا اضمحلّ أعارها اضمحلّالا
أرضى المُغير وطاوع المغتالا

* * *

ما قام شعبٌ نام عنه حُماته
تأبى العناية أن تُصافح أمة
واستشعر التفریط والإهمالا
ترضى الهوان وتألف الإذلالا

* * *

قد كان يأنف أن يكون قرينهم
ويُعدهم لجلاله أمثالا

^٣ يقصد بحماتها أبنائها المجاهدين.

لعب الغُرُورُ به فضيَّعٌ مُلكه واعتاض منه مَذلةً وخبالا
وَإِذَا أَرَادَ اللّٰهَ شَرًّا بِأَمْرِي تبع الغَوَاةَ وطَاوَعَ الجهالا

* * *

أَخْلِيفَةً يُعْطِي الْبِلَادَ وَآخِر يهوى القِيَانِ ويعشق الجريالا؟
أَغْرُورٌ مَفْتُونٌ وَصَبُوءَةٌ جَاهِل بئس «الْخَلَائِف» سيرةً وفعلالا

فضائع الإنجليز في مصر إبان الحرب العالمية الأولى

من قصيدة له سنة ١٩١٨ يُنَدِّدُ بفضائع الإنجليز في مصر إبان الحرب العالمية الأولى:

أيها الجند ظافراً يتمشى في الجماهير مُعْجَبًا مختللا
يوم غاب الحماة واستصرخت مص رر تُنادي الرجال والأبطاللا
أَقْتَلْتَ الكِماة في الحرب غُلْبًا؟ أم قتلْتَ النساء والأطفاللا؟
أَنْصَفِي «الظالمين» يا «دولة الفا روق» منا وعَلِّمي «الجُهالا»
عَلِّمِينَا كيف الحياة نُعَانِي هـا وَصُونِي النفوس والآجالا
«خَفَّفِي الْفَتَكْ إِنَّا قَدْ عَيِينَا وَلَقِينَا فِي ظَلِك الْأَهْوَالا»
اقْبِضِي ظَلِك «الْمُحَبَّب» عَنَا واجعليها عقوبةً ونكاللا

إلى أن قال يُنَدِّدُ بغدر الاحتلال:

ما ذَكَّرْنَا لَكُمْ من الخير شيئًا ما رَضِينَا لَكُمْ على الدهر حالا
نَذَكَّرُ الْحُكْمَ ظَالِمًا مَا رَأَيْنَا فيه عدلاً ولا وجدنا اعتدالا
«نَذَكَّرُ الْعَهْدَ سَيِّئًا مَا عَرَفْنَا فيه حرية ولا استقلالا»
نَذَكَّرُ الشَّرَّ وَالْبَلَاءَ جَمِيعًا فاذكروا عهدكم وشُدُّوا الرحالا
رَضُّعُوا «التاج» بالوفاء وحلُّوا بجلَى الصَّدَقِ «عِزَّهُ وَالْجَلالَا»
لَا تُرِيقُوا دَمَ الضَّعِيفِ عَلَيْهِ وانظروه من فوقه كيف ساللا

٤ غلبًا: جمع أغلب.

أَكْرِمُوا التاجَ إنكم إن أَبَيْتُمْ زادَ فِينَا مَهَانَةً وَابْتَذَالًا
طَالَ عَهْدَ احْتِلَالِكُمْ فَحَسِبْنَا أنَ يَوْمَ الحِسَابِ يُدْعَى احْتِلَالًا

إلى أن قال مُنْذَرًا الإنجليز بسوء العاقبة:

هل من الله مَهْرَبٌ أو نَجَاةٌ حين يُزْجِي جنوده والرعالا^٥
يَأْخُذُ البَرَّ والبحارَ عليكم ويُريكم نزاله والدحالا^٦
تلك عقبى الأذى فلا تُنْكروها جاءكم يومكم فذوقوا الوبالا!

فضائع الإنجليز في ثورة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ يُنْذِرُ بفضائع الإنجليز في إخماد الثورة، وما ارتكبه من القتل والتنكيل بالأبرياء:

يا سوءَ ما حملَ البريدُ ويا لها من نكبةٍ تدعِ النفوسَ شَعاعا!
يا ربَّ ما ذنبُ الذينَ تتابعوا يسترسلون إلى المنون سِراعا
جرحى وما حملوا السيوفَ لغارةٍ صرعى وما سألوا العدوَّ صِراعا
قالوا «الحياة» فَعُوجِلُوا أنَ يقرعوا عندَ النداءِ بتائها الأسماعا
«عزريل» نَبَّئْ ما أَصابَ جموعهم فارتابَ ثم رَاهُمُ فارتاعا!
مرأى يشق على العيونَ ومشهد يُدمي القلوبَ ويقصم الأضلاعا
لما أطلَّ الظلمَ فيه بوجهه ألقى عليه من الحياءِ قناعا
ودعا بـ «نيرون الرحيم» فما رنا حتى تراجعَ طرفه استفظاعا
وصفوا المصابَ لـ «دنشواي» فكَبُرَتْ لـ «المصلحين» مقابرًا ورباعا
واستيقنت أن الألى نكبتَ بهم كانوا أبرَّ خلائقًا وطباعا

* * *

^٥ الرعال: جماعة الخيل.

^٦ الدحال: الامتناع.

يا مصر خَطْبُكَ في الممالك فادح	وَمُصَابُ أَهْلِكَ جَاوَزَ الْمُسْطَاعَا
قَوْمٌ يَرَوِعُهُمُ الْبَلَاءُ مُضَاعَفًا	وَتُصِيبُهُمْ نُوبُ الزَّمَانِ تَبَاعَا
لَاذُوا بِحُسْنِ الصَّبْرِ حَتَّى زَلَزَلَتْ	هَوُجُ الْحَوَادِثِ رُكْنَهُ فَتْدَاعَى
حَمَلُوا الْقُلُوبَ تَفُورُ مِمَّا تَصْطَلِي	وَتَمُورُ مِمَّا تَحْمِلُ الْأَوْجَاعَا
إِنْ هَاجَهُمْ طَمَعُ الْحَيَاةِ رَمَى بِهِمُ	خَطْبُ يَرِوُّعٍ مِنْهُمْ الْأَطْمَاعَا
وَإِذَا أَرَادُوا نَهْضَةً نَفَرَتْ لَهُمُ	حَمَرٌ خَلَا الْوَادِي فَكُنَّ سَبَاعَا

* * *

سَفَكُوا الدَّمَاءَ بَرِيئَةً وَتَنَمَّرُوا	يَرْمُونَ شَعْبًا لَا يُطِيقُ دَفَاعَا
لَمْ يَذْكُرُوا إِذْ نَحْنُ نَبْذِلُ قُوَّتَنَا	وَنُظِلُّ صِرْعَى فِي الْبُيُوتِ جِيَاعَا
بئسَ الجِزَاءُ وَرَبِمَا كَانَ الْأَذَى	عَدْلًا لِمَنْ يَأْلُو الْعَدُوَّ قِرَاعَا
جَاءُوا فَقَوْمٌ يُضْمِرُونَ مَوَدَّةَ	وَرَضًا وَقَوْمٌ يُظْهِرُونَ خِدَاعَا
فَتَكَافَأَ الْحِزْبَانُ فِي حَالِيهِمَا	وَمَضَتْ حَقُوقُ الْعَالَمِينَ ضِيَاعَا

إلى أن قال يهيب بالشعب أن يذود عن حقوقه بالمُهْج والأرواح والإقدام والشجاعة:

«لَا يَسْتَقِلُّ الشَّعْبُ يَتْرَكَ حَقَّهُ	وَيَرَى الْبِلَادَ تِجَارَةً وَمَتَاعًا»
يَخْشَى الْعَدُوَّ فَلَا يُطِيقُ تَشَدُّدًا	وَيَهَالُ مِنْهُ فَلَا يَرِيدُ نِزَاعَا
إِنْ الْحَيَاةَ لِأُمِّهِ مَقْدَامَةً	تُعْيِي الْعَدُوَّ شِجَاعَةً وَمِصَاعَا
تَرْجِي إِلَيْهِ مِنَ الْحِفَافِ جَافِلًا	وَتُقِيمُ مِنْهُ مَعَاقِلًا وَقِلَاعَا
إِنْ شَامَهَا فِي الْحَادِثَاتِ تَفَرَّقًا	عَقَدَتْ عَلَى خِذْلَانِهِ الْإِجْمَاعَا
وَإِذَا أَرَادَ بِهَا الْهَضِيمَةَ أَرْهَقَتْ	هَمًّا يَضِيقُ بِهَا الدَّهَاءَ ذِرَاعَا

* * *

يا رَبِّ مِصرَ تَوَلَّى مِصرَ وَهَبَ لَهَا	شَعْبًا يَرِيدُ لَهَا الْحَيَاةَ شِجَاعَا
«لَوْ سِيمَ يَوْمًا أَنْ يَبِيعَ بِلَادَهُ	بِمَمَالِكِ الدُّنْيَا مَعًا مَا بَاعَا!»

يرثي فريداً

من قصيدة له سنة ١٩١٩ يرثي محمد فريد:

أترى الكنانة كيف تعبت بالدم
أدنى المراتب في الصباة عندها
تُزجي تحيتها فيكذب دونها
ضل امرؤ قتلته «مصر» فلم يضمن
معشوقته يجري مع الدم حبها
بعثته «مصر» مجاهداً ورمته به
خاض الغمار يهدد كل كتيبة
مُتجرداً لله يطلب حقه
فإذا القياصر بالأرائك تتقي
كلُّ به فزع وكلُّ جازع

الله للشهداء إن لم ترحم!
تلفُ المحب وطولُ وجدِ المُغرمِ
أمل الملول ومطمعُ المُتبرمِ
عهد الولاء لها وحقُّ المُنعمِ
في قلبِ نصرانيِّها والمسلمِ
فرمت بجيش للفتوح عرمرمِ
ويهز راياتِ الكميِّ المعلمِ
ويُقيم جانب شعبه المُتهدمِ
وإذا الأرائك بالقياصر تحتمي
يبغي القرار ولا قرار لمُجرمِ

إلى أن قال:

«يا سيد الشهداء بعد رفيقه
ليس الذي بدأ الجهاد فلم يمت
والناس في شرف الحياة وعزها
وأجلُّ ما رُزق الرجال همامة
تتجشم الصعب المَخوف وعندها
مأوى الممالك والشعوب ومالها
لك من يقينك ثروة إن قُدّرت
إيمانُ ذي الإيمان أعظمُ ثروة
ضج النعاة فضج كلُّ موحدٍ

أرضيتَ ربك في جهادك فاغنمِ
إلا كبائِدٍ حجةٍ لم يختمِ
ضدان من ماضٍ وآخر مُحجمِ
تنفي غرامَ المطلبِ المُتهجمِ
أن المنية مركبُ المُتجشمِ
وصفوك ظلماً بالغريب المُعدمِ
قيستَ كنوز العالمين بديرهمِ
ويقينُ ذي الوجدان أفضلُ منجمِ
وارتجَّ ما بين الحطيم وزمزمِ

ثم قال:

يا مصر حسبك ما رضىت من الأذى
إن التي رمت الممالك باعدت
الأرض تركض بالشعوب حثيثة
إن كان قيدك لم يُحلّ فإنه
سيرى فما بك غير تلك وما بنا

* * *

يا نازحاً لم نقض حق بلائه
وانفض همومك عن فؤادك إننا
إن المناكب والنفوس بأسرها
ماذا حفظت لأهلها من حرمة
حيّتك «مصر» على البعاد فحيّها
جاوزت حسن الصنع في خدامها
كذب المضلل لن ينالك سعيه
أقسمت ما لك في جهادك مُشبه
ما زلت تُسرف في المغارم دائباً
أي القواضب بعدما قطع الظبا
رددت صوتي في الرثاء وإنما
حيّتك في الملاء العليّ وأزلفت
أسفي لأوبة راحل لم تقضها

الله جارك فاغتبط وتنعم
نلقى الهموم بكلّ أغلب أضخم
لفداء «مصر» من المهمّ المؤلم
وقضيت من حق عليك مُحتم
ودعت مسلمة عليك فسلم
وكفيت سوء الذكر من لم يخدم
إلا إذا نال السماء بسلم
والحرّ مُؤتمن وإن لم يُقسم
حتى جعلت النفس آخر مغرم
ولوى الأسنة في الوغى لم يُثلم
رددت من صوت الكنانة في فمي
حور الجنان إليك شعر «محرم»
عدة المني وتحيّة لم تُنظم

ذكرى فريد

وقال سنة ١٩٢٢ في ذكرى محمد فريد:

ألا فاذكروا من قومنا كلّ مقدام
وما الناس إلا الخالدون على البلى

ففي هذه الذكرى حياة لأقوام
وصرف الليالي من هداة وأعلام

همُ ثروة الإحيال لولاهم انطوت على فاقّة ما تستطيع وإعدام
إذا المرء لم يعمل لما بعد يومه طوى كلُّ حيِّ ذكره بعد أيامٍ

* * *

سلامٌ على الحي المقيم وإن طوى إلى المنزل الأقصى ثلاثة أعوامٍ
على الكوكب الطافي على لُجة الردى إذا ما طوى الأقمار طوفانه الطامي

* * *

ألا فاذكروا الأبطال وابتذروا الوغى وكُونوا أُولي بأسٍ شديد وإقدام
هي الوثبة الأولى وإن وراءها لما يستجيش الوثب من كلِّ ضرغامٍ

وقال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له في ذكره:

جدّدوا الذكرى لأهل المشرق وصِفوا المجدَ لشعبٍ شَيِّقٍ
يعشق المجد فإن لَجَّتْ به لوعة الوجد تنحَّى يتَّقِي
علموه كيف يقضي حقّه نابه الموقف حرَّ المصدق
وأروه السُّبل نارًا ودما من يهب فيها المنايا يُصعق
مزقوا الأوهام عنه إنه ليظنُّ السُّبل من إستبرقٍ

إلى أن قال:

يا «شهيد النيل» لو ناجيته لشفاه منك عذبُ المنطقِ
شاقّه الصوت البعيد المرتمي والمقام الكسرويُّ الرونقِ
وشجاه أن يرى صمصامه غير وضّاح السّنا في المأزقِ
جاشت الأحداث تستقصي المدى وارتمت من كلِّ صوبٍ تلتقي

إلى أن قال يُندد بانقسام الأحزاب وبمساوئ الحكم القائم وقتئذٍ (نوفمبر سنة ١٩٢٥) حكم الرجعية والسراي:

سائل الأحزاب ماذا عندها غير ترجافٍ وهم مُقلقٍ

وتأمل هل ترى اليوم سوى
فات «نيرون» رجالاً رزقوا
لو جرى «فرعون» أو «هامانه»
سجنوا الدستور طفلاً ناعماً
لا جرى «النيل» على الوادي ولا
دولة فوضى وحكم أخرق
من فنون الظلم ما لم يُرزق
يتعاطى شأوهم لم يلحق
واستبدوا بالسجين الموثق
بُورك الشعب إذا لم يُطلق

* * *

تلك ذكرى «النيل» للنفس التي
هي عينٌ من حياة عذبة
فزعت مصر إلى أبطالها
سائل القوم أما من غضبة
لا أرى النجدة إلا في الأعلى
ننصر الله ونحمي أمة
همة المقدام من آلائها
عكف «النيل» عليها يستقي
في يفاع من سناءٍ مُشرق
فالبس النقع وسر في الفيلق
لذمام صادق أو موثق
هم أولو العهد الأبر الأصدق
نحن منها في الصميم المُعرق
وبيان العبقري المُفلق

الحالة السياسية سنة ١٩٢٥

في سنة ١٩٢٥ عين اللود جورج لويد معتمداً (مندوباً سامياً) لبريطانيا في مصر خلفاً
للمارشال ألنبي الذي استقال من منصبه، وقد حضر المعتمد الجديد إلى مصر في أكتوبر
سنة ١٩٢٥، فنظم أحمد محرم قصيدة يُخاطبه فيها ويُحذّره مغبة السياسة الاستعمارية،
وفيها يُندد بانقسام الزعماء وتنكبهم سبيل الإخلاص والسداد، ويهيب بالأمة ألا تقع في
شرك الاستعمار ومناوراته، وأن تصمد في الجهاد، قال:

أتسأل مصر ما حمل «العميد»
هو السهم الذي عرفته قدماً
تمرد مُبدئ وطغى مُعيد
«مسيح الهند» إن بمصر شعباً
فما نظر المُسلم أين تبغي
«دع الزعماء إن لهم لديناً»
وهل عند الرماة لها جديد؟
وجرب وقعه الشعب الوئيد
ولم تزل الرمية تستزيد
يشق عليك إن خضع الهنود
ولا عرف المُساوم ما تريد
يدين بغيره الشعب الرشيد

إذا ذكروا الزعامة فهي دعوى
ولا تبقى البلاد إذا أصيبت
«لمن تتألب «الأحزاب» شتى
«تداعوا للوغى فهوى صريعاً
مضت أسلابه تزجى إليهم
إذا ساد التخاضل في أناس
يكيد بها «الكنانة» من يكيدُ
بمن يبغي الزعامة يستفيدُ
وما هذي الصواعق والرعود؟»
على أيديهم الوطن الشهيدُ
فمأتمه لدى الأقوام عيدُ
فأعوزُ ما ترى شعبُ يسودُ

إلى أن قال:

عميد «الغاصبين» نزلت أرضاً
يذود الواحد القهار عنها
أتذكر إذ لقومك ما أرادوا
تطوف جنوده فتصيد منا
أتذكر «دنشواي» وكيف كادت
تضج من العذاب ولا سبيل
يبيد الغاصبون ولا تبيدُ
إذا قهرت جنودك من يذودُ
وإذ لـ «كرومر» البطش الشديدُ
ومن سرب الحمام ما تصيدُ
جوانبها بأهليها تميدُ
إلى غير العذاب ولا مَحيدُ

إلى أن قال مُشيراً إلى طغيان كرومر وكيف أكرهته مصر على الاستقالة من منصبه:

سيوفُ الجند مظهرُ كل حق
أتذكر إذ نُعَاتِبُه فيطغى
أخذناه بقارعةٍ ألحَّتْ
صدعنا ركنه فانقضَّ يهوي
هوى جبلٍ من العدوان عالٍ
ونحن القائمون بحق مصر
ونحن المُقبِلون على المنايا
نضنُّ بمصر إن عدت العوادي
ورأى «كرومر» الرأي السديدُ
ويهدر في مقالته الوعيدُ^٧
عليه فزال واشتفت الكبودُ
وذاب الصخر أجمع والحديدُ
وزُلزل للأنى صرخُ مَشِيدُ
إذا ما استسلم القوم القعودُ
إذا الأبطال كان لهم صدودُ
ولكنا بأنفسنا نجودُ

^٧ يُشير إلى خطبته سنة ١٩٠٧ قُبيل رحيله عن مصر وقد توَعَد فيها المصريين ببقاء الاحتلال.

هي الذُّم المصونة والعهود فما يبغي «كرومر» أو «لُويدُ»

* * *

أخا «السكسون» هل نُبِئتُ أنا	جلاوذة لقومك أو عبيدُ
لقد كذبوا عليك فليس فينا	لمن يبغي الهزيمة مُستقيدُ
إذا سعت «الوفود» إليك فاحذر	عواقب ما تقول لك «الوفودُ»
فما أحد بمالكِ أمرٍ مصر	وما بالشعب جبُّ أو جمودُ
مضت دنيا القيود وتلك دنيا	تُذمُّ بها وتُحتقر القيودُ
حمينا ما حمى الآباء قدماً	وصان لنا وللنيل الجدودُ
بلادُ ما تُباع وباقيات	من الآثار معدنها الخلودُ

يدعو إلى اليقظة السياسة، ويُندد بالتراخي في الوطنية

قال سنة ١٩٢٧ من قصيدة له في «الشعر السياسي»:

تسعى الشعوب ونحن في غفلتنا	نأبى الفعال ونكثِر الأقوالا
ركبوا متون العاصفات وشأننا	أن نركب الأوهام والآمالا

* * *

يا باعث الموتى ليوم معادها	تنساب من أجداتها أرسالا
أعد الحياة لأمة أودت بها	غفلاتها فثوت سنين طوالا
وأضئ لها سُبُل النجاة ليهتدي	من زاغ عن وضح الطريق ومالا
وتولّها بالصالحات ولقّها	منك الأمان ووقّها الأوجالا
وامنن عليها من لدنك بقوة	تُوهي القيود وتصدع الأغلالا
واجمع على صدق الإخاء فضاظنا	فلقد تفرّق يمنةً وشمالا
أودى بنا بين الشعوب تباغضُ	صدع القلوب ومزّق الأوصالا
تستفحل النكبات بين ظهورنا	ويزيد مُعْضِل دائنا استفحالا
الله يحكم في الممالك وحده	ويصرّف الأقدار والآجالا

إلى الشعب

وقال سنة ١٩٢٧ في هذا المعنى مُوجِّهاً الخطاب إلى الشعب:

ادفع بنفسك لا تَكُنْ مُتهيباً ما اعتز في الأقوام من يتهيبُ
شرف الحياة وعزها لمُغامر يمضي فلا يلوي ولا يتنكبُ
أشرع لأمتك الحياة ولا يَكُنْ لك في حياتك غيرَ ذلك مأربُ

* * *

مصر الحياة وحبها الشرف الذي بطرازه الغالي أذل وأعجبُ
نفسي وما ملكت يداي لأمتي وسراة آبائي ومن أنا مُنجبُ
أبنيَّ إنك للبلاد وإنها لك بعد والدك التراث الطيبُ
شمم إزارك إن نُدبتَ لنصرها إن الكريم لمثل ذلك يُندبُ
ما المرء إلا قومه وبلاده فانظر إلى أي المواطن تُنسبُ
ليس التعصب للرجال معرّة إن الكريم لقومه يتعصبُ
للمرء من شرف العشيرة زاجرُ ومن خلال الصالحات مُؤدبُ

حكم التاريخ

من أنعم التاريخ أن حسابه حقٌّ وأن قضاءه لا يُشجبُ
تقف الخلائق تحت راية عدله فيُقام ميزان الحقوق ويُنصبُ
في موقفٍ جليلٍ تجيش جموعه فيُداس فيه متوَجٍّ ومعصَّبُ
ملك الزمان فما لعصرٍ موئلُ يحميه منه وما لجيلٍ مهرُبُ

يُخاطبُ النيل

يا نيل والمُوفون فيك قلائل ليت الزعاف لمن يخونك مَشربُ
قُتِلَ الوفاء فما غضبتَ وإنما يحمي الحقيقة من يغار ويغضبُ
تهبُ الحياة له وليس لقاتل في غير حكمك من حياة تُوهبُ
مَن لي بشعبٍ في الكنانة لا القوى تنشق منه ولا الهوى يتشعبُ

متألبّ يبغى الحياة كأنه جيش على أعدائه يتألبّ
أين الرجال العاملون فإنما تبقى الممالك بالرجال وتذهب

وطنٌ يعذب في الجحيم: فلسطين الشهيدة

من قصيدة نظمها سنة ١٩٣٨ عن مأساة فلسطين:

لبّيك يا «وطن الجهاد» ومرحبًا
لبّيك إذ بلغ البلاء وإذ أبى
من ذا يرى دمه أعزّ مكانة
وطنٌ يعذب في الجحيم وأمة
بقلوبنا الحرّى وفي أحشائنا
وبنا من الألم المبرّح ما بها
نتجرع البلوى ونذرّع الأسى
«إنا لنعلّم أن آكل لحمهم
جعلوا الكفاح عن العروبة حرثهم
يسقون ما زرعوا دمًا في مخصب
«البيت» يطرب من أنين جراحهم

لبّيك من داع أهَاب وثوبًا
جد الزمان وصرفه أن نلعبا
من أن يُخضّب من «فلسطين» الرُّبى
أعزّ علينا أن تُصاب وتُنكبا
ما شبّ من أشجانها وتلهّبا
وأرى الذي تلقى أشدّ وأصعبا
نرعى لإخوتنا الدّمّام الأقربا
سيخوض منا في الدماء ليشرّبا
وتعهّدوه فكان حرثًا طيّبًا
لولا الدم الجاري لأصبح مُجدبًا
أرأيت في الدنيا أنينا مُطربًا؟

وقال يحملّ ساسة بريطانيا وأمريكا مسئولية مأساة فلسطين:

إن الذي زعم السلام مُراؤه
إن كان قد غمر الزمان وأهله
أرأيت إذ سكب الدموع غزيرة
متصنّع باسم الضعيف يُريقها
ما كان أصدق نُسكه لو أنه
«يهذي بذكر العدل في صلواته

جعلُ الدماء سبيّله والمركبا
كذبًا فمن عاداته أن يكذبا
يأبى الحياء لمثلها أن يُسكبا
وهو الذي ترك الضعيف معذبًا
رحمَ البريء ولم يُحابِ المُذنبًا
أرأيت عدلاً بالدماء مُخضّبًا؟»

وقال يهيب بالأمم العربية أن تهبَّ لنجدة فلسطين:

رُسِلَ العروبة هل أُسَيْتَم جُرْحُهَا	ما باله استعصى وماذا أعقبا؟
جُرْحٌ تَقَادَمَ عَهْدُهُ وَتَفَتَّحَتْ	أفواهه تدعو الأُساة الغِيْبَا
أَنْتُمْ أُساة الجُرْح فَاتَخِذُوا لَهُ	من طبِّ شَيْخ أُساَتِكُمْ ما جَرِّبا
وصفَ الدِّواءِ لَكُمْ وَخَلَّفَ عِلْمُهُ	فيكم فأين يريد منكم مَنْ أبى؟

* * *

يا قومُ لستم بالضعاف فغامروا	وخذوا مطالبكم سراعاً وُثِّبا
أفما كفاكم قوَّةً من دينكم	ما جَمَعَ الإيمان فيه وألِّبا
يا «آل يعرب» مَنْ يُرِينِي «خالدًا»	يُزْجِي الخُميس ويستحث المِقْبَا
مَنْ شاءَ منكم فليَكُنْه ولا يَقُلْ	ذهب القديمُ فإنْه لن يذهبَا
السُّرُّ باقٍ والزمانُ مجدَّد	والسيف ما فقد المضاء ولا نبا

* * *

رُدُّوا المظالم عن محارم أمة	رَدَّتْ ظنون ذوي الجهالة خُبِّبا
«لم يُعطِ أوطانَ العروبة حقَّها»	مَنْ كان يطمع أن تُتَبَّاعَ وتوهَّبا»

يُشفق على الفلاح

ومن قصيدة له بعنوان «رحلة عابسة» سنة ١٩٤٠، وقد مر ببعض القرى وتحركت شاعريته إشفاقًا على الفلاح، قال:

وَيْلِي على فلاح مصر أَمَا كفى	ما ذاق من عنت ومن إرهاب
يُغْنِي ألوف المُتَرَفِّينَ بماله	ويعيش في فقر وفي إملاق
سبحان من شرع السبيل لخلقه	أكذا يكون تفاوتُ الأرزاق؟

أحمد نسيم

١٩٣٨-١٨٨٠



شاعرٌ مُبدع، من أعلام الشعر الوطني، يمتاز بجذالة الأسلوب وتدفُّق المعاني
والأحاسيس الوطنية في قصائده، لا يقلُّ شعره رواءً وحسنَ ديباجة عن شعر شوقي
وحافظ وأحمد محرم.

وُلِدَ سنة ١٨٨٠، واعتنق منذ صباه مبادئ الوطنية، وتجلّت مواهبه الأدبية وهو في سن مُبَكَّرَة، فامتزجت الوطنية بروحه الشاعرية، وتمشّت في قصائده الغُر، وأضفّت عليها جمالاً ورونقاً وبهاءً، وجعلت لها رنيناً موسيقياً يأخذ بمجامع القلوب.

سُمي «شاعر الحزب الوطني»، واعتز هو بهذا اللقب، وسجّله في ديباجة ديوانه الذي ظهر في جزأين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٠، وأهداه إلى المرحوم محمد فريد زعيم الحزب الوطني إذ ذاك، قال في كلمة الإهداء:

رئيسي المحبوب

أما بعد، فإنني أتشرف بإهداء الجزء الثاني من ديواني إلى سعادتكم؛ لاحتوائه على القصائد الوطنية التي نظمْتُها ما بين سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٠ ميلادية، وقد اعتمدت في نقلها على الصحف التي تفضّلت بنشرها، مُبَقِّياً ديباجتها كما هي حتى لا يغرب عن ذهن القارئ على مدى الأيام وصفُ الحادث الذي نظمت القصيدة بسببه.

وإنني إذا أهديت ديواني إلى سعادتكم فكأنني أهديته إلى الأمة المصرية التي يُمثّلها حزبكم الموقر.

أحمد نسيم
شاعر الحزب الوطني

ويُعَد نسيم ثاني الطبقة الأولى من شعراء الحزب الوطني، وأوّلهم أحمد محرم، وثالث الثلاثة المعاصرين أحمد الكاشف الذي سنتحدث عنه فيما يلي، وجميعهم تبدأ أسماؤهم بـ «أحمد».

وتبدو مكانة نسيم الممتازة في عالم الشعر من قول إسماعيل صبري شيخ الشعراء في تقرّيب الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٨:

لك في الشعر يا «نسيم» معانٍ باهراتٌ تحار فيها العقولُ
كلُّ بيتٍ يُطل منه على أفٍّ هَامُ أهل النُّهى مُحِيًّا جميلُ

ولما ظهر الجزء الثاني سنة ١٩١٠ قرَّظه صبري أيضًا ببيتين آخرين رقيقين، قال:

أيُّ غصنٍ في الروض هزَّ «نسيم» نُثِرَتْ منه هذه الأزهارُ
حبذا شعره الجنِّي وأهلًا ببيانٍ تزهى به الأشعارُ

يؤيد مصطفى كامل في قطع علاقته بالخديو

قال نسيم مخاطبًا مصطفى كامل بمناسبة كتابه إلى الخديو عباس الثاني بقطع علاقته به سنة ١٩٠٤:

خطيبَ الشرق لا تلوي العنانا	فأنت المرء أوقرهم جنانا
وأَمْضاهم إذا كتبوا يراعًا	وأذلقهم إذا نطقوا لسانا
لقد دافعت دهرًا عن بلاد	قد افتخرت بمدرِّها زمانا
وكم رُمّت العلاء لقوم مصر	وكنت أشدَّ مَنْ فيها جنانا
بقلبٍ عافَ أرزاء الليالي	كما عاف المذلة والهوانا

* * *

وجانبتَ الأمير وأنت تنوي	فعالًا لا يكون بها مُدانًا
وكم من فُرقةٍ صعبتَ فهانت	وكم من طارئٍ أخنى فهانا
فزدنا مصطفى وازدد ثباتًا	يزدك القوم شكرًا وامتنانًا
مدحتك لا لجائزة ولكن	وجدتك خير مَنْ يَهْدِي البيانا
هديةً شاعرٍ ما ظل يُطري	ويمدح فيك أخلاقًا حسانا
فكن للشرق ساعده المرجى	تزرك قصائدي أَنَا فآنا

يُهاجم المعتمد البريطاني

ومن قوله سنة ١٩٠٧ مخاطبًا اللورد كرومر لمناسبة رحيله عن مصر بعد خطبته التي هاجم فيها المصريين والإسلام:

يا لورد هل لك في الإسلام من غرض ترمي إليه بسهم منك مسنون؟

حتى تجرأت أن تنحى على الدين
ولست فينا على مصر بمأمون
إلى الإله بقلب منك محزون
تهمي عليك بزقوم وغسلين

هجوت قومي وما فارقت أرضهم
رأيت أنك لست المرء تُصلحنا
غادرتها وهي للتقرير صارخة
فلا رماك الحيا إلا بداجنة

يُمجّد الشرق ويحزن لحالته

قال يُمجّد الشرق ومصر ويحزن لحالتهما:

وما همّ حتى أقعدته نوائبه
ولم يكفهم أن الزمان يُحاربه
وترهف فوق الناصيات قواضيه
مآثره مشهورة ومناقبه
فماجت به بطحاؤه وسباسبه
وأفق مَعَالٍ لا تغيب كواكبه

تداعت رواسي الشرق فانهار جانبه
تُحاربه الأعداء من كل جانب
تحدُّ على هاماته شفراته
وحسبك أن الشرق في كل أمة
تخرّج منه الفاتحون لأرضه
وكم كان للشمس المضيئة مطلقاً

إلى أن قال:

على غيرة أبنائه وأجانبه
وتهمي عليه باللُّجين سحائبه

وما الشرق إلا موطنٌ عبئت به
أضاعوا جمى يجري النضار بأرضه

يُهاجم أسرة محمد علي

وقال سنة ١٩٠٨ يُخاطب مصر ويُهاجم أسرة محمد علي وهي في إبان سلطانتها:

قضوا في بلوغ المجد ما الحق واجبه
فما بات إلا وابن غيرك غاصبه
ولا خير في مالٍ من الغرب كاسبه
ولا العلم إلا سؤددٌ عزَّ صاحبه
فعند طلوع الشمس تجلو غياهبه

رئيّتك يا أرض الفراعنة الألى
«ورثت بفضل العلم عزّاً ممنّعا»
«ولا خير في عرشٍ من الغرب ربّه»
أفيقي فما في الجهل إلا مذلة
أنيري ظلام الشرق بعد انسداله

ولا تقنطري من رحمة الله مرة
وددتُ بلادي أن تسود بنفسها
إذا شيمَ من برقِ انخدالك خالبه
لأكتب فيها خيرَ ما أنا كاتبه!

يدعو الأمة إلى الجهاد

ومن قوله سنة ١٩٠٨ يدعو الأمة إلى الجهاد والذود عن حقوقها واستقلالها:

هلمَّ نُدافع جهدنا عن بلادنا
كذلكم الرُّبَال تعرّوه سورة
«ومن فقدَ استقلاله عاش هينًا
هلمَّ نخض غمر الصعاب إلى العلا
عسى يسعد الجد الذي مال نجمه
ألم نكُ كاليونان أهلاً لمجلس
ألم نكُ كالبُلغار والصرب في الجَا
ألم نكُ أرقى من ممالك لم تقم
أليست بلاد النيل أول أمة
علوم وأخلاق وفضل وهمة
دفاعَ كماءٍ أو ضراغمٍ غابٍ
إذا احتلَّ يومًا خيسه بذئابٍ
يُسام صنوفًا من أذى وعذابٍ
ونُفِرَق من الإقدام كلَّ عُبابٍ
وتُشرق شمس المجد بعد غيابٍ
يُدافع عنا عند كلِّ مصابٍ
وأخصبَ منهن اخضرارَ جنابٍ
لدأبٍ ولم تهمم لأَيِّ طَلابٍ
أماطت عن العرفان كلَّ نقابٍ
وتذليلُ أوعارٍ ودكُّ صعابٍ

وقال يُفندُ مطاعن كرومر على المصريين:

فحتّامَ ذِيّاك العميد ينوشنا
فطورًا يُعادينا بتقرير كاشح
ويا ليتَه ردَّ الدليل بمثله
إذا عجز المقهور عن قهر خصمه
بناجذٍ سرحان وظفرٍ عُقابٍ
وطورًا يُناوينا بنشرٍ كتابٍ
وخَفَّض من طعن له وضرابٍ
لدى البطش لم يلجأ لغير سبابٍ

يرثي مصطفى كامل

وقال سنة ١٩٠٨ في رثاء مصطفى كامل من قصيدةٍ تزيد على ستين بيتًا:

ما بالُ دمعك لا هامٍ ولا جاري
هل اكتفيت بما في القلب من نارٍ؟

شعراء الوطنية

خَفَّتْ دموعك من عَيْنَيْكَ واستتريت فيها لواعج أحزان وأكدارِ
ضاع الصواب ونفس المرء ساهمة ما بين أفضية تجري وأقدارِ

* * *

يا طائرَ البين لا قَرَّبْتَ من سكن ولا هدأت بأفنان وأوكارِ
نعيتَ خيرَ فتى كنا نوِّملُه يوم الرجاء لأوطان وأوطارِ
فليمرح الذئب ما شاءت مهانته فقد غَفَّت عنه عين الضيغم الضاري
لا أَيْدِ الله أعداءَ أذلَّهم حتى أقاموا بدار الذل والعارِ

* * *

يا بائعَ الصبر إن الناس في جزع فَبِعَ لهم كل مثقال بدينارِ
ما زال يدأب حتى خانَه قَدْرُ ألقى عليه عصا دأبٍ وتسيارِ

وقال يصف الجنازة واحتشاد الجموع فيها:

أعزَّزْ على حامليه فوق أعينهم أن يرجعوا بأكفٍّ منه أصفارِ
كأنما النعش عرشُ زانه مَلَكُ يمشي الهوينى بإجلال وإكبارِ
كأنما الناس حول النعش مائجةً أمواجُ مضطربِ الآذني زخارِ
فلو يعدُّون ما أوفى بهم عدد كصيبِ القطر لا يُحصى بمقدارِ
كأنما لجبُّ الباكين من هلع هزيمُ رعدٍ أجشَّ الصوت هذارِ
كأنما الأرض قد سدَّت طرائقها بالناس من ثابت فيها وسيارِ

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩٠٨ في رثائه:

أملُّ نأى عن أرض مصر وزالا أصمى القلوب وقطَّع الأوصالا
يا نائباً عنا وكنت محسداً فينا كما كنت الشريفِ فعلا
مدَّت إليك يد المنون فأنشبت بقلوبنا قُضْباً لها ونصالا

إلى أن قال:

إننا سنُبقي ذكر فضلك خالداً
قد كنت أفضل من يزود لسانه
فليسقِ شُبوبُ الحيا لك مُحشاً
لنكون في صدق الوفاء مثالا
عنا وأصدق من يقول مقالا
قد ضم مجداً بينه وجلالا

يؤيد فريداً في جهاده

قال سنة ١٩٠٨ مُخاطباً محمد فريد رئيس الحزب الوطني مؤيداً له في جهاده:

اجهز برأيك إن الحق قد غلبا
أرى المضلين قد زاغت بصائرهم
سر في طريقك لا تحفل بدمهم
ولا يهزك مغرور إذا غضبا
لا أنت ترجو افتقاراً منهم نشباً
ولا تؤمل من إحسانهم رتباً
لا زلتَ بالحق بين القوم تذلهم
حتى تراهم وكلُّ في الوغى هربا
فاهزم كتابئهم وافلل مضاربهم
واسلل يرَاعك واكتب عنهم العجبا

يُنَدِّد بوزارة مصطفى فهمي

وقال في نوفمبر سنة ١٩٠٨ يُنَدِّد بوزارة مصطفى فهمي على إثر سقوطها، وكانت موالية للاحتلال:

ما للوزارة ذات الضعف والفشل
وزارةً بلغتْ بالوهن غايتها
ترحلتْ غيرَ مبكِّي على أحد
وزالةٌ بلغتْ بالوهن غايتها
إن زال مجد الفتى أو زال منصبه
ترحلتْ غيرَ مبكِّي على أحد
يا هيئة الصُّم بيني غيرَ راجعة
إن زال مجد الفتى أو زال منصبه
وزارةٌ ما لها في الخير صالحة
ترحلتْ غيرَ مبكِّي على أحد
«كانت تماثيلَ بين القوم قائمة
ترحلتْ غيرَ مبكِّي على أحد

يَنذِدُ بالخديو عباس

وقال في ديسمبر سنة ١٩٠٨ حين تنكّر الخديو عباس الثاني للحركة الوطنية، وحيلَ بين جموع الشعب والاقتراب من موكبه لمطالبته بالدستور:

خطوبٌ ما لها أبداً نصيرُ وأمرٌ حلٌّ في مصرٍ خطيرُ
لئن كُرِهَتْ حياة الشعب يوماً فخيرٌ لو تفتّحت القبورُ

* * *

أيا ربَّ الأريكة قد رضينا بأنك لا تُزار ولا تزورُ
وهَبْنَا نطلب الدستورَ جهراً ألا يُرضيك ذِيَاك الشعورُ؟
أغيرُك في الملوك وأنت أدرى له شعبٌ على البلوى صبورُ؟
فهل خدَعْتَ في البهتان ناسُ أرادوا أن يسوء بنا المصيرُ؟
«أمرٌ يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها الخبيرُ»

يَمجِّدُ الوطنية في رأس السنة الهجرية

وقال سنة ١٩٠٩ في الاحتفال بعيد رأس السنة الهجرية ١٣٢٧ الذي أقامته لجنة الحزب الوطني الفرعية ببولاق بمدرسة الشعب، يمجِّدُ الوطنية ويُخاطبُ فريداً:

قد مثَّلونا في التعصب مثلما قد شاءت الآثام والأوزارُ
كذبٌ قد ابتدعوه حتى ما لهم في مصرٍ إلا الكيد والإضرارُ
بأنَّ الضلال من الهدى وبدا لنا في منهج الحق القديم منارُ
يا أمةً ثَبَّتَتْ على كيد العدى لا تجزعي إن الثبات فخارُ
«سيري إلى طلب «الجلاء» ولا تني نُمْنَح من العلياء ما نختارُ»
أفريدُ لا تخذل بلادك بعدما جُمِعَتْ لديك أولئك الأنصارُ
هذي الشبيبة قُل لها لا تحجمي ما في ثبات المُقَدِّمين شنارُ
لك من يراعِ الكاتبين صوارم ولديك منهم جحفلُ جرارُ
«ترمي العداة إليك سهم سمومها ويذود عنك الواحد القهارُ»
دعهم كما شاءوا ليوم حسابهم فلهم كما شاء الهوى أطوارُ

إننا قد اخترناك خيرَ مُدافع يرضى به الرحمن والمختارُ

وفي سنة ١٩١١ ألقى قصيدة أخرى في تحية السنة الهجرية ١٣٢٩ بالاحتفال الذي أقامه الطلبة لهذه المناسبة بدار التمثيل العربي يومَ أول يناير سنة ١٩١١، وقد حضره المرحوم محمد فريد، وأشار الشاعر في مطلع قصيدته إلى ما أصاب الحركة الوطنية من اضطهاد في العام السابق، قال:

تجلّى العام فاستجلوا الهللا	فإنني شمتُهُ للسعد فلا
سأطريه متى عزّت بلادي	وقد رُزقت كما رُزق الكمالا
وأمدحه متى قمنا بمصر	وأرجعنا لها ذاك الجلالا
فأما والبلاد وساكنوها	يزيد الدهر حالتهم نكالا
فلمست بناظم فيه قريضًا	ولا أنا قائل فيه مقالا

* * *

إلامَ نطالِب الأعوام خيرًا	ولم تنعم لنا الأعوام بالآ؟
تمر وتنقضي منها ليالٍ	بأرزاء الزمان غدت حُبالي
وتلك ممالك الإسلام كادت	صروف الدهر تخبلها خبالا
«فلمست أخصها بالذكر عنا	ونحن من البلاء أشد حالا»

* * *

أيا عامًا تقضَى بئس سهم	رَميت به الغواني والرجالا
فقالوا هل صروف العام كانت	نزاعًا قلت بل كانت نزالا
همومٌ لو رشقت بها فؤادًا	لكانت في جوانبه نبالا
لقد حمَلتنا للضيم عبئًا	ثقيلاً لا نُطبق له احتمالا
وقد أجريت دمع القوم حتى	كأنا كلنا قومٌ ثكالي
ولولا ذكر أحمد ^١ كل عام	لما صُغنا لك الذُكر الحلالا

^١ يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام.

المضي في الجهاد

أرى فِرْقًا قد افتُرقت بمصر
أناسٌ أخلصوا من بعد زيغ
وأقوامٌ قد ارتدوا جهارًا
وقال الناكصون كفى غُلُوءًا
خلائق في المكارم لم يمدوا
أولئك عصابة بالخزي باءوا
ورامت عن أوصلها انفصالا
وثابوا بعد أن أَلِفُوا الضلّالا
فساءوا في عواقبهم مآلا
وإلا ذقتمُ منه الوبالا
يمينا للفعال ولا شمالا
فسمُّوا الخزي والجبن اعتدالا

وقال يُخاطب الشباب:

أنابتة البلاد وخير نشء
عليكم بالإخاء ولا تفلُّوا
«سيندب حظُّه الوطنُ المفدى
فجذُّوا في علومكم صغارًا
فمن رامَ الكواكب والدراري
«وإن صرتم رجال النيل يومًا
وذودوا عنه ما اسطعتم برأي
وما زال الرئيس^٢ لكم كفيلاً
وكونوا للأجانب خير عون
إذا عشتهم وإياهم بخير
لقد أوجزت خيفةً أن يقولوا:
غَدَوْا للنشء بعدهم مثالا
عُرَى القربى فتنخذلوا انخذالا
إذا لم تحسنوا عنه النضالا»
ولا تشكو السامة والكلالا
بلا علم فقد رامَ المحالا
فلا تنسوا بربكم القتالا»
حصيف واجعلوا الحسنى جدالا
على رغم الخطوب ولن يزالا
تزيدوا عروة الود اتصالا
محوتهم عنكم قليلًا وقالا
نسيم في قصيدته تغالى

^٢ يريد الزعيم محمد فريد، وكان حاضرًا الاحتفال، وكانت النيابة العامة قد استدعته لاستجوابه في تهمة صحيفة باطلة، ثم أحالته إلى محكمة الجنايات، وقد حوِّك فعلاً وقضت عليه المحكمة ظلاً في ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر.

الجهاد في سبيل الدستور

وقال يستحث الأمة على طلب الدستور وعلى الاتحاد والثبات في ميدان الجهاد:

عنكم شفار الظُّبا مخضوبَةً بدمٍ	فلا تفكُّوا عرى القُرْبى ولو رجعت
فتقرعوا السن من ذل ومن ندمٍ	ولا تُضيعوا من الدستور فرصته
أو تسأموا فاحتمال الذل في السأمِ	إن تئسوا فانتهاء اليأس مسكنة
قومٌ نيام وشعبٌ غيرٌ ملتئمٍ	ما نال قط المعاني وهي دانية
مع الهوان إذا كنتم ذوي شممٍ	خيرٌ لنا الموت من عيش نُكابِده

ذكرى مصطفى كامل

وقال في فبراير سنة ١٩٠٩ في ذكرى مرور العام الأول على وفاة مصطفى كامل، وقد ألقى هذه القصيدة في دار اللواء بين يدي محمد فريد وأعضاء الحزب الوطني قبل أن يتحرك موكب الذكرى بالمسير:

رفقاً بنفسك فالقضاء محتّمٌ	ما بال عينك بالمدامع تسجّمٌ
بين الحشا جرحاً يثور فيؤلمٌ	قد عادت الذكرى فجدد عودها
كالليل أقبل وهو أسود أقتمٌ	يا يومَ كامل كنت يوماً قاتماً
بالنحس أنذر وجهها المُتهجمٌ	يا يوم لا كانت طلائعك التي

وختمها بقوله مخاطباً محمد فريد:

من شاعر لعقود مدحك ينظمٌ	أفريدُ يا ابن الأكرمين تحية
مدُّوا إليك يد الولاء وسَلِّمُوا	أفريدُ يُقرئك السلامَ معاشرُ
بعزيمةٍ قد أصغرت ما استعظموا	حصّنت بيضتهم وصنّت ذمارهم
إذ أنت بينهم الأجلُّ الأحزمُ	ركبوا مطايا الحزم نحو رئيسهم
فالرأي في بعض المواقف مخذمٌ	فاضرب برأيك في مواقف جمّة

يُهاجم الاحتلال في إبان سلطانه

قال سنة ١٩٠٩ من قصيدة يحمل فيها على الاحتلال ويفضح نكته بعهوده ويستنهض الهمم للجهاد، وقد بدأها يستصرخ الإنسانية لتمد إلى مصر المُكَافِحة يد العون والتأييد، وهي من عيون الشعر الوطني:

يا ناشرين لواء العدل في الأمم	اللّه في أمة أنت من الألم
مُدوا إلينا يدًا بيضاء نشكرها	عند التحدث شكرَ الروض للديم
إننا مُنيننا بأقوام جبابرة	ما بين مُغتصب منهم ومُحتكم ^٣
لو استطاعوا لَساقونا أمامهم	ما بين مُتّهم منا ومُجترم
جاءوا إلينا وفي أيمانهم شرف	يموّهون به في العهد والقسم
قالوا لنا إننا جئنا بلادكم	نبني لكم ركنٌ مجدٍ غير مُنهدم
حتى تخذرت الأعصاب وانسدلت	على العقول سجوفُ البطل والوهم
ولم يزالوا على هذا الدعاء وهم	لا يقصدون سوى الإخماد للهم
حتى إذا انتبهت منا جوارحنا	وأدرك الحال فهمُ الحاذق الفهم
حكّوا القلوب فأذكوها وربّتها	أدّى إلى النار حكُّ البارد الشيم
فلا عهود لهم تُرعى ولا ذمم	كما استباحوا لدينا النكت في الذمم
صبّوا على مصر سوطًا من تعنتهم	وأججوا في حشاها جمر بغيهم
هم أخرجونا بهذا الضيم من زمن	فإن هممنا بدفع الضيم لم نلّم

* * *

يا قائمين بأمر النيل حسبكم	ما أخرج القوم من ظلم ومن غشم
ناموا هنيئًا قريري العين إن لنا	عينًا من الشعب لم تغفل ولم تنم

وقال فيها يدعو الشعب إلى الاعتماد على نفسه:

«وأنت يا شعب وادي النيل كن حكمًا فليس غيرك من مُستنصفٍ حكم»

^٣ يريد المحتلين.

كم أمةٍ حكمت في مصر وارتحلت
سَل أمة الروم هل أبقت لنا أثرًا
مضوا ولم يتركوا في مصر مآثرة
هذي عجائب هذا القطر من زمن
عنها حليفةٌ جدٌ بعدُ لم يقم
يبقى على الدهر أو سَل أمة العجم
يُنبيك عنها لسان النيل والهرم
وتلك حالات وادي النيل من قديم

يُحيي جريدة العلم

قام في سنة ١٩١٠ خلاف على ملكية «اللواء» بين بعض ورثة المرحوم مصطفى كامل، طُرح أمره أمام القضاء، وعُيّن حارس قضائي على اللواء، وكانت صحيفة الحزب الوطني، وأراد الحارس أن يتدخل في تحريره وتوجيه سيايته، فرفض المرحوم محمد فريد هذا التدخل، وأنشأ جريدة «العلم» وجعلها لسان حال الحزب الوطني، وابتدأ ظهورها يوم ٧ مارس سنة ١٩١٠، فحيّاها نسيم بقصيدة بديعة، قال:

ألا فليخفق «العلم» الجديدُ
أيا علم البلاد عليك مني
أرى الأعلام معقلُها بناءً
بربِّك خبِر الأقوام عني
رفعت لنا وبالأبصار شكُّ
فجئنا من لدنك بكلِّ فالٍ
«وإن كنا نرى الأعلام شتى

يمينا إن طالعه سعيدُ
سلام الله ما خفقت بنودُ
ومعقلُ الجوانح والكبودُ
بما تنوي الوزارة والعميدُ
من الشبهات والأيام سودُ
تحدها التيمُّن والسعودُ
فأنت وربُّك العلمُ الفريدُ»

* * *

أيا «علم» البلاد أرى احتلالاً
أصرَّ على الجفاء ونحن شعب
وكم من جذوة في القلب شبت
«فقل لهم أثيروا كل عسف

كأنا عنده نفرٌ عبيدُ
أضرَّ به التعسف والوعيدُ
فلم يدرك تأججها الخمودُ
فريحُ العاسفين لها ركودُ»

٤ وزارة محمد سعيد. والعميد: الدون جورست معتمد بريطانيا.

شعراء الوطنية

متى ينأى احتلال النيل عنا	وتصدق منه هاتيك الوعود؟
قَصُوا فينا بما شاءوا وصدُّوا	كما راموا فهل نفع الصدود؟
لقد فرحوا بما أُوتوا فجاروا	وللباغي إذا عقلوا حدودُ
ضروب في المكاييد يوم تُحصى	عليهم ليس يُحصيها العديُدُ
«وكم ودُّوا الشقاء لأهل مصر	كما شقيت بظلمهم «الهنود»
«مكاييد يفزع التاريخ منها	ويصدف عن إعادتها المُعيدُ»

* * *

أقول الحقَّ لا أخشى انتقاماً	يهمُّ إليه «طاغية» مريدُ
أإنَّ المَضميم فقال رفقا	تُشدُّ له السلاسل والقيودُ؟
إذا مدُّوا حبال السوء يوماً	فإن الله يومئذٍ شهيدُ

* * *

أيا «علم» البلاد إليك شعراً	تُرَدِّده التهائم والنجودُ
ودونك عقد نظمي من جمان	ومن دررٍ يقال لها قصيدُ
يريد الشامتون بنا نكالا	«ويأبى الله إلا ما يريدُ»
فكنُ في الحق مثل الحق يمضي	يكنُ لك بينهم بأسٌ شديدُ
ولا تتبّع هواهم بعد علم	يضلوا في الغواية أو يزيدوا
فليس بنافع فيهم رشاد	ولا من بينهم رجلٌ رشيدُ

إلى الزعيم محمد فريد في سجنه

في سنة ١٩١١ حوِّك الزعيم محمد فريد أمام محكمة الجنايات بتهمة أنه حبَّذ الجرائم وأهان الحكومة إذ كتب مقدمة لكتاب «وطنيتي» الذي تضمَّن قصائد نظمها الأستاذ علي الغاياتي، ومع أن هذه المقدمة كتبها الزعيم دون أن يطلَّع على محتويات الكتاب وقبل أن يُتِم المؤلف وضعه، ثم سافر الزعيم إلى أوروبا في مايو ولم يظهر الكتاب إلا في شهر يوليو، وليس في المقدمة ما يقع تحت أي نص من قانون العقوبات، ومع ذلك فقد أقامت عليه النيابة الدعوى العمومية، وكان الغرض من محاكمته إرهابه وتهديد أنصاره واضطهاد الحركة الوطنية، وقد حُكِم عليه في ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر في هذه التهمة الباطلة، ونُفِّذ فيه الحكم يوم صدوره.

فنظم أحمد نسيم قصيدة من روائع الشعر الوطني بعنوان «إلى الرئيس في سجنه»
حيّاه فيها أبلغ تحية، وعبر عن الشعور العام بإزائه أصدق تعبير، قال:

يا ليت سجنك لم يكن بمقدّر	فاصبر على المقدور ستّة أشهر
قد جلّ رزه الشهر حتى خلّته	بعض الرثاء وأنت لمّا تُقْبِر
لولا احترام الحاكمين وحكمهم	لجعلته مثل الشواظ الأحمر
أقصرت فيما قلت حتى لم تسل	أُقصراً أم كنت غير مُقصرٍ
وتركت أقيال الدفاع فلم تُعن	بالمدره المشهور أو بالأشهر
يكفيك عطفُ العالمين ووجدهم	من أكبر يطاء الثرى أو أصغر
حتى لقد ماد «البقيع» و«يثرب»	وتزلزت أرض «الصفاء» و«المشعر»
والتّاع قلبُ «محمد» لمحمد	رب المحامد والعلا والمفخر

* * *

إني نظرتك في اتهامك واقفاً	فظننت أنك واقف في المنبر
لتقول شعبي أو بلادي إنني	لهواكما بين اللظى المتسعر
ولقد رأيتك جالساً مستبسلاً	خلف الشباك جلوس من لم يُذعر
فرايت في هذا الشباك معانياً	فهي العرين وأنت أجراً قسور
ولقد لمحتك ماشياً في ثلة	تعتز بينهم بقدر أوفر
فسألت هل هذا المُسور «خالد»	أم «جواهر» يختال بين العسكر

* * *

أفريدُ يا ابن الأكرمين تحية	من شاعرٍ بسوى الأسي لم يشعر
في مصر قومٌ ناووك بشرهم	فاردد مكايدهم إليهم وانحر
ذكروك في حب البلاد وأهلها	ما قيمة الإنسان إن لم يُذكر؟
«لو كنت ممن تاجروا بضميرهم	للعبت لعباً بالنضار الأصفر»

° يُشير إلى إيجاز الفقيد في جوابه على أسئلة المحكمة وعدم استعانتة بمحاميين للدفاع عنه إيماناً منه ببطلان التهمة وتحدياً للمؤامرة التي اتخذت شكل المحاكمة.

«أو كنت ممن يطلبون مراتباً لَشَاوَتْ في العلياء نجم المشتري»
وسبقت أجرام السماء وفُتِّها من مُظلمٍ في ذاته أو نِيرِ

* * *

«محمد» كُن في النوائب ضيغماً مُستجِماً للطارئ المُتنمر
إن بتَّ أنت من الفوادح جازعاً ما فضل مفتول الذراع غضنفر؟
أشرق لعلك بين سجنك مُشرقاً تهدي سبيل الطارق المُتنور
«فالشعب بعدك بات ينتجع العلا وغدا مُناه ورود هذا الكوثر»
أنعم بسؤددك العظيم ومرحباً بك من كريم الأصل زاكي العنصر
أعزز علينا يا ابن «أحمد» حالة جاءت بعيش بالهموم مُكدرِ

* * *

فكانه بذرٌ يُحجِّب نورَه ظلّما تُغيم في السماء كنهور
أو درّة مكنونة في زاخر أو دَمعة مخبوءة في مَحجر
أو زهرة فيحاء خيف ذبولها وضياع نفحتها إذا لم تُستَرِ
أو ناظر غمضت عليه جفونه حذرًا عليه من القذى والعِثِرِ
أو أنت سر الكائنات مُحجِّب أو بعض مكنون القضاء المضمِرِ

إلى أن قال:

أحمدُ ما أنت أول مُبتلَى بالفادحات من الزمان الأكدرِ
إني عهدتك خير من يُسدي الوري رأيًا وخير مفكّر ومدبّرِ
فاشهر لدى الأهوال عزمًا صادقًا فلرُب عزم كالْحُسام الأبتَرِ
ما الناس إلا اثنان ذاك ميسّر للصالحات وذاك غير ميسّرِ
جلّ الإله فقد أَرانا علمه من كل شيء في الوجود مسخّرِ
بانّت مراحمه بأكمل رونق وبدت مآثره بأكمل مظهرِ
لولا الفؤاد وما أصاب دفينه ما كنتُ عن ذِكراك بالمتأخِرِ
لولا مراس الداء صغتُ قصيدة أربت على شعر الأديب المُكثِرِ

* * *

عفوًا رئيسَ المخلصين فإنني
قد جئتُ أزجي في القريض خريدة
عطرية فيحاء طورًا عن شذا
فيها معانٍ صاغها لك مُبدِع
فاخلع عليها من خلائك نفحة
لي فيك ملء الخافقين لآلئ
فعليك مني ما حييت تحية

ما رمت إلا جل عفوك فاغفر
قد بات يحسدني عليها «البحثري»
وَرِدَ وطورًا عن أريج العنبر
جم البيان خياله لم يُحصِر
حتى تضوع بنفح مسكِ أذفر
زهراً تباع بها الرواة وتشتري
وسلام كسرى في الملوك وقيصر

يُحيي الوحدة الوطنية

قال سنة ١٩١٩ يُحيي الوحدة الوطنية والتآخي بين المسلمين والأقباط:

أقباط مصر ومسلموها ضُمَّهم
الناشئون على الطهارة والتقى
والخالدون إلى السكينة كلما
برح الخفاء وبان أنا أمة
إننا لَنرجو أن نعيش بغبطة

دين المسيح وشرعة الإسلام
والقائمون بمصر خير قيام
جاء الزمان بشدة وعُرام
لم تبغ غير محبة ووئام
تُحيي السلام وتنتهي بسلام

يرثي فريداً

قال سنة ١٩١٩ من قصيدة في رثاء محمد فريد:

رمانا الزمان بإحدى الكُبر
شهيْدٌ تُصارِع في حومة
وخلف من بعده أمة
أتى جثة سافرت للبلَى
مُنَى أوردته حياض الردى
تعلَّقها عند شرخ الصِّبا
وأيّنع في روضها غرسه
وأيّ امرئ عاش أقصى المدى

ومنه العظات ومنه العبرُ!
رماه القضاء بها والقدرُ
كسِرِبِ النجوم فَقَدَنَ القمر
ولم يسترح من عناء السفر
ووردُ الردى ما له من صدر
ولم يجفُّها عند مس الكبر
ولم يبقَ إلا اجتناء الثمر
فنال من العيش أقصى الوطر؟

إلى أن قال:

هنيئًا لميتٍ نعتَه العُلى
وحسبُ فريدٍ مُنَى نالها
فتى أغمض الموت أجفانه
أفاض على قومه ماله
طويلُ نجادِ الجدا عائل
رأى الحرص عارًا على نفسه
وكان بصيرًا بعقبى الندى
وأخلد ما للفتى ذكره
وكم صامتٍ ناطق في الثرى
وليس الذي ذكره خامل
وليس بميتٍ أغرَّ اسمه
خطيب المنابر منطيقها
فإن يكبُ يومًا بمضماره
وما زال ينهب في عدوه
وحتى دَهته بأعناتها

وختمها بقوله:

أرى «كاملاً» راح في شرخه
«زعيماً بلائٍ خلّت منهما
عزاء العُلا عنهما أمة
وشعبٌ سعى نحو آماله
وما من ضعيف القوى واهن
وأودى «فريد» حميد الأثر
«أبو بكر» مات وولّى «عمر»
تنادت لتجديد مجدٍ دثر
بعزٍّ توقّد حتى استعر
تشبّثَ بالحق إلا انتصر

يُحيي جريدة الأخبار

قال سنة ١٩٢٠ يُحيي المرحوم أمين الرافعي لمناسبة إصداره جريدة الأخبار:

يا وحيّ أسعِفني بنظم قلادة	صِيغَتْ لآلِئُهَا مِنَ الْأَشْعَارِ
هذا «أمين الرافعي» ومن له	خير السجايا الغر والآثارِ
يا «رافعي» لأنت أصدق مُخلص	للنَّيلِ في الإعلان والإسرارِ
جرّد يراع المخلصين ودّد بها	بطش القوي وصولّة الجبّارِ
واحذر على «الأخبار» من آفاتها	إن «الرواة» لآفةُ الأخبارِ
اليوم هنأتُ البلاد بكاتب	ملكْت يداه صحيفة الأحرارِ

يُنَدِّد بالانقسام ويدعو إلى التآخي

وقال سنة ١٩٢١ حين اشتد الانقسام بين سعد وعدي وأنصارهما، يُنَدِّد بهذا الانقسام ويدعو إلى توحيد الصفوف:

قالوا انقسمنا فقلنا فتنّة عمم	بها تُفلّ مواضي العزم والهمم
ولم نكنْ غيرَ جيشٍ راكبٍ طرفاً	شَتى المسالك من سهل ومن أكم
حتى يرفّ لواء الفوز مُنْعَقِداً	على الزمان بحق غير مهتضم
وكيف نُقسَم والتاريخ يُنبئنا	أن الفلاح لشعبٍ غير مُنقسم
فحاذروا أن تحلُّوا عقد شملكم	فتقرعوا السن من حزن ومن ندم
ونظّموا ما استطعتم من صفوفكم	فالجيش إن يعُره الإخلال ينهزم
ولا أُحدّثكم عن إرثكم عجباً	فمنه كان بزوغ المجد والكرم

* * *

والمجد يُدرِك بالأعمال مُنَجِّزة لا يُدرِك المجد بالألفاظ والكلم

أحمد الكاشف

١٩٤٨-١٨٧٨



من الرعيل الأول من شعراء الوطنية، وُلِدَ سنة ١٨٧٨ بالقرشية من بلاد مركز السنطة غربية، وهو ابن المرحوم ذو الفقار الكاشف، وجدّه من ضباط الجيش المصري الذين خاضوا غمار المعارك في عهد محمد علي، تلقّى علومه الأولية في منزل والده

شعراء الوطنية

بالقرشية، ثم التحق بمدرسة الأقباط الابتدائية بطنطا حتى استوفى دراسته، ثم عاد إلى بلدته وأقام فيها، ومالت نفسه منذ صباه إلى الشعر والأدب، وكان الشعر طبيعة له وسليقة، فعكف على المطالعة وأكبَّ على كتب الأدب ودواوين الشعراء المتقدمين يدرسها ويستوعبها، فحاكاهم في الأسلوب والبلاغة، واتجهت نفسه إلى نظم الشعر في المعاني الوطنية، فجادت قريحته بشعر وطني من الطراز الرفيع، ووقف حياته على هذا اللون من الشعر، وعاش عمره عيوقاً أبيعاً، مُعتكفاً في بلدته «القرشية»، وفي ذلك يقول عن نفسه:

ولقد تحاشيتُ المدائن زاهداً وبدوتُ أطلب وحدة وسكونا
لا أرتضي غير الطبيعة مأنساً والذكر كأساً والقريضَ خدينا

وله قصائد عصماء نظمها في مختلف المناسبات، وعبر فيها أبلغ تعبير عن أحاسيسه ومشاعره الوطنية، وظل وفياً لمبادئه طول حياته، وتألق شعره في سماء الأدب والوطنية، وبلغ الذروة في هذا المجال.

اتفاقية السودان

قال عن اتفاقية السودان التي أكرهت مصر على إمضائها سنة ١٨٩٩ على أثر انتصار الجيش المصري في السودان:

انتصرنا وما الذي قد جنينا ه من النصر بعد طول العناء؟
ما جنينا سوى «الوفاق» جزاءً إن هذا الوفاق شرٌّ جزاءٍ
«وإذا شارك الضعيف قوياً» في منالٍ فحظُّه كالهباءِ»

الجندي في المعركة

وطني أنت الحبيب الدائم لك في قلبي المقام الأشرفُ
وغرامي بك طبعٌ لازم سرّني أني به متّصفُ

* * *

لك أَسْعَى دَائِبًا مجتهدًا برجاءٍ ثابتٍ مُقتدرٍ
لا أُبالي في طريقي أبدًا طال ليلي أو تمادى سهرِي

* * *

وطني أفديك بالروح إذا مسَّك الدهر بسوءٍ لا يُطاقُ
وأرى اللذة في دفع الأذى عنك بالنيران والبيض الرقاقُ

* * *

دُمتَ يا نيل أبرَّ الأنهر بنفوسٍ كم رأت منك وفاءً
دُمتَ تجري يا شبيه الكوثر مُهدي الوادي هناءً ورخاءً

* * *

دمت يا صحراء ميدان الجنود بين قُطْرَيْكَ اللذَيْن اتَّحدا
مُظهرًا للبأس من بيضٍ وسود يضمن النصر لنا والسوددا

قصيدته في اللورد كرومر سنة ١٩٠٧

لما رحل اللورد كرومر عن مصر على أثر حادثة دنشواي، شيعه الكاشف بقصيدة ندّد فيها بطغيانه وجبروته، قال:

أعيا عزائمك القضاء الأغلبُ وطوى صحيفتك الزمانُ القلبُ
أرأيت كيف يُفاجأ السبّاق في غاياته ويُقاطع المتوثّبُ
ولبثت تبدو في زخارف مُخلص للقوم تُخفي ما اعتزمت وتحجبُ
غافلتهم حينًا فلم يتلفّتوا إلا ونابك فيهم والمخلّبُ

وذكر حادثة دنشواي وكيف فرح المصريون بإقصائه عن منصبه:

وختمت عهدك بالذي اهتزت له أركان «مكة» واستعانت «يثربُ»
وتنفّس الصعداء شعبٌ حاملٌ همًّا يضيق به الفضاء الأرحبُ
ماذا كسبت وأنت عنا راحل إلا الجفاء وبئس هذا المكسبُ

يُنذِر الإنجليز

وقال يُخاطب الإنجليز ويُنذرهم سوء العاقبة:

هَلَّا ذَكَّرْتُمْ مُنْتَهَى الرُّومَانِ؟	قَلَّدْتُمْ الرُّومَانِ فِي اسْتِعْمَارِهِمْ
كَمْ أَدْرِكُ الْمُتَمَادِي الْمُتَوَانِي	الْيَوْمَ سَوَّدَدُكُمْ وَسَوَّدَدُنَا غَدًا
دَارَ الزَّمَانِ وَحَالَتِ الْحَالَانِ	رَحِمَاكُمْ فِينَا لِنَذْكُرْكُمْ إِذَا
لَا عُدَّةَ الْجِيرَانِ وَالضَّيْفَانِ	إِنَّا لَنَرْجُو مِنْ بَنِينَا عُدَّةَ

يُنذِرُ بوزارة مصطفى فهمي

قال في أبريل سنة ١٩٠٨ يدعو وزارة مصطفى فهمي إلى الاستقالة، وكانت بغیضة إلى الشعب:

يَعِيشُ فَنَرْجُوهُ وَيُقْضَى فَنَجْزِعُ؟ ^١	أَفِي كُلِّ يَوْمٍ يَشْهَدُ النَّيْلُ نَابِغًا
وَلَيْسَ لَكُمْ فِي مَاتَمِ الْمَيِّتِ مَفْزَعُ	وَلَيْسَ لَكُمْ فِي مَوْسَمِ الْحَيِّ مَظْهَرُ
فَهَلَّا شَعَرْتُمْ وَهِيَ تَشْكُو وَتَضْرَعُ ^٢	لَقَدْ سَنَمْتُ تِلْكَ الْكَرَاسِيَّ مُكَنَّاكُمْ
مَنْ الْأَمْرُ إِلَّا أَنْ تَذَلُّوا وَتَخْضَعُوا؟	وَهَلَّا اعْتَزَلْتُمْ مَنْصَبًا لَا يُنِيلُكُمْ
أَضُرُّ مِنَ الْعَادِيِّ عَلَيْنَا وَأَشْنَعُ	أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَمُوتُوا وَأَنْتُمْ
وَيُكَبِّرُكُمْ أَبْنَاءُ مِصْرَ وَيَرْفَعُوا	فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ يَعْفُوَ النَّيْلُ عَنْكُمْ
إِذَا أَرْعَدَ الْجَبَارُ لَمْ يَتَزَعَّزِعُوا	فَخَلُّوا زَوَارَاتِ الْبِلَادِ لِأَهْلِهَا
وَمَرْحَمَةُ ذَاكَ الشَّهِيدِ الْمَشِيعُ ^٣	إِذَنْ لَرَأَيْتُمْ مَا رَأَى مِنْ كَرَامَةِ

^١ يُشِيرُ إِلَى مُصْطَفَى كَامِلٍ وَقَدْ تُوُفِيَ فِي فِرَايِرِ سَنَةِ ١٩٠٨.

^٢ مَكَثَتْ وَزَارَةُ مُصْطَفَى فَهْمِي تَتَوَلَّى الْحُكْمَ ثَلَاثَةَ عَشْرَ عَامًا مِنْ نَوْفَمْبَرِ سَنَةِ ١٨٩٥ إِلَى نَوْفَمْبَرِ سَنَةِ ١٩٠٨، وَكَانَ عَهْدُهَا خُضُوعًا وَتَسْلِيمًا لِلْإِغْتِلَالِ الْبَرِيطَانِي.

^٣ يُشِيرُ إِلَى مُصْطَفَى كَامِلٍ.

يَمَجِّدُ الْفَلَّاحَ وَيَمْدَحُهُ

وقال يمدح «الفلاح المصري»:

إذا استبقيتُ في الدنيا حبيباً	فخيرُ أحبَّتي فلاحُ مصرِ
كريمٌ يملأُ الوادي ثراه	ولا يلقى سوى الإجحاف أجراً!
فقيراً ما أراه شكا افتقاراً	ولو يُجْزَى على تعبٍ لأثرى
فمحرثٌ يشقُّ الأرضَ عندي	ويخرج من ثراه الخصبَ تبراً
كسيفٍ في يد الجندي لاقى	به جيشاً وحصناً مُشمخراً

صَلَّتهُ بِمُصْطَفَى كَامِل

كان الكاشف صديقاً ونصيراً لمصطفى كامل، وكان لدعوة الزعيم وتعاليمه صداها في قصائده، وكان مصطفى يقدره ويُعجِب به ويُسميه «شاعر العربية النابغة»، وكثيراً ما كان هو يردّد كلمات مصطفى كامل ومعانيها ويصوغها في قالبٍ شعري رفيع. قال عن صلة الخطابة بالشعر:

ولئن هزرتُ العالمين فإن من تلك الخطابة هذه الأشعارا

وقال يردّد كلمة مصطفى كامل «لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً»:

لو كنتُ في الخلد أو في غيره ملكاً وددت لو أنني في مصر إنساناً!

وقال في محاربة اليأس:

وما معنى القنوط وأنت حيٌّ وما معنى القنوط مع الحياة؟

وقال في قيمة الاستقلال:

«إن البلاد بلا استقلالٍ صاحبها قفرٌ لديه وإن أصبَحَ جناتٍ»

ولما مات الزعيم رثاه الكاشف بمرثية رائعة بلغت نحو مائة بيت، قال فيها:

لَهْفِي عَلَيْكَ وَقَدْ رَحَلْتَ الْيَوْمَ لَمْ تُدْرِكَ لَغْرَسَكَ فِي الْبِلَادِ ثَمَارَا
إِلَى أَنْ قَالَ يُشِيرُ إِلَى الرَّحْلَةِ الَّتِي كَانَ يَعْتَزُّمُ الزَّعِيمُ الْقِيَامَ بِهَا فِي الشَّرْقِ:

لَهْفِي وَمَا لَأَقْتِكَ «يَثْرِبَ» ضَيْفَهَا وَخَطِيبُهَا الْمُسْتَرْسِلُ الْمَكْثَارَا
لَهْفِي عَلَيْكَ وَلَمْ تَسِرْ مُتَفَقِّدًا فِي الْهِنْدِ إِخْوَانًا لِمَصْرِ حِيَارَا
لَهْفِي وَلَمْ تَنْقُلْ مِنَ الْيَابَانِ مَا يَهْبُ الْبِلَادِ حَضَارَةً وَعِمَارَا
قَدْ كُنْتَ مُزْمِعَ هَجْرَةٍ لَوْ قُدِّرْتَ قَرَّبْتَ أَعْوَانًا لِمَصْرِ كِبَارَا
وَجَمَعْتَ بَيْنَ السَّابِقِينَ وَأُمَّةٍ مَهْضُومَةٍ تَتَبَعَ الْآثَارَا

ثم يستنكر على وزراء مصر وقتئذٍ تخلفهم عن تشييع جنازة الزعيم خشية إغضاب الإنجليز، قال:

وَيْلَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ مَشْهَدِ مَشَتْ الْمَلَائِكُ حَوْلَهُ إِكْبَارَا
هَلْ يُعْرِضُونَ تَرْفُعًا وَتَكَبُّرًا؟ أَمْ يَسْكُنُونَ تَهْيُبًا وَحَذَارًا؟

ثم يصف احتشاد الأمة يوم تشييع الجنازة، قال:

يَا قَائِدَ الْأَبْطَالِ هَذَا جَيْشُكَ الْـ جَرَّارُ فَانْظُرْ جَيْشَكَ الْجَرَارَا
يَوْمَ كَيَوْمِ الْحَشْرِ ضَمَّهْمُ وَكَمْ رَحَّبْتَ فِي أَرْبٍ لَهُمْ مَضْمَارَا
فَلَنْتُمْ بَكْوًا فَلَقَدْ بَكَيْتَهُمْ وَهُمْ غُرَبَاءُ فِي أَوْطَانِهِمْ وَأُسَارَى
أَوْ يَحْمَلُوكَ عَلَى رءُوسِهِمْ فَقَدْ أَصْعَدْتَهُمْ فَوْقَ النُّجُومِ فَخَارَا

وختم مرثيته بقوله:

أَشْهَدُ مَصْرَ عَلَى عُلاكَ وَنِيلَهَا وَصَعِيدَهَا وَالنَّبْتَ وَالْأَحْجَارَا
لَوْ لَمْ تَسَلْ قَطَعَ النُّفُوسَ لَشَيَّدُوا مِنْهَا لَكَ التَّمَثَالَ وَالتَّذْكَارَا
مَا مَاتَ مَنْ وَرِثَتْ مِنْهُ أُمَّةٌ تَجْرِي عَلَى مِنْهَاجِهِ اسْتِمْرَارَا

يحمل على سياسة الوفاق، ويُعَاتَب الخديو عباس الثاني

في سنة ١٩٠٩ كانت سياسة الوفاق بين الخديو عباس الثاني وإنجلترا تُسيطر على الجو السياسي في مصر، وكان هدف هذه السياسة محاربة الحركة الوطنية، وبدأت مظاهر هذه السياسة في تنكُّر الخديو للكفاح الشعبي ومناصرته للاحتلال وسياسته. نظم الكاشف هذه القصيدة سنة ١٩٠٩ يحمل فيها على سياسة الوفاق، ويُخاطب الخديو عباس الثاني ويُعَاتِبُه ويحدِّره مغبةً الاستنامة إلى وعود الإنجليز، وهي من أبلغ قصائده وأقواها:

أهلاً وسهلاً بالوفاق ومرحباً	لو كان فيه قضاءً ما وعدوكا
إن كنتَ مُشترطَ «الجلاء» فواجبٌ	لك أن تودَّهمُ كما ودُّوكا
خير لنا أن يُعلنوا البغضاء من	أن يُعلنوا ذا الموثق المفكوكا
حاسنتهم لتردَّ عنا شبهة	كم حاربوك بها وما حربوكا؟
ما كان حُبًّا ما ترى لكنه	كتم المُخاتل سرَّه المهتوكا
أرأيت كيف وشى بكل مُهذَّب	حر فكان الآفك المأفوكا؟
اليومَ يشكونا إليك وما بنا	غير الوفاء وفي غدٍ يشكوكا
أعيا على أوهامه ووعيده	هذا المِراس فقام يستصفيكا

* * *

ماذا ترى في غاصبين يسوءهم	أنا نُجِس وأُننا نرجوكا
أتخاف شكوى المُخلصين ولم تخف	فيما مضى عدوان مُضطهديكا؟
يا ليتهم جعلوا القيود لكل ذي	نظرٍ وما انتقموا بأن حجبوكا
هل كان مُسمِمعك السلامَ مشاغباً	أم كان غيرَ مُشَوِّقٍ رائيكاً؟
إنا وإياك ابتليناهم فهل	صدقوا الورى يوماً وهل صدقوكا؟
أولى بهم وقد اتهمنا نصحهم	ألا تُصدِّقهم إذا نصحوكا

* * *

أرهم مِراسك قبل أن يستأسدوا	إنا لَنخشاهم إذا أَمَنوكا
«يا حبذا يوم «الجلاء» ولا نرى	جنِّداً يصول ولا دماً مسفوكا»

يُخاطِب اللورد كِتشنر

في سنة ١٩١١ عُيِّن اللورد كِتشنر معتمداً لبريطانيا في مصر، وكان معروفاً عنه الصلف والغطرسة، فاستقبله الكاشف بقصيدة رائعة تفيض وطنية وشمماً وإباءً، قال في مطلعها:

مهلاً لتمتحن الطريق خطاك	إن كلَّفوك لغاية إدراك
في مصر شعبٌ لا يُضام ومالكٌ	مُتفردٌ لا يقبل الإشراك
ما أنت حابس نيلها يوماً ولا	أهرامها مهدومة بقواك
الله أكبر من جيوشك سطوة	والدهر أبعد من مدى مَرمَاك

إلى أن قال:

هل يُذنب الجرحى إذا هم حاولوا	دون الضواري صيحةً وحراكاً؟
لسنا قطيعاً غابَ راعيه كما	كنا ولست الضيغم الفتاك
إن كنت طلقَ الوجه أو مُتجهماً	فالله يعلم مُنتهى نجواك
ولعل شأنك في مشيك غير ما	أسلفتَه في عنفوان صباك

إلى أن قال:

واذكُر لوادي النيل نعمته عسى	تُعطي بنيه بعض ما أعطاك
فإذا تجاوزت الكنانة فافتح	ما شاء عزمك واصعد الأفلاك
في غير مصر ذرائع ومواقع	للمُستزيد مطامعاً وعراك
ولئن غضبت على الأباة فصبرهم	أولى وأجمل من رجاء رضاك
فاعرف لهم عذر الحريص إذا هم	لم يُسلموا لك ما تنال يداك

يبشِّر بالاشتراكية

في أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعد توقيع معاهدة الصلح في فرساي (مايو سنة ١٩١٩) بين ألمانيا والحلفاء، نظم الكاشف قصيدة عصماء تناول فيها شتى المعاني السياسية والوطنية.

٤ لعله يقصد بالمالك الأمة؛ فهي مصدر السلطات ولا تقبل إشراكاً في سيادتها.

فمن قوله يبشّر بالاشتراكية:

شَتَى الشعوب وجاراها المُجارونا	للاشتركية العُقبى إذا شملت
ولا الأَقْلون ملكٌ للكثيرينا	فلا الكثيرون ملكٌ للأقْلينا
بالمُغنيات وآلِفاً يجوعونا	ولا نرى واحداً ملأى خزائنه
تهفو إليها قلوب المُستظلينا	ولا نرى درة في رأس مُحترم

يندّد بغدر الإنجليز وتنكّرهم لمصر

وقال في هذه القصيدة يندّد بغدر الإنجليز وتنكّرهم لمصر بعد أن عاونتهم في تلك الحرب:

ما كان منتظرًا منها ومظنوناً	يا نائلين من الحرب العوان سوى
لا تذكرّون رفاقاً غير ناجينا؟	نجوتُمْ من رزاياها وما لكمُ
وذللّوا لكمُ أطواها لينا ^٥	مدّوا الحديد لكم في كل مرحلة
والحقوا النيل بالأردن ساقينا	ورابطوا لأعاديكم على هدف
وهم إلينا الأحباء المُحبونا	وكم عتبنا على قوم لأجلكمُ
حريّةً فبذلناه مضحّينا	وقلّتمْ لم ينل قومٌ بغير دم
ما نال منه عداكم في فلسطينا	ونال من دمنا في عصر جندكمُ
أم لا تزال خطيئات البريئينا؟	فهل غسلتم خطايا الأبرياء به
وتؤثرون عليه الماء والطينا؟	أتستهينون بالإنسان ماثلكم
أيرهب الأجراء المُستغلّونا؟	هَبُوا جَمَى مصر والسودان مزرعةً
حيّاً وما زلتمْ في الأرض تسعوناً	ورثتمْ خصمكم ميتاً وصاحبكم

* * *

فجرّبوا مصر في إطلاقها حيناً	جرّبتمْ مصر في تقييدها زمناً
فأي شيء على مصر تخافونا؟	أمنتمْ مصر فيما نال أمتكم

^٥ يُشير إلى تسخير العمال المصريين في مد السكك الحديدية في سيناء إلى العريش أثناء الحرب العالمية الأولى.

وقلتمْ مصرُ للهند السبيل فإن
أما إلى الهند إلا مصر من سُبُل
يهْدُ الهندَ أهْلوه وجيرته
خافوا سوانا وأعطونا أمانينا
وإن فردًا لذي ملكٍ يبرُّ به
عن أي شيء لمصرٍ تسألون وقد
بالسيف والنار يدعو الناس جندكم
ضعوا السلاسل عنا واطلبوا جدلاً
وربما قبلت دعواكم دولاً
ليت الذي حرم الألمان غايتهم
وليت من زاد قومًا قوةً وغنى
أتسفكون لمظلومٍ دماءكم
وهل وفيتم بميثاق لمصر كما
كم أعجبتكم من الأحرار عزتكم
فهل ذكرتم وأكبرتم لنا غرضاً
كم أنجب البطل الأحداث عالية
كنا أمانةً دهر عندكم وأتى
وقد أقرَّ لمصرٍ كلُّ منتصف
وقد أصرت على استقلالها فعلى

ضاع السبيل أضعنا الهند ساهينا
ملأى شواهين أو ملأى سراحينا^٦
ولا يزال سبيل الهند مأمونا
فما تضرُّكم يوماً أمانينا
خيرٌ له من جماعات يثورون
هزّت مسائل مصر الهند والصينا^٧
وتطلبون من الصرعى مجيبينا
تروا أدلة مصر والبراهينا
وأهل مصر أباءٌ غير راضينا
أخاف قومًا سواهم لا يُبالونا
يرعى ويحرس أقوامًا مساكيننا
وبالكلام على عانٍ تضحُّونا؟
رعيتم العهد للبلجيك مُوفينا؟
كانوا مُوالين أو كانوا مُعاديننا
كما ذكرتم وأكبرتم «وشنطونا»^٨
وأنجب الحدث الأبطال عالينا
وقتُ الأداء فهل أنتم مؤدُّونا؟
بحق مصر فهل أنتم مقرُّونا؟
أي المآرب أصبحتم مصرينا؟

^٦ السراحين: الذئاب.

^٧ يُشير إلى تأليف الحكومة البريطانية للجنة المعروفة بلجنة ملتر بدعوى البحث عن أسباب ثورة سنة ١٩١٩ والوسائل لملافة هذه الأسباب.

^٨ جورج واشنطن محرر أمريكا، وكان على رأس الجيش الوطني الأمريكي الذي حارب الإنجليز، وقد اعترفت بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة سنة ١٧٨٣ بعد أن انتهت الحرب بظفر الأمريكان.

يَحْذَرُ قومه من التحالف مع بريطانيا

وفي هذه القصيدة «التي نظمها في أواخر سنة ١٩١٩» يحذّر قومه من فكرة التحالف بين مصر وبريطانيا، قال:

أواهبون لمصر كلّ ما طلبت	أم آخذون بمقدار ومُعطونا؟
وإن رفعتم عن الوادي حمايتكم	فما اسم لاحقها فيما تُسمّونا؟
وإن تروا بدلاً منها «مخالفة»	فمن لنا بضمانات المُساوينا؟
إنّا لنعجز عن حق الحليف وعن	حق الشريك وأنتم تستزيدونا
وما مجاورة الأقوى وشركته	إلا كما جاور العصفور شاهينا
ادعوا بني مصر أنداداً لكم ودعوا	ولاية مصر ملوكاً أو سلاطينا
وغادروها لأكفاء تجاربهم	تُغنيهم عن تكاليف المُشيرينا
يُفدون مصرَ وإن شاكت منابتها	وإن جرى نيلها مُهلًا وغسلينا
وإن تدفّق في البداء مُنصرفاً	وإن أقام وراء السد مخزوناً
أحرار مصر تباريهم حرائرها	ففاديات كما نرجو وفادينا

يندّد بالاستعمار والطغيان

وفي هذه القصيدة يندّد بالاستعمار والطغيان ويحملهما مسؤولية الحرب الطاحنة التي اُكتوت الشعوب بنارها، قال:

أمضى على الصلح قومٌ يعبثون به	وقد نأى عنه قومٌ غير مُمضينا
تنفّس الصعداء اليوم بعضُهم	ولم يزل بعضهم أسوانَ محزوناً
هل يعرف الدهر حرباً كالتي شهدت	تلك الثماني يتلوها ثمانونا
صناعةً هي يعتزُّ الملوك بها	على العباد الأذلاء المطيعينا
أم كانت المرضُ الموروث في دول	أعيت طبائعُها السُود المداوينا
ما كان أكبر آثام الأنعام وما	أذكى وأغلى الضحايا والقربينا
«أين الأسرّة والتيجان أسألها	عن الملوك الطغاة المستبدين»
الرافعين على الأشلاء دورهم	المالئين دماً تلك الميادين
جنّت على مُلكهم أسلاب غيرهم	فهل تذكّر هذا المُستغلونا؟

إلى أن قال:

دانت لعسكر «ولسون» جبابرةً
أغرى البرية باستقلالهم ونأى
وأين ما صنعت آراء ولسونا؟^٩
عنهم وهم بالذي أغرى يَهِيمونا

القوة سناد الحق

والحق في كل عصر فاقدُ سندًا
فدو السلاح هو المرهوب جانبُه
إن لم يجد طلبًا بالبأس مقرونا
إذا انتنى الأعزل المغلوب مغبونا

أمل مصر في بنيتها

وختم هذه القصيدة الرائعة بقوله:

من لم يرَ اليوم في العمران موضعه
ونحن أولى بأن نرعى مواطننا
لم يلقَ في غده دنيا ولا ديناً
نُوفي المكايل فيها والموازينا

مؤتمر لوزان: الحق للقوة

في سنة ١٩٢٣ ترامت الأنباء عن مؤتمر لوزان بأنه يخذل مطالب الشعوب الشرقية، فقال
الكاشف يدعوها إلى القوة والتعاون في مكافحة الاستعمار:

عُودوا إلى البأس بعد اللين فهو لكم
«لا حق للشرق إلا في معاقله
قد يفعل البأس ما لا تفعل الخُطبُ
والحق مُنقلب في الغرب مُغترِبُ»
ودونه في سوى لوزان مُضطربُ
ودون ما يبتغيه الهول والنوبُ
هل يملك الحكم في «لوزان» خصمكم
ما كان «كرزون» بالمُوفي لأمته

^٩ ولسون: الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية. يُشير الشاعر في هذا البيت والأبيات التالية إلى مبادئ ولسون التي أعلنها حين دخول أمريكا الحرب إلى جانب بريطانيا وحلفائها وكيف تنكّر لها بعد انتصار الحلفاء.

إلى أن قال:

إني لأشْفِقُ من يوم على دولٍ
ممالكَ الشرق والإسلام تذكراً
أين الأمانة والميثاق بينكم
«مجدُ الرجال على مقدار ما بذلوا
نُودوا عن الوطن الغالي وعن شرف
ومن أراد حياة العز طيبة

يقضي الحديد عليها فيه واللهُ
فالشرق أسوان والإسلام ينتحبُ
والبيت منتَهَبُ و«القدس» مغتَصَبُ
من الدم الحر لا الدمع الذي سكبوا»
بذلُ النفوس له بعضُ الذي يجبُ
فالأرض تحمله حرّاً أو الشهبُ

* * *

يا وافدَ الشرق جَوَّاباً بلا سند
مصير كل قبيل بعد جولته
فصل الخطاب لهم بعد القضاء غداً
أين السلام وأين العاملون له؟
كلُّ يمد وراء الغيب غايته

في الغرب ينتظر العقبي ويرتقبُ
ما خطَّه في فروق الفتية النجبُ
في سائر الأمر جدَّ القوم أو لعبوا
وأَنه أمل الأبرار والأربُ
وليس يعلم ما يأتي به رجبُ

يتندر على عيد ١٥ مارس سنة ١٩٢٢

قال من قصيدة له في مارس سنة ١٩٢٣ يتندر على عيد الاستقلال الذي جعلوا تاريخه
يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ حيث أعلن الملك فؤاد استقلال مصر على أثر صدور تصريح
٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢:

يا عيدَ الاستقلال أنـ
للعثق أم للرقِّ ما
أبمهرجانٍ تحتفي الظَّـ
وتنال مصر مرامها

تَ له خيالٌ أم حقيقة؟
خطؤه في تلك الوثيقة؟
مأى وتحتفل الغريقة؟
من بعدما سدُّوا طريقه^{١٠}

^{١٠} يُشير إلى الإنجليز الذين وضعوا العقبات أمام مصر في جهادها لتحقيق أهدافها.

شعراء الوطنية

يتكلفون^{١١} الصالحا ت لها وتأبأها السليقة
إن أطلقوا أمس البلا د فممنهم ليست طليقة
وحديقة أضحت ولـ كـن للغريب جنى الحديقة
وإن استبدَّ بنيلها قتل الشقيقة بالشقيقة^{١٢}

* * *

وا حرَّ أكباد إلى حرية الوادي مشوقة
هذا زكيّ دمي لها أجْد الرضا في أن أريقَه

* * *

أتخاذلُ زعماء مصـ رَ أمام هاوية عميقة؟
أي العقاب أحق بالر جل الذي يؤذي رفيقه؟
عاد الغريم لمصر يعـ بس بعد خدعته الدقيقة
فإن افترقتم عنده كنتم جميعكم فريقَه

يحذّر من نوايا الإنجليز ويدعو النواب إلى أداء واجباتهم

وقال من قصيدة له يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وهو اليوم الذي اجتمع فيه البرلمان الأول، وكان سعد زغلول يتولى رئاسة الوزارة الأغلبية:

سلامًا على حصنكم والعلم ورعيًا لندوتكم في الأمم
سلامًا على ذلك الملتقى سلامًا على ذلك المزدحم

إلى أن قال:

أمانةٌ مُستوثقٍ مُعلنٍ لكم من سرائره ما كتم

^{١١} الإشارة هنا أيضًا إلى الإنجليز.

^{١٢} مصر والسودان.

وهذا غريمكم^{١٣} الملتوي تجمل بعد الأذى واحتشم
تولّى بغاياته عابساً وعاودها فاتناً فابتسم
إلى أجلٍ أم إلى منتهى مراميه يلزمكم ما التزم
وهل ينجلي الأفق أم يرتمي بعاصفةٍ بعد هذا النسَم
ولو كان يعرف عُقبى النزا ع في الحق من زمنٍ لآنحسم

وقال يدعو إلى التآخي وصفاء القلوب بين المواطنين:

وليس يقالُ فريقُ هفا وليس يقال فريقُ ظلم
يضيع على مصر هذا النعي م إن لم يكن كلُّ بيتٍ أجم
وما أنا بالآمن المطمئن إلى المُستعد الذي لم ينم^{١٤}
أعدَّ المَرباط في المسلّكين ومن مَلَكَ المسلّكين اقتحم
وهل يترك الذئبُ عاداته وإن لبس الذئب ثوبَ الغنم؟

* * *

وداهية مرجف بالذي تعدّى به غيره فانهزم
وليس الذي قاله حجةً فقد أَلَفَ الناس هذا النغم
وهل يستطيع اغتصاب الرقا ب مَنْ يمراس النفوس اصطدم
وما صنعت بالمغير القلا ع صُنْعَ إِبائِكُم والشَّمَم
وحسبُكُم شملكم عُدةً وحسبُكُم صبركم مُعتَصَم
«وما أحسن العفو من قادر إذا ما انتهى حاقدٌ وانتقم»

* * *

سيجلو عن الأرض جبارها ويلبث فيها كريمُ الشِّيم
ولا دولة لسوى المصلحين ولا مُلْكٌ إلا لأهل الهمم

^{١٣} يقصد الاحتلال.

^{١٤} يريد الإنجليز.

عيوب الحزبية

وقال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له حين اشتد التنافر بين الأحزاب، ويدعو إلى نبذ الخصام:

وقفتُ وما أدري أعدُّ حوادثًا تدور أمامي أم أعدُّ ذنوبًا
«تحمّلتُ عن قومي نصيبًا من الأسى ولم أرجُ من أجر الجهاد نصيبًا»
وأمعنتُ في غيب المقادير علّني أرى فرجًا للأمتين قريبًا
«وليس بمغنٍ أمةٌ خصبُ أرضها إذا لم يكن خُلُقُ الرجال خصبًا»

* * *

تنازع قومي اليومَ جنّدًا وقادةً فلم أرَ إلا سالبًا وسليبًا
«مبادئُ أحزاب أرى أم منافعًا توات صنوفًا بينهم وضروبًا؟»
تقصّت حروب العالمين ولم أزل أرى بين أبناء البلاد حروبًا
بقومي على قومي استعان غريبهم فصال شمالًا واستطال جنوبًا
فمن لهمُ بالمُنْفذِ الأمرَ حازمًا إذا لم يُطيعوا نافذًا وحسيبًا
يردهمُ بعد القطيعة والنوى رفاقًا كما يلقي العليل طبيبًا

قريتي

قصيدةٌ نظمها بهذا العنوان سنة ١٩٣٦، يصوّر فيها حياته في بلدته «القرشية» ويؤثرها على حياة المدن، قال:

جمعت في العيد حولي سائر الآلِ ومُلتقى الآلِ حولي كلُّ آمالي
أبًا دعوني وما لي فيهمُ ولد ولست للقوم غيرَ العم والخالِ
كأنني وهمُ في الدار مُطْلِع منهم على أممٍ شتى وأجيالِ

إلى أن قال في إثارة الإقامة في الريف:

أقمتُ في الريف لا أشقى بطاغية من الرجال ولا لاهٍ وختالِ
وعشتُ بالرطب من بقلٍ وفاكهة فيما ملكت وماء فيه سلسالِ
أطلتُ فيها اعتزال العالمين ولي بكلِّ ناحيةٍ همي وأشغالي

لقيت في عشرة الجهال عاطفةً لم ألقها من رجالٍ غيرِ جهالٍ

يحذرُ قومه من مفاوضات سنة ١٩٣٦

وعرَّج في هذه القصيدة بالمفاوضات التي كانت جارية وقتئذٍ بين مصر وبريطانيا وأسفرت
عن معاهدة سنة ١٩٣٦، فحذرُ قومه من مغبة هذه المفاوضات، قال:

ولم أزل بينهم للخصم متقيًا	دخائلًا هي في ذهني وفي بالي
أخشى على رُسُلهم نيَّاته وهم	منه أمام جلاميد وأدغال
وما تزال كما كانت سياسته	يدور فيها بأشكال وألوان
وموضع الند أرجو عنده لهم	لا موضع الصيد من أنياب رثبال
وقد يكون لهم من ضيقهم فرجٌ	كما تُدافع أهوالٌ بأهوال

وظل الكاشف في قريته وعزلته، وفيًا لشعره ومبادئه، إلى أن أدركته الوفاة في
٢٩ مايو سنة ١٩٤٨.

محمد عبد المطلب

١٨٧٠-١٩٣١



هو الشاعر البدوي البليغ، والمجاهد الوطني الصميم، محمد عبد المطلب، وُلِدَ سنة ١٨٧٠ ببلدة «باصونة» من قُرى مديرية جرجا لأبوين عربيَّين مصريَّين من سلالة قبيلة جهينة إحدى قبائل جزيرة العرب، وكان والده رجلاً صالحاً متفقهاً، فأرسل ابنه إلى

الأزهر وتلقَّى فيه العلم نحو سبع سنين، ثم انتقل إلى «دار العلوم» ومكث بها أربع سنوات، وتخرَّج منها عالمًا أديبًا، وتولَّى التدريس في مدارس الحكومة، واختير مدرِّسًا بمدرسة «القضاء الشرعي»، ثم مدرِّسًا في «دار العلوم»، ونضج علمه، واكتمل شعره وأدبه، فصار من فطاحل الشعراء الذين يُشار إليهم بالبنان، ولما شبَّت ثورة سنة ١٩١٩ ساهم فيها بشعره وأدبه وجهاده، وخلَّد حوادثها بقصائده الغُر، وكان حجة في الأدب واللغة، وشعره يجمع بين البلاغة والجزالة وروعة الأسلوب، وبلغ في مكانته الشعرية منزلة فطاحل الشعراء المتقدمين، وكانت الروح الوطنية الدفَّاقة تتجلَّى في معظم أشعاره وقصائده، وله في هذه الناحية إنتاج ضخم يصلح في ذاته أن يكون ديوانًا مجتمِعًا من الشعر الوطني، وقد ظل على إنتاجه الشعري إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٩٣١.

روحه الوطنية

إن أحسن وصف لروحه الوطنية ومساهمته في الجهاد وخاصة في ثورة سنة ١٩١٩ ما قاله في رثائه صديقه وزميله الشاعر محمد الهراوي؛ إذ يقول عن «جهاده الوطني»:

فذاك وإن جدَّت خطوبٌ وأجلبت	فإنك للجُلَّى وللحادث الجِدِّ
تُخاطر والجندُ المدجَّجُ مُحَدِّق	وتمضى وصوت «الموزريَّات» كالرعدِ
فتبكي وتستبكي العيون على الجمى	وتعدو على العادي عليه وتستعدي
وتخطب حتى تستشير وتنثني	وقد حميت أنافُ قومك من وقْدِ
وما هالك الجندُ الذي كان مُحَدِّقًا	ونفسك من فرط الحمية في جُنْدِ
نزلت عن النفس الكريمة فديةً	إلى الوطن العاني كذلك مَنْ يفدي

مصر أثناء الحرب العالمية الأولى

١٩١٤-١٩١٨

قال من قصيدة له يصف ما عانته مصر أثناء الحرب العالمية الأولى، وينعى على الإنجليز بغيهم وعدوانهم وإعلانهم الحماية في ديسمبر سنة ١٩١٤، ويندّد بفظائع السلطة العسكرية البريطانية في سني الحرب:

وعادت رياض النيل نارًا جحيماًها يُشبُّ لغير الخائن المتملِّقِ

وآخر بالأصفاد والسوط مُرَهَقٌ^١
نجيع دم من جلده المتمزق
طريد الكرى في جوف أغبر مطبق
سواد الدجى بالمدمع المُترقِرِق
يكلّمها بالعين من غير منطِق
فلا راحمًا تلقى ولا عطفَ مُشفِق
وما كان فيها من جلال ورونق
وبانوا على حكم الزمان المفرّق
«قفوا ودّعونا قبل وشكِ التفرّق»
يقلّب في الغادين أجفانَ مُحَنِق
نجوا بالنوى من ظلم أرعنٍ أحمق
وما قادهم إلا إلى شرٍّ مازِق
وما ظالم في حكمه بموفق
زهاها الصّبا في عنفوان وريقٍ^٢
يدُ القهر للأجال من كلّ مُنعِقْ^٣
تخير أبناء الشباب وتنتقي^٤
لغير عَصِيٍّ أو حبالٍ مربّقٍ^٥
يهدّد بالتنكيل كل معوّج
إلى حيث شاءوا جهدُ عيشٍ مرمّقٍ^٦

فكم سيّد بين الغيابات حتّفه
ترى أدمع النّعمى بناعم جسمه
يقضّي الليالي بين ظلم وظلمة
وثُمسي نَجِي الحزن جارة بيته
وفي حجرها لو أبصروا ذو تمائم
إذا فزعت في الخدر من هول ما ترى
ودارة عزٍّ أوحشت من أنيسها
تحمل أهلوها على غير موعد
يُنادي لسان الحال من شُرُفاتها
ولم يُنسها التوديع موقفَ شامت
وما ملّهم فيها ثواءٌ وإنما
يُناديه فينا قائد الجيش^٧ قومه
تعسف بالأحكام غير موفّق
فكم ساقٍ من مصرٍ إلى الموت فتية
جموعُ كآجال النّعام تلفّها
له عُصب في غورها وصعيدها
ففي كل إقليم حِجولٌ مقيدٍ
وفي كلّ وادٍ منهم سوطٌ مُعجل
ومن لم يسقه السوط والسيف ساقه

^١ يريد بالغيابات السجون والمنفى.

^٢ يريد قائد جيش الاحتلال.

^٣ الريق: أول الشباب.

^٤ آجال: أي القطيع. والمنعق: من نعق الراعي غنمه إذا زجرها.

^٥ يريد بالغور الوجه البحري. وتخير: أي تتخير.

^٦ الحجول: القيود. وربق: أي شد.

^٧ المرمق: من يشبع جوعًا ويُمسك رمقًا.

يوم إعلان الحماية

وقال عن إعلان الحماية في ديسمبر سنة ١٩١٤:

بلاءً على القطرين أغطش ليله
دَجَتْ يومَ إعلان «الحماية» شمسُه
به لَقَحَتْ سود الليالي فليته
قَضَيْنَا به يوم المدلَّة بالأسى
عشيَّة يدعو «مكسويل»^{١١} سَرَاتها
يَبْوئُ عرشَ النيل من شاء جانفًا^{١٢}
«رويدك حتى تنظري عمَّ تنجلي
فمن دون عرش النيل كلُّ مدرَّب
بصير بأسباب الردى غَرَب سيفه
ثَوَتْ نفسه من بأسه في مِجَنَّة^{١٣}

ضحى يومٍ نحس بالخطوب مَثْوًى^٨
فيا لك من يوم على مصر أورقٍ^٩
قضى في بطون الغيب لم يتخلَّق
وبتنا على ليل السليم المورِّق^{١٠}
لعيدين يوم الجمع يوم التفريق
فننشده والخطب بالخطب يلتقي
غيابة هذا العارض المتألقِ
كميَّ متى يُرعد له الهول يُبرق
لبوس المنايا بين هام ومفرق
متى يدنُّ منها طائفُ الموت يُصعق

نقض العهود والمواثيق

وقال يُهاجم الإنجليز وينعى عليهم نقضهم للعهود والمواثيق:

فسائل بنا أعلَّج «لندن» هل وفوا
لدى فتنَةٍ لم يُغْنِ عن مصر عندها
جرت عَمَمًا لم تُبقِ أرضًا أَمِينَةً
بعهدٍ لنا بين الأنام وموثقٍ
حميةٌ حامٍ أو تقيَّةٌ مُتقي
ولا بلدًا بناؤها لم يحرقِ

^٨ أغطش ليله: أظلمه. ومثوق اسم مفعول فعله أَوَّق، يقال: أَوَّقَه: أي حمَّله المشقة.

^٩ الأورق: الذي لونه إلى الرماد؛ يريد أنه مُغْبِرٌ بالخطوب.

^{١٠} المدلَّة: الذاهل.

^{١١} الجنرال مكسويل: قائد القوات البريطانية حين إعلان الحماية.

^{١٢} جانفًا: أي ظالمًا.

^{١٣} المِجَنَّة: الترس.

ثلاثين عامًا لا ترى مصر منهم
ثلاثين عامًا لم تَشْم برقَ راحة
ثلاثين عامًا بين يأس وحسرة
إذا ودَّعت «عامًا» من الجور أبقعًا
ثلاثين عامًا بالهوان تسومها
يرى نفسه فوق القوانين بيننا
يُبِيح غداً ما حرَّم اليوم بالهوى
إلهة جَبَّار وإمرة خاطل
إذا ما شكوناهم عميدًا فأمرنا
«يقرَّب خَوَانًا ويرفع جاهلاً»
إذا ما مضى هذا أتى ذاك بعده
سوى صَلفِ المستكبر المتعزِّق^{١٤}
ولا طيبٍ مُخَضَّر من العيش غَيْدِق^{١٥}
وهول زمان بالحوادثِ متَأَق^{١٦}
تفيء إلى عام من البؤس أبلق
سفاهة غار في المكاييد مُغْرِق
متى ما ندكَّره القوانينَ يحنق
لغير الهوى في حكمه لم يوفِّق
وتدبير أعمى في الحكومة أحمق
لأعلم منه بالنكايه أحنق
ويُسعد أشقاها ويشقى به التقي^{١٧}
على النهج لم يعدل ولم يترفق

إفساد التعليم

وقال يذكر إفسادهم التعليم والدور المشئوم الذي قام به دنلوب في هذا الصد:

وبالعلم سل «دنلوبهم»^{١٧} لم لم يدع
هو الجهل فينا حشَدته لحكمة
رَمَتْنَا به حُمَّى أصابت بلاده
فحلَّ بنا فيمن تمرَّق منهم
ولو وزنوا في غير مصر مقامه
نَوَاقًا من العرفان للمتذوق^{١٨}
يدُ الله تنكيلاً بشعبٍ مدوَّق^{١٩}
تطاير عنها كلُّ فدمٍ حبلَّق^{٢٠}
فيا عجبًا للسارب المتمرَّق
لأرخصه في السوم كلُّ مدنَّق

^{١٤} المتعزق: العير الخلق.

^{١٥} الغيدق: الرخص الناعم.

^{١٦} متأق: أي مملوء.

^{١٧} المستر دنلوب وكان سكرتيرًا عامًا ثم مستشارًا لوزارة المعارف والمسئول الأول عن انحطاط التعليم في عهد الاحتلال.

^{١٨} المدوق: المهزول.

^{١٩} القدم: الأحمق. والحبلق: الصغير القصير.

فأصبح داءٌ في المعارف قاتلاً
فواهاً على تلك العقول التي ثوت
ثلاثين عاماً يسكب النيل حسرةً
وما وردوا من عذبه غيرَ لامع
ولولاه كانت مصر بالعلم روضة
أ«دنبوب» ما تلك المباني رفيعةً
وما العلم أن يعلو رتاجٌ وقبة
أ«دنبوب» هل أرضيت قومك غايَةً

يسدّد فيها كلّ سهمٍ مفوّقٍ
بكفّيه في لحدٍ من الجهل ضيقٍ
على العلم دمعَ الواله المتشوّقِ
من الآل في بيدائها متريّقِ
تلاًلاً بالأنوار للمتأنّقِ
متى ما تسامقَ هامُّها النجم تسمقِ
على فدنٍ بالأرجوان مزوّقِ
أم العير^{٢٠} إن يبعد به الشّوط ينفقِ

ثورة سنة ١٩١٩

وله قصائد غرّاء في ثورة سنة ١٩١٩ أرّخ فيها جهاد المصريين والمصريّات وفضائع الإنجليز في قمع الثورة.

حضارة مصر ومجدها

قال من قصيدة له أنشدها سنة ١٩١٩ في الاحتفال بعيد النيروز يُشيد بحضارة مصر ومجدها وفضلها على العالم:

فلا يا ابنة البيت الذي عند بابهِ
رويدك إنّنا في العُلا يوم ننتمي
لنا ذروة المجد الذي تحت ظله
لنا آية الأهرام يتلو قديمها
ملأنا بها لوحَ الوجود مناقباً
وللعلم من آثارنا في جبالنا
وللملك منا كلّ أروعَ نظّمت

تخرُّ ملوك العالمين إذا مرُّوا
كلانا أبوه النيل أو أمه مصرُ
تناسلت الأحقاب واعتمل الدهرُ
حديثُ الليالي فهي في فمها زكُرُ
إذا ما خلا عصرٌ تلاه بها عصرُ
على الدهر آياتٌ بها ينطق الصخرُ
على تاجه الأفلاك والأنجم الزهرُ

^{٢٠} العير: الحمار. وينفق: يهلك ويموت.

ومنا الذي ساق الأساطيل شُرْعًا
إذا جهلوا «ميناً» و«خوفو» و«كفرعاً»
وإن أنكروا مُلك «ابن يعقوب» بيننا
لنا كلُّ ما في الأرض من مدنية

على البحر يستحيي لصولتها البحرُ
فليس «برمسيس» على مُلكه نُكرُ
ف«موسى» على ما أنكروا شاهدُ برُّ
بها تعمر الأمصار والبلد القفرُ

* * *

جزى الله مصرًا ما جزى أهلَ نعمة
فكم كشفت من ظلمةٍ «عينُ شمسها»
لنا في الورى حقَّ المعلم لو رعوا
فهل يُنكر اليونان أننا هُداتهم
وهل نسي الرومان للنيل أنعمًا
فنحن الألى قد أورثوا كلَّ أمة
إذا اعتزَّ قومٌ بالجديد سمّت بنا

على الناس يعيا دونها العدُّ والحصرُ
فما تمَّ سهلٌ لا يُضيء ولا وعرُ
لنا ذمةٌ والدهر شيمته الغدرُ
إلى حكمةٍ في العالمين بها بزوا
بما ورثوا منها سما لهم الفخر
من الفضل ما يغنى به الحمد والشكرُ
مكارم في طي الزمان لها نشرُ

الوحدة بين العنصرين

وقال يُشيد بالوحدة بين عنصرَي الأمة:

بنينا على آداب عيسى وأحمد
فنحن على الإنجيل والذكر أمةٌ
لنا كل ما في مصر والحق قائم
فلن يستطيع الدهر تفريق بيننا
«كلانا على دين به هو مؤمن
إذا ما دعت مصرُ ابنها نهض ابنها
ترى ذكرَ مصر في الهياكل قربةً
فلا يحسبن الناس أننا تزلزلت
ألم ترنا في كل عيد وموسم
إذا كان عيد الفطر فالكل مُفطر
وإن جاء بالنيروز يومٌ تراحمت

منازل عزُّ دونها يقع النَّسرُ
يؤيدها الإنجيل بالحق والذكرُ
تؤيده الآيات والحُجج الغرُ
وإن جرَّ قوم بالسعاية ما جرُّوا
ولكن خِذلان البلاد هو الكفرُ»
لنجدتها سيَّان مرقس أو عمرو
وفي صلوات المسلمين لها ذكرُ
بنا قدمٌ أو مسَّ وحدتنا الضرُ
حليفي ولأى لا جفاء ولا هجرُ
يهلل بالبشرى ويزهو به البشرُ
عليهم به الأفراح وانتعش القطرُ

فيا عيدَ أهل النيلِ عدْ أهلكِ المُنَى
وَصافِحْ بشعبِكَ السعادةَ مُقبِلًا
تلاقتْ أمانينا على غير غاية
وسارت بنا الآمالُ يقدِّمها النصرُ
تجلَّى منارُ الحقِّ وانبلجَ الفجرُ
بمصرَ على الأفراحِ وليقلْ الشعرُ:

ثورة الأمة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة أخرى أنشدتها في حفلة لعقائل السيدات في مسرح برنتانيا سنة ١٩١٩:

مصرُ أُمِّي فداءُ أُمِّي حياتي
يا رياح الحياة في مصرِ هُبِّي
يا سماء الحياة في مصرِ جُودي
ما لأمِّ الأمصارِ حملها الدهـ
ما رعى ذمَّةً لها يوم كانت
إن تناسَّت قديمَ مصرِ ليالٍ
فاسألوهن عن حديثِ حديثٍ
دهشَ الناسُ يومَ قيلَ صَحَّتْ مصرُ
إذ لقينا الخطوبَ وهي شِدادُ
وركبنا متنَ الزمانِ ذُلُولًا
بين شيبٍ بالحزمِ تحدو شبابًا
سلمتْ أُمُّنا من العادياتِ^{٢١}
روَّحينا بطيبِ رِيَّا الحياةِ
أنفُسًا فوق نيلها صادياتِ^{٢٢}
ر صنوف الآلامِ والمُوجِعاتِ؟
زينتْ في عصوره الخالياتِ
أنكرت صالحاتها الباقياتِ
لبَنِيها عدُوهُ في المعجزاتِ
رُ وكانت في غفلةٍ وسُباتِ
فتولَّتْ جموعُها مُدِيراتِ
فمضينا لغايةِ الغاياتِ
صادقي العزمِ ثاقبي النظراتِ

دور المرأة في الثورة

وقال يُشيد بدور المرأة في الثورة:

وغوانِ سمعنَ داعيَ مصرِ
أفزعتْهنَّ حادثاتُ الليالي
بين تلك القصور والغرفاتِ
في بَنِيهنَّ بالردى رامياتِ

^{٢١} العاديات: الأحداث والنوائب.

^{٢٢} صاديات: عطشى.

فترامين من وراء خدور
سافرات ولسن أهل سفور
وكتبن الوفاء للنيل عهداً
وتواصين لا يضيعن ديناً
إيه لله سعيكن جميلاً
ظلموا النيل يوم عدوا بنات الذ
زعموهن بالحجاب عن العل
بنث مصر كالشمس يحجبها اللي
وهي في أفقها ضياء ونور
أو هي المسك ينفذ العرف عنه
عرفت كيف يكبر المرء طفلاً
أبصرت منبت المحامد فيه
وغذته المجد الذي ورثته
يا ابنة النيل أنت للنيل ذخ
كن فيها البدور مختدرات^{٢٣}
حاسرات من شدة الحسرات
في قلوب بحبه داميات
أو يعطلن سنة المؤمنات
يا بنات الأنجاب والمنجبات
يل جهلاً في زمرة الجاهلات
م ونور العرفان محتجبات
ل وراء الآفاق والظلمات
ساطع في بدورها النيرات
من وراء الأستار والحجرات
كيف يقفو أباه في المكرمات
فتولته بالتقى والأناة
عن كرام الآباء والأمهات
خالد في آثاره الخالدات

وثبة مصر

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٠ يصف وثبة مصر:

تكلم وادي النيل فليسمع الدهر
فحسب العوادي نهمه النيل زاجراً
صحت بعدما أزرى بها الصبر والأنى^{٢٥}
لعمرك ما صبر الأبى مهانة
فلا تحسبوا أننا ونينا عن العلا
وأملى على الأيام فليكتب الشعراً!
وحسب الليالي أن يقال صحت مصر^{٢٤}
ويا ربما أذرى بصاحبه الصبر
ولكن صمت الليث يعقبه الزأر
ولا زهدت فينا مناقبنا الغر

^{٢٣} مختدرات: مستترات في خدورهن.

^{٢٤} النهم: الصوت.

^{٢٥} الأنى: الأناة.

ولا أنكرتنا شمسُ جيلٍ ولا انطوى
وفي الناس من شابت قرونٌ «وأعصرُ»
وهل مصر إلا آيةٌ أزليّةٌ
تفلّقت الأجيال حول وجودنا
لئن كان ماضينا فخارًا فإنما
وقفنا لريب الدهر حتى تغلّلت
حرامٌ علينا أن نعيش أدلّةً
لنا علّم بين الدهور ولا نذكرُ
وهم في بطون الغيب عرفانهم نكرُ
مقدّسة والنيلُ في لوحها سطرُ
ونحن الجبال الشمُّ والزهرُ النضرُ
بحاضرنا تعلو المحامد والفخرُ
مضاربُه وانشقَّ عن ليله الفجرُ
وذو الذل أولى ما يكون به القبرُ!

فضائع الإنجليز في قمع الثورة

وقال حين اشتد عدوان الإنجليز في قمع الثورة سنة ١٩١٩ وفتكوا في طريقهم ببعض القرى كالعزيزية والبدرشين:

يا مصرُ ما بال الأسى لك حالا
ظلم الزمانُ بنيَّ في أحداثه
يا ناشري علّم السلام ألم تروا
ما العدل؟ ما حرية الأمم التي
ما عهد «ولسن»^{٢٦} أين ولسن هل درى
أمن العدالة عنده أن يُبتلى
سفراء «ولسن» هل لكم أن تُبلغوا
صرخات أهل النيل من أحلافكم
أضحت شعوب الأرض في بحبوة
وهمُ أحقّ العالمين بورده
لكنهم سيموا الردى فتواردوا
لو أن مفجوعًا يردُّ سؤالًا
وعدا عليهم بالخطوب وصالا
للسلم في أرجاء مصر مجالا؟
سارت رسائلكم بها أرسالا؟
أنّا بمصر نكايد الأهوالا؟
شعبٌ يريد بأرضه استقلالا؟
عن مصر صوتًا بالشكاة تعالى؟
طار الزمان لوقعها إجفالا
يتفییئون من السلام ظلالا
صفوا وشرب رحيقه سلسالا
شرع^{٢٧} المنيا مُسرّعين عجالا

^{٢٦} ويلسن: الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية. ويريد بعهد مبادئه المشهورة التي أعلنها عند دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى وأساسها احترام حرية الشعوب واستقلالها.

^{٢٧} شرع: جمع شرعة وهي المورد.

تَمَدُّوا بِحُكْمِ الْإِنْجِلِيزِ وَطَالَمَا اَع-
ما بال أبناء الحضارة أوغلوا
وثبوا على القطرين وثبة قاهر
نزلوا بأرض النيل مَنَزَلَ غادر
حلفوا لأهل الأرض حلفة فاجر
أن يبسطوا ظل الحضارة فوقه
حتى إذا ملكوا أزمّة أمره
واستنزفوا ثمرات مصر كأنما
فإذا بدا وجه الخداع وأشرقت
نَغَضُوا^{٢٨} رءوسهم لِغيلة أمة
خُلِقَتْ تَعَاَفَ الْغَادِرِ الْمُغْتَالَا
سَامُوا بَنِيهِ الضَّيْمِ وَالْإِذْلَالَا
خُلِقَتْ لَهُمْ ثَمَرَاتُهَا أَنْفَالَا
شَمَسَ الْعَدَالَةَ فِي الْوَرَى تَتَلَالَا
خُلِقَتْ تَعَاَفَ الْغَادِرِ الْمُغْتَالَا

تَعَسُوا بِحُكْمِ الْإِنْجِلِيزِ وَطَالَمَا اَع-
ما بال أبناء الحضارة أوغلوا
وثبوا على القطرين وثبة قاهر
نزلوا بأرض النيل مَنَزَلَ غادر
حلفوا لأهل الأرض حلفة فاجر
أن يبسطوا ظل الحضارة فوقه
حتى إذا ملكوا أزمّة أمره
واستنزفوا ثمرات مصر كأنما
فإذا بدا وجه الخداع وأشرقت
نَغَضُوا^{٢٨} رءوسهم لِغيلة أمة

شجاعة المصريات في الثورة

وقال في هذه القصيدة يصف شجاعة النساء المصريات في مقاومة الإنجليز:

مُسْتَقْبَلَاتٍ لِلرَّدَى اسْتَقْبَالَا
من حولهن وتنحني إجلالا
بِيضَ الظُّبَا مُتَوَثِّبًا مُجْتَالَا
يَفْدِينَ مِنْ فَتَكَاتِكَ الْأَنْجَالَا
يَسْأَلْنَ حَقًّا لَا يُرَدَّنَ قِتَالَا
لَبَنِي أَبِيكَ وَلَا دَعُونَ نِزَالَا
كَانُوا الْكَرَامَ وَكُنْتُمْ الْأَنْذَالَا
صَدَعَ الْمُقْطَمَ خَزِيْهُهَا فَأَمَالَا
وَاللَّيْلُ يُرْخِي فَوْقَهَا أَسْدَالَا
تَحْتَ الظَّلَامِ وَقِيْعَةً وَنَكَالَا

تلك العقائل يرتمين مع الظُّبَا
تُغْضِي عِيُونَ بَنِي الْبِلَادِ مَهَابَةً
وأرى ابن لندن نحوهن مصوَّبًا
يا ابن اللكيعة^{٢٩} إِنْهَنَّ عَقَائِلُ
يا ابن اللكيعة إِنْهَنَّ عَقَائِلُ
يا ابن اللكيعة مَا حَمَلْنَ صَوَارِمًا
أَبْنَاؤُهَا إِذَا الْأَصُولُ تَقَارَعَتْ
يا ابن اللكيعة تِلْكَ سُبَّتِكَ الَّتِي
وَ رَحِمَتَاهُ لِقَرِيَةٍ مَفْجُوعَةٍ
مَحْزُونَةٍ خَبَأَ الْقَضَاءُ لِأَهْلِهَا

^{٢٨} نَغَضُوا رءوسهم: حَرَّكُوهَا وَهَزَّوْهَا.

^{٢٩} اللكيعة: اللثيمة.

من غادةٍ غَالَ البُغَاةَ عَفَافُهَا
ومصونةٍ في الخدر طار بلبُّها
ماذا أرى؟ جنُّ أحاط بمضجعي
ما هذه الجَلَبَاتُ؟ لا أدري لها
أنا لست نائمةٌ وهذي جنةٌ^{٣٠}
ويلاه! ما لأبي عليٍّ نائماً؟
أعليُّ نادر أباك، لا، أنا خائفُ
هذي جنود الإنجليز رأيتها
صاحوا بصحن البيت صيحةً فاتك
فإذا متاع البيت يُنْهَبُ بينهم
ولربِّ دارٍ بالقنابل أصبحت
وأبُ تحيط به هنالك صبيّةٌ
ظُلماً تشول به القنابل فهو في
يا ربِّ إن الإنجليز تعمّدوا
يا ربِّ مصرُ بك استجارَ ضعيفُها
فأذِقْ عدوكُ سوءَ ما مكروا به

فبكى الحِجاب عفافها المُغتالا
صيحَات كلب في الحظيرة جالا
أَمْ تلك أحلامٌ تمرُّ خيالاً؟
معنًى ولست أعي لهنَّ مقالا
تدنو كأعجاز النخيل طوالا
والبيت من وقع الحوافر زالا
يا أُمَّ لا تتكلمي؟ لا لا لا
ب «البدرشين» تقتل الأطفالا
عاتٍ يرى النفس الحرام جلالا
وقد استحلوا نهبه استحلالا
قبراً تضمّن نسوةً وعيالا
تبكي عليه وتكثرُ الإعوالا
جو السماء مع القشاعم شالا^{٣١}
إرهاق مصر سفاهةً وضلالا
في عبْرَةٍ تُذري الدموع سجالا
واجعل عواقبه عليه وبالا

يُخاطَب مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له أنشأها حين اعتقل سعد زغلول لأول مرة في أوائل سنة ١٩١٩، يذكر الثورة ويُعاتب مؤتمر الصلح في إهماله مطالب مصر:

يا دماء الشباب تجري على الأر
ما لباريس لا ترى أهل مصر
ض جسداً^{٣٢} به ثرى مصر يُطلَى
بين أهل السلام للعدل أهلاً؟

^{٣٠} جنة: جن.

^{٣١} تشول: تعلق. والقشاعم: النسور.

^{٣٢} الجساد (بالكسر): الزعفران.

كُلُّ شَعْبٍ لَهُ بِمَوْثَرِ الصِّلِ
لَيْتَ شَعْرِي فَهَلْ أَتَاهُ كِتَابُ
أَوْ دَرَى أَنَّنَا نُرَادُ اخْتِلَاسًا
سَفَرَاءَ الْمُلُوكِ ضَجَّةٌ مِصْرَ
كَمْ رَفَعْنَا إِلَيْكُمْ فِي شَكَاةٍ
وَسَأَلْنَاكُمْ الْبَلَاغَ فَلَمْ نَسِ
إِنْ لِلنَّيْلِ زِمَةٌ وَعَهْودًا
لَوْ حَقَنْتُمْ تِلْكَ الدَّمَاءَ اللُّوَاتِي
كَانَ سَهْلًا عَلَيْكُمْ أَنْ تَصُونُوا

حِ نَصِيرٍ مِنَ الْبُعُوثِ وَمَوْلَى
أَوْ تَلَقَّى مِنْ جَانِبِ النَّيْلِ رُسُلًا؟
فِي بَيَاضِ النَّهَارِ وَالشَّمْسِ تُجَلَى
حَوْلَكُمْ مِنْ زِمَازِمِ^{٢٣} الرِّعْدِ أَعْلَى
حُجَّةً كَالصَّبَاحِ أَوْ هِيَ أَجْلَى
مَعَ جَوَابًا يَرُدُّ فِي الْغَمِّ نَصْلًا
هِيَ دَيْنٌ عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَبْلَى
أَهْرَقَتْهَا بِنَادِقُ الْقَوْمِ سَيْلًا
أَنْفُسًا وَرُدُّهَا الرَّدَى كَانَ سَهْلًا

يَنْدُدُ بِفِظَائِعِ الْإِنْجِلِيزِ فِي إِخْمَادِ الثَّوْرَةِ

وقال في هذه القصيدة موجَّهًا حديثه إلى المارشال أَللنبي الذي عهدت إليه بريطانيا قمع الثورة:

أَيُّهَا الْقَائِدُ الْمُدِلُّ عَلَيْنَا
صَلَفٌ بَيْنَ أَهْلِ مِصْرَ وَعُجْبُ
صَلَفٌ جَدٌّ فِي مَوَاطِنِ هَزَلٍ
عِلْمُ النَّاسِ أَنَّ مِصْرَ بِلَادٌ
مَنْعَتْهَا الْأَيَّامُ حَمْلَ الْمَوَاضِي^{٢٥}
فَلَمْ الْكِبَرِيَاءُ بَيْنَ أَنْاسِ
أَيُّهَا الْقَائِدُ الَّذِي حَيَّرَ السَّيْفَ
عِلْمُ الْخَيْلِ كَيْفَ تَخْتَالُ فِي غِي

قَاتَلَ اللَّهُ مِنْ عَلَيْنَا أَدَلًّا
كَانَ هَذَا بِأَرْضِ «بَلْجِيك»^{٢٤} أَوَّلَى
فَإِذَا جَدٌّ جِدُّهَا عَادَ هَزَلًا
لَمْ تَكُنْ لِلْحُرُوبِ وَالسَّيْفِ قَبْلًا
وَهِيَ زَيْنُ السَّيُوفِ هَزًّا وَحَمَلًا
تَرَكْتَهُمْ حَوَادِثَ الدَّهْرِ عُزْلًا؟
فَ بَدَارِ الْأَمَانِ شَيْمًا^{٢٦} وَسَلًّا
رِ بِلَادٍ لَمْ تُجَرِّ لِلْحَرْبِ خَيْلًا

^{٢٣} الزمازم: جمع زمزمة، وهي الصوت البعيد المدوي.

^{٢٤} يُشير إلى هزيمة الحلفاء أمام الزحف الألماني في بلجيكا إبان الحرب العالمية الأولى.

^{٢٥} المواضي: السيوف.

^{٢٦} الشيم: إغماد السيوف.

إنما يحمد المَخِيلَةَ^{٣٧} يومٌ
ما لمصر تُجزى جزاء سِنِمًا
وأراكم لولا بنوها سُقِيتُم
سائلوا الشام هل بغير بَنِينَا
أو مددتُم بغير أبناء مصر
إبلُ مصر وأنتها^{٣٨} تعرف الفض
«لو درى النيل ما سيلقى بنوه
كم ظفرتُم منه بما عجز «التا
كلَّ عام تُجبى إليه حبوبُ
وقناطر من نضار يُوافيـ
نعم لو أردتموهنَّ شكرًا
ما جهلتم لمصر فيها صنيعًا
أنسيتم لمصر ما منحتكم
أم نسيتم أبناءها يفتكُ المو

أشرف الموت فوقه أو أطلًا
ر لديكم وبالذنية تُبلى
من حياض المنون علًا ونهلا
جُبُتُم الوعرَ من فلسطين سَهلا
في بلاد العراق للفوز حبلا
ل عليكم لا تُنكر العُجم فضلًا
حرَّم الأرض غيرَةً أن تُغلا
ميز» عنه وناء بالعبء حملا
تفضخ الجاريات وزناً وكيلًا^{٣٩}
كم بها القطن كلَّ عام أهلاً
ما وفيتُم منها القليل الأقلًا
إن تقولوا قد يُنكر الفضلُ جهلا
من هباتٍ ما جاوزت بعدُ حولا
تُ بهم في الوغى وباءً وقتلا

وختمها بقوله:

معشرَ الإنجليز مصرُ لأهليـ
معشرَ الإنجليز مصرُ استقلت
ها ومَن ظن غير ذلك ضلًا
وجديرٌ بالنيل أن يستقلا

يُخاطب مؤتمر الصلح أيضًا ويُنادي بالاستمرار في الكفاح

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٩ يُخاطب مؤتمر الصلح بباريس، ويُنذر بالاستمرار في
الكفاح إذا لم تُجب مطالب مصر:

أباريس إن كانت لضيِّف كرامة لديك فضيِّف النيل أبلغ من يُثني

^{٣٧} المَخِيلَةُ: الكِبَر.

^{٣٨} الأتن: الحمير. والعجم: البهائم ...

^{٣٩} الجاريات: السفن. وتفضخها: تكسرهما لثقلها وكثرتها.

أباريس إن تُدني العدالة وافداً
أباريس كم للنيل عندك من يدٍ
ومن شُكرها أن تعرفوا حق أهله
حرامٌ عليكم أن يُراق له دمٌ
فيا أمراء الغرب دعوة مُسمع
سلُّوا حِلْفكم عما جرى في ديارنا
وما هذه الغارات يعلو صريخها
وما هذه الأجساد في كل بلدة
إذا طفح الخزّان من دم أهله
نرى الحرب فيما بينكم جفَّ عودها
على غير ما ذنب جنينا فما لنا
فيا عجباً شعبٌ يُساق بأرضه

عليك فأهل النيل أكرم من تُدني
تناقلها التاريخ قرناً إلى قرنٍ
وَألا تَسوموا «وفده» صفقة الغبنِ
حرامٌ وأنتم قادرون على الحقنِ
يُصرِّح في رفع الشكاة ولا يَكْنِي
وما جرحوا مما يَشِين وما يُضْنِي
مُؤجَّجَةً هذي تروع وذي تُفْنِي
مصرَّعةً فوق التراب بلا دفنِ
فتمّ دمٌ في الثغر يُربي على الحزنِ
فما بالها في مصر ناضرة الغصنِ؟
نُسام الدنيا لم نُحارب ولم نجنِ
أسيراً إلى دار المذلة والسجنِ

* * *

ملوك الوري لن يترك النيل حقه
ملوك الوري لن يترك النيل حقه
ظننا بهم خيراً من الدهر حقبةً
صبرنا وأشهدنا الأنام عليهم
ثلاثين عاماً بعدها سبعةً خلّت
عواصفُ بأس يُنشد النيل تحتها
سَقونا بها مرّاً من العيش أجناً
فإن تُنصِفوا أبناء مصر فمئةً
وإلا ردّناها عليهم كريمةً

ولو مرّقونا بالمتقففة اللدن^{٤٠}
ولو طحنوه بالمقذفة الدكن^{٤١}
فكانت قصارانا بهم خيبة الظنّ
إلى أن رمونا بالمهانة والجبنِ
طوالَ الليالي السود حالكة الدجنِ
نقمتُ الرضا حتى على ضاحكِ المزنِ
ويا ليتهم لم يُرهقوا الناس بالمنّ
لكم أبداً نُثني عليها بما نُثني
وللدهر شأنٌ لا يُقاس على شأنٍ

^{٤٠} يريد بالمتقففة اللدن الرماح المقومة.

^{٤١} يريد بالمقذفة الرصاص والقنابل. والدكن: ما تضرب إلى السواد.

رثاؤه لمحمد فريد

ولما جاء نعي الزعيم محمد فريد في منفاه (نوفمبر ١٩١٩) — وكانت مصر في إبان الثورة — رثاه بقصيدة مؤثرة تفيض وطنية وبلاغة، قال:

سلّوا جفنَ عيني ما له بات ينزفُ وعهدي به إن سُمتهُ الدمعُ يأنفُ
ويا رُبَّ همٍّ يملك النفس بالأسى ويعدو على العين الجمود فتذرفُ
وما أنا! ما دمعي! وفي مصر أنةً بها الطير نوحٌ والغمام وكُفٌ^{٤٢}
بكيّن غريبًا طوحَ البين دارَه فلا العود مأمول ولا الدار تُعرفُ

* * *

وما أنكرت مصر ابنها فنبت به ولكنه دهرٌ على الحرِّ يُجنِفُ^{٤٣}
ثوى غربَةً بعد المعاد قرارُها فيا طول ما يستشرف المتشوّفُ
وكنا حسبنا شقةَ البين تنطوي فيأوي إلى مرباعه المتصيّفُ^{٤٤}
وأطمعنا في الملتقى لمعُ بارقٍ من السّلم في ليل الحوادث يخطفُ
فلم نرَ سلمًا ينتهي النأي عندها بناءً ولا حتمَ الردى يتخلفُ

* * *

بعينيّ من نادى مُناديه للنوى فودّع لا يأنى ولا يتوقّفُ
يُدافع ألامًا تياسرن قلبه لها حرّقُ تدمي القلوب فتتنطفُ
ففي قلبه مما دهى النيل زفرةً يكاد لها من تحته البحر ينشفُ
وفي عينه من لوعة البين عبّرة يُكفكفها كبرًا فلا تتكفكفُ
وفي نفسه عُتبي على البلد الذي قسا أهله جهلاً عليه وأجنفوا
برمت بنا يا مصر لا عن جناية يُعني عليها جارم أو يعنفُ
وكيف تناسّت مصر حُسنَ بلائنا إذ الدهر ألوى والحوادث تعصفُ

^{٤٢} وكف: مُرسّلات بمائها.

^{٤٣} أجنف: جار وعدا.

^{٤٤} المرباع: المكان ينبت في الربيع. والمتصيف: المصطاف.

مواقفنا يا أمّ فيك شهودها
رويدك نفساً أنكرت فعل قومها
على رغم قومي ما لقيت وإنما
تؤيدنا يوم العتاب وتُنصفُ
بذي حدب يُقسى عليه فيرأفُ
هو الدهر في أحكامه يتعسفُ

* * *

سلامٌ على قومي وداعاً بني أبي
ويا موقفَ التوديع هل تُسعدُ المُنَى
أخاف المنايا أن يكنَّ روادداً
تحدّثني طيرٌ جريّنٌ بوارحاً
ويحزنني وردُ المنايا ولم تزل
حرامٌ علينا أرضها وسماؤها
ويا فلُكُ باسمِ الله مجراكِ أقلعي
فما كان إلا أن طوى البحر والثرى
فدون تلاقينا ليالٍ وأشهرُ
وللنيل ما ألقى وما أتكلفُ
فيجمعنا يومٌ بمصر وموقفُ
وما لي من أسبابها أتخوّفُ
بأن المطايا بي إلى الموت تزحفُ
بلادي تحبو في الإسار وترسفُ
أليّة^{٤٥} مَنْ لا يمتري حين يحلفُ
فإما الردى أو يُنصفُ النيل مُنصفُ
وحجّبه سترٌ من الغيب مُسجّفُ^{٤٦}
وبين ديارينا جبال وصفصفُ^{٤٧}

* * *

هنالك ألقى في بني الغرب رحله
بعيد المرامي لا تُهدّ صفاته
تقدّفه في زاهر اليأس همهّة
«وهيهات أن يخشى أخو الحق قوةً
ثوى في بلاد الغرب بالنيل عاتباً
يصرّف أحداث الليالي غواشماً
فطوّراً تراه في «جنيف» لباسه
على همّةٍ من همّها الدهرُ يكلّفُ
عوادٍ إذا صبّت على «الألب»^{٤٨} تحرفُ
جديرٌ بها الليث الهصور المقدّفُ
سوى الحق أو يعنو لبأسٍ فيضعفُ
وفي الغرب للعاني مرادٌ ومألفُ
وأنيابها من شدة البأس تصرفُ
على القرّ أسمال به يتلففُ

٤٥ الأليّة: القسم.

٤٦ أسجّف الستر: أرسله.

٤٧ الصفصف: الفلاة.

٤٨ جبال الألب المشهورة.

إِذَا صَفَرْتَ مِنْ ذَاتِ دُنْيَاهِ كُفُّهُ
وَيَأْوِي إِلَى بَيْتِ وَطِيٍّ عِمَادُهُ
وَيَكْنِفُهُ مِنْ فِتْيَةِ النِّيلِ أَنْجَمُ
إِذَا احْتَدَمْتَ لِلْبَاسِ نَارٌ فَعَلَّهَمْ^{٤٩}
وَإِنْ ذُكِرَ الْمَجْدُ الْقَدِيمُ فَإِنَّمَا
إِذَا مَا انْتَمَى قَوْمٌ لَدُنْيَا جَدُودِهِمْ
وَإِنْ ذَكَرُوا أَبْنَاءَ فِرْعَوْنَ رَجَّعْتَ

تَجَلَّدَ لَا يَشْكُو وَلَا يَتَأَفَّفُ
وَفِي مِصْرَ يَبْكِيهِ الْبِنَاءُ الْمَطْنُفُ
بِهِمْ نَعْتَلِي هَامَ الْفَخَارِ وَنَشْرَفُ
عَلَى الْبَاسِ مَاضٍ ذُو غَرَارَيْنِ مُرْهَفُ
بِذِكْرِهِمْ تَلْهُو الْقِيَانِ وَتَعَزُّفُ
نَمْتَهُمْ لَعْلِيهَا مَعْدٌ وَخِنْدَفُ^{٥٠}
مَنَاقِبَهُمْ وَرُقٌّ مِنَ الْفَخْرِ هُتَفُ

* * *

فِيَا مُسْمِعَ الْأَحْرَارِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
لَقَدْ فَجَعَ «الْفُسْطَاطُ» فِيكَ وَأَهْلَهُ
لَقَدْ فَجَعُونَا فِيكَ يَوْمَ تَتَابَعْتَ
فِيَا وَيْحَ يَوْمَ قَالَ فِيهِ غَرِيبُهَا
بِرُوحِي إِذْ جَاءَ الْأَطْبَاءُ خُشْعًا
يَعْلَلُهُ بِالْقَوْلِ مِنْهُمْ مَبْشُرُ
تَجَوَّفَهُ الدَّاءُ الْعُضَالُ وَهَلْ نَجَا
قَضَى اللَّهُ أَنْ يُسْقَى «فَرِيدُ» بِأَرْضِنَا
يَعِزُّ عَلَى «بَرْلِينِ» أَنْ يَغْلِبَ الرَّدَى
أَطْبَاءَهُ لَوْ يَسْتَطِيعُ فِدَاءَهُ
قَلِيلٌ عَلَيْهِ لَوْ يَفْذِيهِ قَوْمُهُ
فَلَيْتَ اللَّيَالِيَّ سَالَمْتَ فِيهِ أُمَّةٌ
عَرَفْنَا لَهُ بَرَّ الْوَفَى بِعَهْدِهَا
أَفَاضَ عَلَيْهَا نَفْسَهُ بَعْدَ مَالِهِ
وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ نَجَّوْا بِهَا

مُنَى قَوْمِهِ وَالْحُرُّ لِلْحُرِّ يُنْصَفُ
مِنْ الْغَرْبِ نَاعٍ قَامَ بِاسْمِكَ يَهْتَفُ
رِسَائِلُهُم بِالْمَوْجِعَاتِ وَأَرْجَفُوا
عَلَى فُرْشِ الْبَلَوَى بِبَرْلِينِ مُدْنَفُ
وَقَامُوا بِأَكْنَافِ السَّرِيرِ وَطُوفُوا
وَتَبْكِي لَهُ مِنْهُمْ قُلُوبٌ وَتَرْجَفُ
مِنْ الْمَوْتِ مُضْنَى دَاوَهُ يَتَجَوَّفُ
كَثُوسًا بِالْإِسْتِسْقَاءِ لِلنَّفْسِ تَخْطَفُ
عَلَيْكَ بَنِيهَا وَالرَّدَى لَيْسَ يُصْرَفُ
بَنُو مِصْرَ غَالُوا فِي الْفِدَاءِ وَأَسْرَفُوا
بِمَا جَمَعُوا مِنْ تَالِدٍ أَوْ تَطَرَّفُوا
بِرَاهَا الْأَسَى مِنْ بَعْدِهِ وَالتَّلْهَفُ
إِذَا خَانَ قَوْمٌ عَهْدَ مِصْرَ فَلَمْ يَفُوا
وَمَالَ بِهِمْ عَنْهَا مَتَاعٌ وَزَخْرَفُ
لَرَأَتْ بِهَا رِيحٌ مِنَ الْغَدْرِ زَفْزَفُ^{٥١}

^{٤٩} العلهم: الضخم الشديد.

^{٥٠} معد وخندف: حيَّان من العرب. يريد أن أصولهم عريقة في النسب والشرف.

^{٥١} زفzf: شديدة الهبوب في دوام.

يُنَدُّ بالفرقة والانقسام، ويدعو إلى الوحدة

وحين حدث الانشقاق في الوفد سنة ١٩٢١ وقام الخلاف بين سعد وعدي، وانقسمت الأمة تبعاً لذلك، نظم قصيدة يُنَدُّ فيها بالفرقة والانقسام، ويدعو إلى توحيد الصفوف، قال فيها:

كُنَّا أَشْقَاءَ الْإِخَاءِ فَمَا لَنَا
بِالْأَمْسِ كَانَ إِخَاؤُنَا مَثَلًا وَكُنَّا
كُنَّا إِمَامَ الْمَشْرِقَيْنِ سَبِيلُنَا
يَتَرَسَّمُونَ عَلَى الْحَيَاةِ طَرِيقُنَا
فَإِذَا بَنَا جَارَتْ هَوَادِي رَكِبْنَا
عَبَثَتْ بَوَحْدَتِنَا الْخُطُوبُ وَأَعْمَلَتْ
وَالْخَصْمُ يَحْجُلُ بَيْنَنَا لِلشَّرِّ فِي
مَتَنَمَّرٌ يُغَرِّي الْعَدَاوَةَ بَيْنَنَا
أَوَّلَيْسَ فِيمَا قَدْ مَضَى مِنْ عِبْرَةٍ
أَوَّلَمْ يَرَوْا أَوْ يَسْمَعُوا نَذَرَ الرَّدَى
هَذَا تَلَوُّحٌ مِنْ بَعِيدٍ وَتِلْكَ تَر
جَعَلُوا صَحَافَتَهُمْ مَظَاهِرَ كَيْدِهِمْ
صَحَفٌ يَضِيعُ الْحَقُّ فِي أَلْوَانِهَا
الْحَقُّ فِيهَا كُلُّ مَا شَاءَ الْهَوَى
فَلْيَعْتَبِرْ قَوْمِي كَفَى مَا قَدْ جَرَى
لَا تُوجِعُوا تِلْكَ الْقُلُوبَ فَحَسْبُهَا
عَشْرٌ كَوَامِلٌ فِي الْخِلَافِ فَهَلْ بِهَا

صِرْنَا بَنِي الْعَلَاتِ وَالْأَخْيَافِ؟^{٥٢}
زِينَةُ الْخُلَطَاءِ وَالْأَلَافِ
قَصْدٌ وَمَشْرَعْنَا نَمِيرٌ صَافِي
لِلْحَقِّ فِي الْإِيضَاعِ وَالْإِيْجَافِ
عَنْ مَنَهِجِ الْآبَاءِ وَالْأَسْلَافِ
فِي غَرْسِ أَيْدِينَا يَدُ الْإِتْلَافِ
ثَوْبَيْنِ ثَوْبٍ مُوَافِقٍ وَمُنَافِي
بِالْكَيْدِ وَالتَّفْرِيقِ وَالْإِرْجَافِ
لِبَنِي أَبِي وَالْأَمْرِ لَيْسَ بِخَافِي؟
تَطْوِي إِلَيْنَا لُجَّةَ الرَّجَافِ^{٥٣}
مِينَا بِهِ فِي لَهْجَةِ الْأَجْلَافِ^{٥٤}
فَتَزَاوَرَتْ جَنْفًا عَنِ الْإِنْصَافِ
صَوْرًا يَزِيدُ بِهَا عَلَى الْأَلَافِ
حُكْمٌ نُوَيِّدُهُ بِلَا اسْتِئْثَافِ
مِنْ ذَاتِ خُلْفٍ بَيْنَنَا وَتِنَافِي
جَامٌ أَصَابَ مِنَ الزَّمَانِ الْجَافِي
مِنْ ذَلِكَ الدَّاءِ الْمَبْرَحِ شَافِي

^{٥٢} العلات: جمع علة، وهي الضررة. والأخْيَاف: الذين أُمِّهَ واحدة وأبَاؤُهُمْ شَتَّى.

^{٥٣} الرجاف: البحر؛ سُمِّيَ بِهِ لِاضْطِرَابِهِ.

^{٥٤} الأجلاف: جمع جلف، وهو الرجل الجافي.

شعراء الوطنية

شربَت من الأيام كل مرنَّق	من كل مر بالخطوب زُعافِ
أبني أبي رُدوا القلوب إلى الهدى	وتنبَّهوا فالدهر ليس بغافي
الوفد منا والحكومة بعضنا	هذا أخو هذا بغيرِ خلافِ
والشر غايته البوار ومَن أبى	فالله للشعب المروَّع كافي

أحمد زكي أبو شادي

ولد سنة ١٨٩٢



هو الشاعر المجدّد، والأديب الحر المفقّر، الدكتور أحمد زكي أبو شادي.

وُلِدَ سنة ١٨٩٢ بالقاهرة، من أسرة عريقة في الوطنية، وأبوه المرحوم محمد أبو شادي أحد كبار المحامين الذين نالوا المكانة الرفيعة في عالم المحاماة وممن جاهدوا في الحركة الوطنية، ووالدته السيدة أمينة نجيب من السيدات الأدبيات الشاعرات، وكان أخوها المرحوم مصطفى نجيب^١ أديباً وطنياً وصديقاً ونصيراً للمرحوم مصطفى كامل. أتم دراسته الابتدائية ثم الثانوية في المدارس المصرية، وظهرت مواهبه الشعرية والأدبية في هذه المرحلة من الدراسة، وكان من تلاميذ مصطفى كامل في الوطنية، ودخل كلية الطب بالقاهرة، ولم تصرفه الدراسات الطبية والعلمية عن الاستمرار في دراساته الأدبية؛ فأحب الشعر وتذوّقه، وأقبل على نظمه وهو في هذه السن المبكرة، وشعره رقيق مُمتع، يمجّد الوطنية وينزع إلى الحرية والتجديد والخروج على الأساليب القديمة، واحتفظ بهذا الطابع على تعاقب السنين، وأكمل دراسته الطبية في إنجلترا، وتعمّق في الآداب الإنجليزية إلى جانب دراسته من قبل للآداب العربية، وازداد تعلقاً بالتجديد في الأدب والشعر، ولما عاد إلى مصر تنقّل في مناصب الحكومة وصار أستاذاً للبكتولوجيا بكلية الطب بجامعة الإسكندرية ومديرًا للمعمل البكتولوجي بالمستشفى الحكومي بها. كان ولا يزال يصدر في شعره عن إلهامه وعقيدته وإيمانه، وفي ذلك يقول عن نفسه:

وهل كان شعري غير إيمان مُهجتي وعشقي وإحساسي ولحني المرّد

وكوّن مدرسة أدبية تزعمها، ترمي إلى الثورة على القديم والدعوة إلى الحرية في الفكر والأدب والفن، وكان لهذه المدرسة مجلة أدبية تُسمّى مجلة «أبولو» الشعرية الأدبية، أصدرها أبو شادي في القاهرة سنة ١٩٣٢، وكانت لأنصار الجديد من الشعراء والأدباء، وتكاد تكون المجلة الشعرية الوحيدة التي ظهرت في العالم العربي، وقد استمرت نحو ثلاث سنوات ثم احتجبت.

وقد صادف أبو شادي في حياته الحكومية والأدبية عنّتاً وأذى من رؤسائه وأنداده، واستُهدف من أجل نزعته الحرة لشتى ضروب المناوأة؛ فاعتزم الهجرة من مصر، وهاجر فعلاً إلى نيويورك في سنة ١٩٤٦، وهناك رحّبت به الدوائر الأدبية والعلمية ترحيباً عظيماً، وأخذ ينشر في الصحف والمجلات العربية والأجنبية في أمريكا ثمار أدبه وشعره، ونفحات

^١ والد الأديب الأستاذ سليمان نجيب.

آرائه وأفكاره، كما أخذ يُذيع من «صوت أمريكا» مرتين في الأسبوع، وأسّس في نيويورك «رابطة مينرفا» الشعرية الأدبية على غرار «جمعية أبولو»، وقدّرتَه الحكومة الأمريكية والجامعات والمعاهد والمؤسسات الثقافية في العالم الجديد، وانتُخب أستاذًا للأدب العربي بمعهد آسيا بنيويورك، وهو يتولاه إلى اليوم بجدارةٍ تفخر بها مصر، ويُعد أبو شادي رائدًا من رواد النهضة الأدبية والفكرية الحديثة، وهو رغم هجرته إلى العالم الجديد دائمُ الصلة بوطنه بواسطة الصحافة في أمريكا وفي مصر، وبواسطة مريديه وتلاميذه الممتازين الذين اقتبسوا من روحه التقدمية وتعلّقه بالحرية وإيمانه بما يقول ويكتب.

وهو في أحاديثه ومحاضراته لا يفتأ يذكر مصر ويُناضل عنها ويحنُّ إليها ويُشيد بها وبعلمائها وأدبائها وتاريخها، وهو في غربته خير سفير أدبي لمصر في العالم الجديد.

وله عدة دواوين من الشعر نحا فيها مَنحى التجديد والابتكار، وحلّق في سماء الفن والخيال والسمو الفكري.

نذكرُ منها ديوان «أنداء الفجر» وهو أول دواوينه ومختارات من نظمه سنة ١٩١٠، و«أنين ورنين» وهو صُور من شعر الشباب، و«الشفق الباكي» وقد ظهر سنة ١٩٢٤، و«الينبوع»، و«أشعة وظلال» وقد نُشر سنة ١٩٣١، و«أطياف الربيع» و«فوق العباب» وقد طُبِع سنة ١٩٣٥، و«عودة الراعي» وقد ظهر سنة ١٩٤٢.

ومن آخر دواوينه «من السماء» وقد ظهر في نيويورك سنة ١٩٤٩، ويضم معظم شعره من سنة ١٩٤١ إلى ١٩٤٩.

هذا عدا ما أخرجه من الكتب والمؤلّفات والقصص والمسرحيات.

رثاؤه لمصطفى كامل

قال من قصيدة له في فبراير سنة ١٩٠٨، وكان لا يزال طالبًا بالمدرسة الثانوية، يرثي مصطفى كامل:

يا مصرُ حلّق طير اليأس في أفق
داج بأحزان شعب كان ساليها
مات الرئيس فماتت بعده همم
قد كان نبراس فكر منه يُجليها

إلى أن قال:

سارت به أمة أحيا مداركها
ودّت لو أنّ صروف الدهر تأتيتها
والكل يلبس ثوبًا للجِداد أَسَى
أبصارها نكست من فوقها كُتِبَتْ
مصر الفتاة مرور العمر تذكّره
حتى إلى القبر وارت فيه حاميتها
وتلّكم النفس هذا الشعب يفديها
على الفقيد وما من مات يهديها
عبارةً كان صدقُ الحس يُملِيها
لروحه لم تزل تعدو أمانيتها

مَفخرة رشيد

وله في سنة ١٩٢٥ قصيدة وطنية من نيف وستين بيتًا، نظمها تمجيدًا لذكرى معركة رشيد التي وقعت يوم ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ بين المصريين والإنجليز، وفاز فيها أبطال رشيد على الجيش البريطاني الذي زحف على مدينتهم يريد احتلالها، فصمدوا له وقابلوه في الشوارع واستبسّلوا في الدفاع عن مدينتهم حتى صدوه عنها وهزموه، وارتد عن المدينة بعد أن فقد في المعركة ١٧٠ قتيلًا و ٢٥٠ جريحًا و ١٢٠ أسيرًا،^٢ وكانت هذه المعركة حقًا مَفخرة لرشيد، أشاد أبو شادي أيضًا في قصيدته بالمعركة الثانية التي وقعت في «الحماد»، وانتهت كذلك بهزيمة الجيش البريطاني.

قال:

رُوّحينا بأحاديث الجلال
واسمحي يا «مصر» أن نَزجي لهم
ما عرفنا قدرنا إن لم نحزْ
وبآمالٍ لآتٍ غالبٍ
خاطئٍ مَنْ ظنَّ ماضيه بلا
ما نما شعبٌ بلا جهدٍ مضى
هي أحلامٌ وأعمال بنّت
وبنفجٍ من هواهم غيرِ بالٍ
مُنتهى فخرِ رجالٍ برجالٍ
سيرةً منهم تُغذِّينا بحالٍ
إنَّ آتي المجد من ماضي الخيالٍ
مُرشدٍ يهدي إلى غالي المالٍ
وتبقى فيه تذكّارُ الفعّالٍ
في سنينٍ وسنينٍ كلٌّ غالي

^٢ راجع في تفصيل معركة رشيد كتابنا «تاريخ، الحركة القومية الجزء الثالث، عصر محمد علي».

أحمد زكي أبو شادي

هو مهْدٌ وُلِدَتْ فِيهِ الْعُلا
لم تجئ طفرةً جيلٍ لاعِبٍ
بأناةٍ وكفاحٍ ونوالٍ
إنما جاءت على طولِ الليالي
كأبرُّ عن كأبرٍ قد صانها
بمراعاةٍ وأخلاقِ المعالي

إلى أن قال مُحييًّا ذكرى أبطال رشيد الذين صدوا جيش الغزاة المستعمرين:

رَوْحِينَا «مِصر» مِنْ ذِكْرَاهُمْ
بَلِّغِينَا كَيْفَ أودى عِزُّهُمْ
تلكَ ذِكرى عن بلوغٍ لُمَحالٍ!
بِصعابٍ قُمنَ أقسى مِنْ جبالٍ!
كَيْفَ هَزُّوا قُوَّةَ أَكْبَرِهَا
كَيْفَ ضَحَّوْا لِلرِّمالِ دَمِهمْ
في دِفاعِ العِزِّ عن تلكَ الرِّمالِ!
نُحوهم أَقوى مَعَدَّاتِ القِتالِ!
كَيْفَ أَفْنَوْا مِنْ جُنُودٍ صَوَّبَتْ
كَيْفَ كَيْفَ اسْتَبَسَلُوا فِي وَاجِبِ
وَأقاموا المُلْكَ وَضَاءَ الخِلالِ!؟

* * *

يا «رشيد» الذِكرُ حَيٌّ خالِد
أنتَ ثَغْرٌ ناطقٌ في رِسمه
لِعَظِيمِ الجُهدِ مَعْدُومِ المِثالِ
حُرْمَةُ المَاضِي لـ «النيل» الزُّلالِ

إلى أن قال:

مِثْلَ ما أَذكى لَها شُبانِها
كَالجِرادِ نَشْرُهمْ فِيكِ على
فإذا العادون جاءوا ما بهم
وأنتَ فَرَقْتَهُمْ في نَشوَةٍ
بِينَ قَتلى وَحِيارى هَرَبوا
ثَمَ جاءوا في خُمِيسٍ لَجِبٍ
فَتَحَدَّوا خَصَمَهُمْ قَبْلَ السُّؤالِ
رَبَواتٍ يَرَقِبُونَ وتَلالِ
ثِقةٌ إِلا وَضاعَتِ في مَلالِ
عَنكَ فَارتَدَّتْ خِيالاً في خِيالٍ!^٣
وَضَحايَا لِإِسارٍ وَعِقالِ
وَعَوادٍ لَمْ تَكُنْ جالَتِ بِبالٍ^٤

^٣ يقصد معركة رشيد.

^٤ يقصد معركة «الحماد» التي تقع جنوبي رشيد بين النيل وإدكو، وقد وقعت فيها المعركة الثانية بين الإنجليز والمصريين يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٠٧، وكانت أشد وأقوى من معركة رشيد، وهُزم فيها الجيش

من متاريسٍ كَفَت رُؤيتُها
وعديد بين باغي مَدفع
وأَبوا إلا حصارًا هائلًا
وغنمت كل ما كان لهم
رحلوا رحلةً جانٍ ضائع
لحساب وعقاب ونكال!
أَسود الوجه وإمدادٍ مُوال!
فدفعت الحصر دفعًا بالعوالي!
من شموخ وإباءٍ قبل مال
بئس يوم الخُسْر من يوم ارتحال!

* * *

هكذا بالبأس تحيا أمة
هكذا بالوحدة الحسنة لا
إن شعبًا يتحدى «انجلترا»
وبنين ينشدون مثل ما
إنما الأمة من أفرادها
لا بخوف أو غُلُو أو خبال
يعدم الإصباح أبناء الهلال
في مجال الحق شعبٌ لا يُنال
أحسن الآباء أولى باكتمال
في ثبات ووفاء ونزال

إلى أن قال:

إيه قومي قُمتُ فيكم ذاكرًا
وأنا اليوم طُروبٌ ذاكرُ
فلنا كلتاها عنوانُ ما
أيُّ مصريٍّ درى ما لقَّنا
أيُّ جمعٍ من خصالِ حرةٍ
أيُّ شعبٍ في جلالِ وسنى
كلُّنا فردٌ له أمُّه
لا سُبَّاتٌ — هان أم طال بنا —
في طَلابِ المجد أن تمضي بنا
خاب مَنْ ظنَّ الرقَّادَ ميتةً
«نافرين» الأمس في مُشجى المقالِ
دُرَّة التاريخ شَعَّت كاللآلي
يحفظ التاريخُ من غالٍ وحالٍ
من عِظات ثم أضحي وهو سالي؟
لم تَكْرَم جمعَ هاتيك الخصالِ؟
يَدَّعي أنا عبيد وموالي؟
حظه بل قصده في كلِّ حالٍ
ما يؤدِّي بعلنا لانحلالِ
فترةً للهِو أو دورُ انتقالِ
كم أَسودِ رَقَدَت تحت الظلال!

البريطاني أيضًا هزيمة ساحقة، انتهت بفشل الحملة البريطانية وجلاء الإنجليز عن الديار المصرية في
سبتمبر سنة ١٨٠٧.

* * *

سنة اللهو وهياً للمجال!	آن رَجُعُ الجهدِ قومي فانفضوا
صارت الحربُ أعاجيبَ اشتغالٍ	بسلاح العلم قبل السيف قد
يبلغ المَدفع منه كفعالٍ	رُب خيطٍ من نسيج القطن لا
والصناعات وليست للجدال	عالمٌ فيه الفنون قوةٌ
لاقتصاد وانتفاع واشتمالٍ	عملٌ مُستتبَع لا ينقضي

* * *

أُمَّتي! أحدى دُعائي دعوةٌ	لك من قلبي بها أسمى ابتهالي؟
----------------------------	------------------------------

رثاؤه لفريد

قال سنة ١٩١٩ من قصيدة له في رثاء محمد فريد:

سَلُوا «برلين» عَمَّن حل فيها	يُفَتَّتْ كبدَه المرضُ العنيدُ
مضى يستوهب الأيام عمراً	تتم به المَساعي والجهودُ
فلم يذهب بعِلته طبيبٌ	ولم يُكْتَبْ له عمرٌ جديدُ
وخرَّ على السرير وحبُّ مصر	على تبريح عِلته يزيدُ
فيا لهفي عليك وأنت كهلٌ	غريب عن أَحَبَّته بعيدُ
تموت فلا ترى مثواك أمٌ	ولا أختٌ ولا زوجٌ ودودُ
ولا يروي ثراك أخٌ شقيقُ	بدمعته ولا طفلٌ وليدُ

الحياة كفاح

قال سنة ١٩٣٣ من قصيدة له عن «المجاهد الجريح» يصف الحياة وكأنها كفاح وجهاد:

شهدتُ من الدنيا المعارك والمُنَى	تشوق الفتى نحو المعارك والخَطْبِ
فَصِرْتُ كجندِيٍّ جريحٍ مضمَدٍ	يئنُّ ولكن كم يحنُّ إلى الحربِ
ويهرب من حُكم الحِجَا في وُثوبه	إلى ساحة الهيجاء والموقف الصعبِ
توالت جراحاتي وأوذيت دائماً	وهيهات ألقي من سلاحي ومن دأبي

يدعو الشعب إلى مجاهدة الفساد

وقال من قصيدة له في ديوانه «عودة الراعي» سنة ١٩٤٢:

يا شعب قُمْ وانشد حقو قك فالخنوع هو الممات
«تشكو الغريب وعلة الشـ كوى الزعامات الموات»
قد عمّت الفوضى وقد دب الفساد بكل شي
فإذا سكنت فلن تُعدَّ ولن يفى لك أيُّ حي

* * *

ما دمت تقبل أن تكـ ن من الضحايا كالعبيد
سيسومك القُوم والـ أسياد ألوان القيود

* * *

يا شعبُ كيف تُطالب الـ غرباء بالبر السخي
وتُطبق مُلكك في محـ باة وفي نهـب وغي

* * *

هيهات يُعطى الحقَّ من ألف التهاون في الحقوق
هذا هو العدل الصحيح ح وغيره عين المروق

* * *

انهض وحاكم بائعيـ ك إلى الهوى وإلى الفساد
أو مُت ذليلاً لا يُقا س بذله حتى الجماد

يودّع مصر

وقال يودّع مصر ويذكر أسباب هجرته في قصيدة له عنوانها «لم ارتحلت؟»:

سألوني لم ارتحلت؟ كأني لم أجبهم بسيرتي نصف قرن
شاديًا بالطلاق من شعري البا كي أغني لمجدهم ما أغني
وحياتي لعزهم في كفاح ككفاح الشعاع في وسط دجن

مُثَلُّ لَنْ تُحَدَّ نَوْعًا وَعَدًّا
وتَبَلَّغْتُ بِالْعَذَابِ وَبِالْبُؤْ
وَكَأَنِّي وَحْدِي الْمُسِيءُ بِإِحْسَا
مَا كَفَاهُمْ أَنِّي أُعَانِي وَجُودِي
مَا كَفَاهُمْ أَنِّي أُوَاجِلُ لَيْلِي
مَا كَفَاهُمْ أَنِّي أَضْحِي بِرُوحِي
مَا كَفَاهُمْ أَنِّي تَنَاسَيْتُ نَفْسِي
مَا كَفَاهُمْ أَنِّي لَهُمْ ذَلِكَ الرَّا
مَا كَفَاهُمْ أَنِّي ارْتَضَيْتُ شَقَائِي
مَا كَفَاهُمْ هَذَا وَهَذَا فَنَادُوا
ثُمَّ حَالُوا بَيْنَ الْمَثَالِيَةِ الْعَلِ
فَتَرَحَّلْتُ حَيْثُ تُحْتَرَمُ الْأَحْ
وَأَظَلُّ الْوَفِيِّ رَغْمَ اغْتِرَابِي

كُنْجُومِ السَّمَاءِ فِي كُلِّ فَنٍّ
سَ مَرَارًا وَكُلِّ حَظِي التَّجَنُّي
نِي لِعَصْرِي أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَسْعَنِي
فِي وَجُودٍ بِقَاوِهِ مُحَضُّ غَبْنٍ
بِنَهَارِي لِأَجْلِهِمْ وَسَطٌ مِّنْ
حَيْنَمَا عَزَّ مَن يَضْحِي وَيُفْنِي
فَوْقَ نَسْيَانِهِمْ حَقُوقِي وَأَمْنِي
ئِدْ يَشْقَى كَالرَّاحِ فِي أَسْرِ دَنْ
لِي جَزَاءٌ وَيَهْدُمُونَ وَأَبْنِي
بِعَقُوقِي وَمَا رَعَوْا حَقَّ سِنِي
يَا لِفَكْرِي وَبَيْنَ شَعْبِي وَبَيْنِي
رَارَ حَيْثُ الْهَوَاءُ طَلَّقَ لَذَهْنِي
لِبِلَادِي مَا غُيِّبَتْ قَطَّ عَنِي

القلب الباكي

ومن قصيدة له نظمها في عيد ميلاده عام ١٩٤٨ يُنَاجِي فِيهَا الْوَطْنَ قَائِلًا:

يَا مِصْرَ لَوْلَاكَ مَا فَارَقْتُ فِي حُرْقِي
أَهْوَاكِ فِي غُرْبَتِي أَضْعَافَ مَا سَمَحْتُ
مَا الْعِيدُ عِنْدِي عِيدٌ فِي مَبَاهِجِهِ
عَلَى سَلَامٍ وَفِي حَرِيَّةٍ شَمَلْتُ
الْثُلُجَ حَوْلِي أَحْنَى فِي تَحْرُّرِهِ
وَالنَّفْسِ أَسْعَدَ أَيَّامِي إِذَا فَرَضُوا
يَا رَبُّ مُقْتَرِبٌ فِي حُكْمٍ مُّغْتَرِبٍ

أَزْكَى الْجِنَانِ وَلَا عُوقِبْتُ لَوْلَاكِ
بِهِ الْمَقَادِيرُ فِي قُرْبِي وَأَهْوَاكِ
أَنَا الْغَرِيبُ فَعِيدِي يَوْمَ أَلْقَاكِ
لَا أَنْ أَعُودَ لِأَغْلَالٍ وَأَشْرَاكِ
عَلَى فَوَادِيٍّ مِنْ ضِيمٍ بِدُنْيَاكِ
ذَلَّ الْجَبَاهُ لِمَأْفُونٍ وَأَفَّاكِ
وَضَاحِكٍ كُلُّ مَا فِي قَلْبِهِ بَاكِي

الحنين إلى الوطن

قال يصف حنينه إلى الوطن وتعلقه به في غربته:

عان ونفي معذب في وحدتي	نَفَيَانِ نَفِيٍّ مَغْرَبٍ عَنْ أُمْتِي
حدُّ فلا ألقى النعيم بنعمتي	وحَيَالِي الْأَفْرَاحِ شَتَّى مَا لَهَا
كافحت في وطن به حُرِّيَّتِي	قَالُوا فَرَرْتُ وَمَا فَرَرْتُ وَإِنَّمَا
للعاملين وكم شقيتُ لأُمْتِي	وَضَرَبْتُ بِالْحَرَمَانِ أَمْثَالَ الْهَدْيِ
بتمسكي بمبادئ في ثورتي	لَمْ أُعَنَّ بِالْأَشْكَالِ قَدَرَ عَنَائِي
وحرقت في إعزازها من مُهجتي	حَرَقَ الْبُخُورَ لِمَنْ أَذَلَّ بِلَادَهُ
وأظُلُّ في سقمي وفي شيخوختي	وَجَعَلْتُ مَا عَانَيْتُ قَرْبَانًا لَهَا
جهدي وإخلاصي وغاية غيرتي»	«وَطَنِي! رَضِيكَ مُنْصَفًا فِي قَدْرِهِ

يتشوق إلى مصر

ومن قصيدة له في حفلة أقيمت لتكريمه في نيويورك سنة ١٩٥٠:

لَجَنَةٍ ضُيِّعَتْ فِي نَوْمِ جَنَانٍ	تَرَكْتُ مِصْرَ وَقَلْبِي لَوَاعَةٍ وَلِظَى
نَفْسِي وَمَا وَهَبَتْ فِي حُبِّهَا الْجَانِي	فَدَى لَهَا — لَوْ أَبَاحَتْ — كُلُّ مَا مَلَكَتْ
به المقادير في أشجانٍ لهفانٍ	تَرَكْتُهَا وَبُودِي غَيْرُ مَا حَكَمْتُ
وأنفخ الصورَ إن فاتته نيرانِي	وَقَلْتُ عَلَيَّ عَلَى بَعْدِ أُشَارِفَهَا
الحب والنيل مذ كانا بإنسانٍ	«اِثْنَانِ خُلِدَتْ الدُّنْيَا لِأَجْلِهِمَا

الوطن بأبنائه

قال في اعتراف المواطنين بأقدار الرجال وأنه من مظاهر الوطنية السليمة:

لبعض نُزَّهوا عن كلِّ ضعفٍ	إذا عَرَفَ الرِّجَالُ حَقُّوقَ بَعْضٍ
ويغدو الفرد معدودًا بألفٍ	فتنتظم البلاد بهم وتسمو

تأملات

ومن قوله في قصيدة له بعنوان «أقصى الظنون»:

ما الخلق ما هذه الدنيا وَمَنْشُؤْها؟	ما الفكر ما الجوهر الباقي وما العدم؟
مسائلٌ هي للأحقاب باقيةٌ	كما سيبقى الردى والشك والألم
أجلٌ فرض لها وهمٌ وأيسره	وهمٌ وقد يستوي الدهماء والعلم

الوطنية والعروبة

ومن قصيدة له يعبر فيها عن وطنيته وعروبيته:

إن العروبة والكنانة ملّتي	دينٌ يوحدّه الوفيّ العابدُ
فلَمَوْطني رُوحِي وكل جوارحي	ولكم حنيني والشعور الماجدُ
يكفي لنا النسب العتيد مجمعاً	فجميعنا صيدٌ رماه الصائدُ

نداء الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩٥١ يُناجي الشعب ويمجد جهاده ضد الاحتلال في معركة القتال:

«بُورِكت يا شعب الكنانة ثائرا	حرّاً ويا وطن البطولة قاهرا»
أُزجي إليك تحيتي من خاطر	دامٍ ومن قلبٍ يذوب مَـشاعرا
يأبى النفاق ولا يبوح بغير ما	جعل الحياة نفائساً وذخائرا
ليس الصديق هو المقرَّب وحده	ولرُبّ مهجورٍ يُظنّ الهاجرا
«إن كان غيَّبني العتاة فمُهجّتي	لك أين كنت مُكافحاً ومُناصرا»
أبى مساومة الطغاة وإن أذق	شر الأداة، مُواليّاً لك ذاكرا
إن كان يُعوزنا السلاح فربما	خلق الإباء بنا السلاح الباترا!

* * *

وحشٌ للاستعمار يُمعن شره	باسم الحضارة والتقدم ساخر
وكأنما حسب العقول نفاية	للناس أو بعض الهواجس دائرا
هل يُصلح المِذياع من آثامه	حين الرصاص يصيح أرعن كافرا؟

حين الفظائع قد خطَبَنَ بِألسُن
حين الأساطير التي يُدلي بها
لِلنار واعتلت الجِراح مَنابرا؟
سبَّتْ بصائر للورى وسرائرا؟
حين الخرائب صارخات حوله
مثل اليتامى لا تمثِّل عامرا؟

* * *

إن كان حُسن الظن ذنبًا أولًا
هو غاية الإجرام للوطن الذي
فيه فكيف يُعَد ذنبًا آخرًا؟
عانى وعانى مِن أذاه خسائر
لِفَتَى يُخادِع أو يخادِع صابرا
هل كان الاستعمار إلا جائرا؟
أن يحذروه مُفادِصًا ومُشاورا
مهما تَقَلَّب في المظاهر ماكرا
فمن القطيعة ما يكون الزاجرا
وعدُّ نوْمَل فيه بعثًا باهرا!
فعالة لا ضجة وحناجرا!
إن السلامة قد تكون مَخاطرا
ذهبوا الضحايا في «القناة» حرائرا
تبقى لأحقابٍ تدوم ذواكرا
مهما تَلَأْ روعةً ومفاخرا
إلا لِيُلْهِم غافيا أو شاعرا
إن الحقيقة ما تمثِّل حاضرا
بثباتكم لا تجعلوه العابرا
إن التفوق لا يُطيق مَعاذرا!

حذرًا بَنِي وطني! فذاك عدوكم
لا تمنحوه سوى القطيعة وحدها
أو ما يكون به الخلاص ليومكم
حذرًا بَنِي وطني وكونوا وحدة
ليست سلامتكم مجالًا هيئًا
لا تأسفوا — مهما حزنتم — للألى
حمل الأديم من النجيع وصية
خلُّوا التغني بالجدود وفضلهم
فهو الغني بذاته عن ذكره
وخذوا بأسباب لمنعة حاضر
كونوا من الشهداء في إعجازكم
لا عذرَ بعد اليوم عند تهاون

يُهاجم فاروقًا قبل خلعه

ومن قصيدة له نشرها في مجلة «الشهباء» التي تصدر في حلب — عدد أبريل سنة ١٩٥١ —
يُهاجم فيها فاروقًا قبل خلعه بعام، ويشبِّهه بالركدن، وهي من بليغ شعره الوطني، قال:

من دمعة الشعب ومن كدِّه ومن دم الأمة في نَرِدِه

مملِّك الحد على صفوها يا ليتها تملك من حدِّه
كم يجعل الدين جبالته ليخنق المصلح في مهده
قد عضَّها النحس وما عضَّه إلا فمٌ يرشف في وجده
يمرِّغ الأمة في رجسه ويسرق الأمة في رنده
عانت به وبأوشابه في قُربه الجاني وفي بُعده
مُنْتَفِخًا، يمزح مُستغْرِقًا في اللهو، كالصائد في صيده
كالكركدن الذي يزدهي في قبحه يُسخر من قدِّه
لم تُعطه غانيةً قُبلة إلا كمن تهزأ من رشدِه
أو بادلته نكتة حلوة إلا ومغزاها مدى نقده

* * *

حتَّامَ يا قومُ ضلالتكم تمكَّن الفاجر من قصده؟
كنا نرجِّيه مثال الهدى فأصبح الغاشم في حقه
كنا نغنيهِ أغاني العُلا فأصبح المُبدل من حمده
كنا نفدِّيه بأرواحنا في روحه العالي وفي زهده
ما باله أضحى فتىً ماجنًا الشارد الخادع في وعده؟
حتَّامَ يستهزئ من مجدكم؟ حَتَّامَ؟ والخسة من مجده
حتَّامَ يسترسل في غيِّه؟ حَتَّامَ؟ والسوقَةُ من جنده
حتَّامَ أعلاكم له صاغرٌ؟ حَتَّامَ؟ بل أهون من عبده
أعقلكم دون دفين الثرى لو يعقل الميِّت في لحده

يُحيي ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

وقال سنة ١٩٥٢ من قصيدة له مُحييًّا ثورة سنة ١٩٥٢:

بوركت يا وطني العزيز محرَّرًا سمحًا وفي كل القلوب حبيبًا
لو أستطيع كتبت شعري من دمي حتى أزيد بشعري الترحيبًا
لو أستطيع سألت كل خميلة وبعثت بالشعر المنور طيبًا
لو أستطيع زففتُ ما أنا عاشق ليكون قربانًا أعز قريبًا

لو أستطيع بعثت من ضحك الضحى
لو أستطيع وهبت كل مكافح
لو أستطيع أعدت أعواماً مضت
لو أستطيع بذلت أضعاف الذي
لو أستطيع غسلت ساحة دُوركم
لو أستطيع هربت من شيخوختي
كنزاً ومن لهف الغروب نسيبا
عمرًا تكرر في الخلود عجيبا
لتقصّ أحلاماً رأيت ووجيبا
حُمّلت في إثاري التعذيبا
بمدامعي ورششتها تطيبا
ورجعت أرفل في الشباب قشيبا

يُنَادِي بِالْغَاءِ الْمَلَكِيَّةِ

من قصيدة له في أكتوبر سنة ١٩٢٥ يدعو إلى إلغاء الملكية:

اقطعوها وانبذوا من دعاها
قد خدعنا في الذي قالوا لنا
أثرٌ أحياء قرونًا سلفت
قلتُ «أحياء» ليته الحلم الذي
إنما أحياء شرورًا سلفت
خدعونا حقبة واستسهلوا
كم تغنّينا بحب صادق
سلطة الشعب هي الأم التي
نعمةٌ إنا شيعنا من أذاها
عن جناها بئس ما يجني جناها
وأما العصرُ في بغي تناهى
كان أحياء الأمس إصلاحًا وجاها
زوّقوها كي يعدّوه إلها
أن يضلوا الشعب في الذل فتاه^٦
فرأينا من هوى فيمن تباهى
أنمت الأحرار لا دعوى سواها

يُحْيِي الْجُمْهُورِيَّةَ الْمِصْرِيَّةَ

وقال من قصيدة له في ١٩ يونيو سنة ١٩٥٣ يُحْيِي الْجُمْهُورِيَّةَ الْمِصْرِيَّةَ بعد إعلانها:^٧

إذا الحُكْمُ لِلْجُمْهُورِ أصبح رائدًا
أبى الحق أن يلقي به العارَ والظُلما

^٥ أي العصر الحاضر.

^٦ فتاه: أي فضل.

^٧ أُعلنت الجمهورية في مصر يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣.

أحمد زكي أبو شادي

فيا أمة «النيل» المبارك حاذري
— وقد نلت ما تهوين — أن تخلقي الضيما
ولا تقبلي التفريق في أي مظهر
فمن يقبل التفريق يستأهل الرّجما

* * *

أعيدك من وهم يصير عقيدة
فكم أمة هانت بإعزازها الوهما
أعيد «جمالا»^٨ والزعيم «محمدا»^٩
بحذقهما من حدّ مطلبك الأسمى
قد انتزعا من قبل حظك عنوة
وما برحا والدهر كالطائش الأعمى
تجبر واستعلى فرداه صاغرا
وقد كان كالمحموم سكران بالحُمى
وها أنتِ بالعهد الجديد طليقة
ومُنجية أعلام نهضتك الشُّمّا
ففي كل شبر من ثراك خميلة
وقد كانت الويلات تغتاله قضا
وفي كل ركن من ربوعك ملجأ
تلوذ به خير المواهب أو تحمى

* * *

فيا «مصر» عُضي بالنواجذ حرة
على ما كسبت اليوم واغتنمي اليوما
وهيا أعدّي للغد المُرتجى علّا
تبرز بإعجاز لها كل ما تمّا

^٨ جمال عبد الناصر.

^٩ محمد نجيب.

شعراء الوطنية

إِخَاءٌ وَتَنْظِيمًا وَعِلْمًا وَهَمَّةً
وفنًا تهز الغافلين أو الصُّمَّاءَ
ولا تشتكي من لاعج اليُتم بعدما
أزلت بهذا النصر من دمك اليُتَمَّا
ألا في سبيل المجد ما قد غنمته
وها هو قد أضحى لكل الورى غُنمًا
فإنَّك للأقوام أمثولة الهدى
وما خصَّ شعبًا يستفيق ولا قوما

* * *

تبارك ربي حين يُنصف أمةً
تعافُ ذليلَ العيش واليأس والنوما
عزيزٌ على مثلي البِعاد وقد زهت
منائرُ الزهراء تستقبل السَّلما
عزيزٌ وفي قلبي حنانٌ مؤرِّق
وحسبي — على رغمي — مفارقتي الأمَّا
إذا جئت هذا اليوم أزجي تهانئي
فمن قلبٍ محرومٍ تهلَّل إذ يُدمى
ولكن نفس الحر نفسٌ عجيبةٌ
تعيش على الأضداد مهما تَكُنْ غُرمًا

يذكر مصر ويحنُّ إليها

وقال من قصيدة أخرى يذكر مصر ويحنُّ إليها:

لا تنهروا روعي لفرط ولوعها	دَمْعِي الَّذِي تَأْبُونُ بَعْضُ دُمُوعِهَا
أَلَقْتُ بِيَ الْأَحْدَاثِ دُونَ رَبِيعِهَا	وَأُظِلُّ أَحْيَا فِي صَمِيمِ رَبِيعِهَا
تَتَبُّ الرُّؤْيَى حَوْلِي بِأَنْفَاسِ الرُّبَى	وَنَوَافِحِ الْغُدْرَانِ حَوْلَ رَبِيعِهَا
وتَهْزُنِي الذِّكْرَى فَأُشْرِقُ بِالْأَسَى	وَالذِّكْرِيَّاتِ وَهُوبِهَا كَمَنْعِهَا

* * *

معنى السلو وحرقتي لجموعها	كم واهم أني سلوت وما درى
كبكائه لسمائها وزروعها	إني الفتى الوافي بكى حصاءها
بحنانها وتراقصت بولوعها	دنيا الصباحة والجمال تلالأت
شتان بين عبادتي وخضوعها	أجد الخضوع لها أحبَّ عبادة

* * *

غير الندى والشمس غبَّ طلوعها	لو أستطيع طردت عن أزهارها
وجعلت أضلاعي أبرَّ دروعها	وحميتها مما أغار تجنيًا
في عزمها كالشمس بعد هجوعها	وبعثتها من نومها وجعلتها
سيان بين وضيعها ورفيعها	وأثرتها لعظائم ومفاخر

* * *

منها الخيار فخيرها بجميعها	مصر الحبيبة جنَّة لا أشتهي
بحياتها وتصورت بصنيعها	أهوى لها الإعزاز كيف تمثَّلت
فلقد أفاء عليَّ حلم بديعها	إن كان عاقبني الزمان بغربتي
فلقد جنت عيني طيوف نزوعها	أو لم تنل عيني شعاع سنائها
والنفس حيرتها أشد صدوعها	وتركنني في حيرة لا تنتهي
وتبتَّلت في حبها وركوعها	ركعت بمحراب الجمال بوهمها
والدمع والتقبيل يوم رجوعها!	وأذابت الأحلام في ألعانها
دمعي الذي تأبون بعض دموعها	لا تنهروا روعي لفرط ولوعها

ذكرى الشهداء

وقال في «ذكرى الشهداء»:

ألُق الشموس لها من الأفواف	ذكرى يرددها الزمان الوافي
عمر البطولة بآل كل شغاف	شغت على مر السنين وعمرها
من يُحجمون إلى الخلود الضافي	متغلغلًا بنهى الفوارس دافعًا

شعراء الوطنية

اليوم يوم صَلَاتنا لجلالها واليوم نُقَرِّئُها الحنان الوافي
وعلى الثرى نجثو نقبَلُ تربةً عبقّت بحُرٍّ شعورها الرفافِ
ما كان بالخافي على مُستلهمٍ شهم وليس على الأبيّ بخافي

* * *

إنا بَنِي الأحرار نعرف قدرها ونشيمها في النور والأطيافِ
وبكلّ معنًى للعظائم شامخ وبكل نبع للحقيقة صافي
لا مَجْد غير الحق يبقى ناصعاً سمحاً على رغم الردى المُتلافي

* * *

هذي مقابرهم وتلك دماؤهم مثل النجوم ونورها الشفافِ
هيئات يُدركها الطغاة وربما سجدوا لها رغماً عن الآنافِ
سيجيء يوم للحساب، قُضائهم تلك العظام، بغضبةِ الإنصافِ!

* * *

يا أمة الأحرار دُومي حرة والتضحيات لك الجلال الكافي
وبحسبك الشهداء ضَمَخَ ذكرهم هذا الأثير وشاع في الألفافِ
يومٌ كهذا اليوم تهتف عنده مُهَجّ الشعوب العانيات هتافي
وتُعزّه الدنيا التي حلمت به حلمي وتزأر وثبةُ الآلافِ!

يُهاجم الاستعمار ويُنادي بالثورة

ومن قصيدة به يُهاجم فيها الاستعمار ويُنادي بالثورة عليه، نظمها سنة ١٩٢٥ لمناسبة الصراع بين الحرية والاستعمار في تونس، قال في مطلعها:

ثُوروا على الظلم العتي جهارا لا ترهبوه وإن يَكُنْ جبَّاراً!
النار لم تُخَلَقْ لغير مُجاهد طلب العظائم حين خاض النارا
لا بد من صهر اليقين بشعلة حتى يَخْلُصَ رائِعاً قهارا
خلُّوا الرصاص مدوياً من حولكم لا بد أن يهوي وأن يتواري
هذي البداية للنهاية لم يدُم حُكْمُ أَسَفٍ به الدخيل فبارا
مُراكَشُ ثارت عليه وفي غدٍ سنرى الجزائر تصفع الجبَّاراً

* * *

أممُ العروبة نخوة وأرومة وثقافة، أتقدّس استعماراً؟
خسئوا وضلوا والخسيس بطبعه يلقي الكرامة والمكارم عارا
يا ويلهم ومن الضحايا حولهم لُسُنُ تحدّث في الصموت مرارا

* * *

«فرحات»^{١٠} ليس بأولٍ أو آخر لجرائم روعنا تكرارا
ما كان الاستعمار إلا سُبّة ولو أنّها لبست حُلّى ووقارا
يلهو به المستعمرون كأنّ نسوا عقبى الذين يُلاعِبون النارا
قالوا: «هو النعم الجزيلة فيضُه» واستنطقوا الأدهار والآثارا
فتضاحكت منهم وفاضت عبرةً ودمًا وآلما حوت وشرارا

إلى أن قال:

إن قَدَّر المستعمرون خضوعها أبداً فقد فقدوا لهم أعمارا
ومن الشعوب الساكنات ثوائر في حين يُسمَع غيرها هدارا
لن يستطيع الذلّ من تجري بهم تلك الدماء وتخلق الأحرارا

^{١٠} الزّعيم العمالي التونسي الذي اغتاله الفرنسيون.

عبد الحليم المصري

١٨٨٧-١٩٢٢



من الشعراء الضباط، وُلِدَ في مايو سنة ١٨٨٧، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية دخل المدرسة الحربية وتخرَّج منها سنة ١٩٠٦ في التاسعة عشرة من عمره، وألحق ضابطًا بالأورطة السادسة عشرة من المشاة في كسلا.

تَعْشَقُ الشعرَ والحرية منذ صباه؛ فجاد بقصائد رقيقة في التغني بالوطنية والحرية. وظل يغرّد بالشعر ويتغنى به إلى أن تُوفي في يوليو ١٩٢٢، وكان حين وفاته في ريعان الشباب؛ فكان لوفاته وقعٌ أليم في النفوس. كانت له في الشعر مكانة ممتازة، عبّر عنها حافظ إبراهيم بقوله في رثائه:

لَكَ اللهُ قَدْ أَسْرَعَتْ فِي السَّيْرِ قَبْلَنَا	وَأَثَرْتُ يَا «مَصْرِيٌّ» سُكْنَى الْمَقَابِرِ
وَقَدْ كُنْتُ فِينَا يَا فَتَى الشَّعْرِ زَهْرَةً	تَفْتَحُ لِلأَذْهَانِ قَبْلَ النَّوَاطِرِ
فَلَهْفِي عَلَى تِلْكَ الْأَنَامِلِ فِي الْبَلَى	فَكَمْ نَسَجْتَ قَبْلَ الْبَلَى مِنْ مَفَاخِرِ
وَيَا وَيْحَ لِلأَشْعَارِ قَبْلَ نَجِيَّهَا	وَوَيْحَ الْقَوَافِي سَاقَهَا غَيْرُ شَاعِرِ
تَزُوْدَتْ مِنْ دُنْيَاكَ ذِكْرًا مَخْلَدًا	وَذَاكَ لِعَمْرِي نِعَمَ زَادُ الْمَسَافِرِ

وللمصري ديوان شعر من ثلاثة أجزاء.

فجر الأمل

من قصيدة له نظمها سنة ١٩٠٩:

تَرَعْرَعُ عَهْدَ الْيَمْنِ وَاخْضَلَّ جَانِبُهُ	وَرَدَّ عَلَيْنَا اللَّهُ مَا الدَّهْرُ سَالِبُهُ
مَضَى زَمَنٌ كُنَّا فَرِيَسَةَ حَرْبِهِ	وَجَاءَ زَمَانٌ مَا نَزَالُ نُحَارِبُهُ
فَلَمْ يَغْلِبِ الدَّهْرُ الْعَصِيَّ مُجَاهِدًا	مِنْ الشَّرْقِ إِلَّا قَامَ أَلْفُ يُغَالِبِهِ
فِيَا شَرْقُ قَدْ جَاشَتْ بِنَفْسِكَ أَنْفُسُ	فَعَدَّدَ لَهَا بِاللَّهِ مَا أَنْتَ طَالِبُهُ
فَإِمَّا أَصَابَتْ مِنْ مُنَاهَا طَلِيْبَةٌ	وَإِمَّا تَمْشَتْ لِلْقَضَاءِ تُطَالِبُهُ
تَقُولُ لَهُ إِمَّا احْتَسَبْتَ جَزَاءَنَا	وَإِمَّا مَحَوْنَا الْيَوْمَ مَا أَنْتَ كَاتِبُهُ
جَزَاكَنَّ عَنِي اللَّهُ يَا خَيْرَ أَنْفُسِ	وَرَوَّاكَ مِنْ مَاءِ الْمَجْرَةِ سَاكِبُهُ
إِذَا مَا النُّفُوسُ الطَّاهِرَاتُ تَضَامَنْتُ	عَلَى فَوْزِهَا أَبْدَى لَهَا الْفَوْزَ حَاجِبُهُ

إلى أن قال مخاطبًا الزعيم محمد فريد:

«محمد» لَا يَلُو الْكَرَى لَكَ عَزْمَةٌ عَنْ الْبَاسِ حَتَّى إِنْ تَرْنَ نَوَادِبَهُ

نهزت بأنباء البلاد ولم تمل
طلعت بهم في باسم الصبح عابسا
كأني وأنت اليوم تدعو إلى الهدى
فجرّد شبا تلك اليراعة صارما
لقد روعت منا الهموم جوانحا
عن الجد حتى نظم الدرّ ثاقبه
فقالوا أبو حفص بدا وكتائبه
وأكتب ما يُملي الرسول وكتابه
وضارب به من لا نُطيق نُضاربه
وفرّت من الجفن الحريص سواربه

ثم قال مخاطبًا الكتابة:

فيا غادة في الشرق قد غار نجمها
لقد كان روضا وارفا ظل في العلا
فأصبح تذرّوه الرياح عوصفا
إلى أن دعا داعي الصلاح حياله
دعوت أناسا ليس يدعوهم امرؤ
أطلّي على وادٍ نمّتك جوانبه
بلابله تشدو وتصفو مشاربه
ترامى نواحيه وينهال كاتبه
فألفى رجالا كالأُسود تُجاوبه
إلى رغبة إلا وتمّت رغائبه

يصف قصر أنس الوجود ويُشيد بعظمة مصر

وقفّ عليك دموعي أيها الطللُ
أرسلت بالعين في سُقياك هامية
لولا بقية أطلال لما عرفت
ليت الأجابة حين البُعد طاح بهم
يا عالما بالهوى أرشد فتاك إلى
تبكي على دورهم مثلي وتعذلني
يا أيها الطلل المُزورُ جانبُه
وقفت باليم رسما لا حراك به
ريّاك من جنة الفردوس سارية
الدهر ملّ وآي الدهر كامنة
قرأت فيهن سر العالمين فيا
عيني إليك وقلبي للألى رحلوا
وفي الطلول البوالي تُرسل المُقلُ
عيوننا أين كانت دُورنا الأوّلُ
أدناهم الشوق أو أقصاني الأجلُ
غير البكاء فقد ضاقت به الحيلُ
أن أبكها وكلانا خَطْبُه جِلُ
هوّن عليك كلانا بعدهم طللُ
واليم مُضطرب والموج مُقتبلُ
وأنت كالركن فيه تُحمّد القُبلُ
في وجهك الطلّق لا يبدو بها ملّ
شتان ما بين من قالوا ومن عملوا

وختمها بقوله:

فمن يُجَارِك فيما شَدَّتْ يا «أنس» المرء مُرتَجِل والذِّكْر مُقْتَبِلُ

يُكْرَمُ الشَّيْخُ عَبْدِ الْعَزِيزِ جَاوِشَ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ السَّجَنِ

من قصيدة له سنة ١٩٠٩ في حفلة تكريم الشيخ عبد العزيز جوايش لمناسبة خروجه من السجن بعد استيفائه مدة الحبس (ثلاثة أشهر) التي حُكِمَ بها عليه في أغسطس سنة ١٩٠٩ عن مقالة له في «ذكرى دنشواي»:

تصف السجون وما بها	من جائر للمستجير
أيام كنت تخال نفـ	سك بين سكان القبور
مُتَقَلِّبًا فوق الفرا	ش تقلَّبَ العاني الأسير
وتودُّ رؤية زائر	يحنو على ذاك المَـزور
ما خِفَت من سجن الخيا	ل وخفت من سجن الضمير
في جانب الوطن العزيز	سز تهون هائلة الأمور

أُسُودُ النِيلِ

من قصيدة قالها سنة ١٩٠٩ في الاحتفال برأس السنة الهجرية سنة ١٣٢٧:

ما لي أرى السودان طُعْمَةً أَكَل	هل أطمعتهم مصر في السودان؟
أَنَسُوا أُسُودَ النِيلِ يَوْمَ تَضَرَّجُوا	بَدَمَ الْعِدَى حِينَ التَقَى الْجَيْشَانِ
مَتَسَابِقِينَ إِلَى الْحَصُونِ كَأَنَّهَا	أَوَكَارَهُمْ شِيدَتِ عَلَى الْأَقْنَانِ
مَتَقَاسِمِينَ الْعَادِيَاتِ كَأَنَّهُمْ	فِي الْحَرْبِ مُشْتَرِكَانِ مَخْتَصِمَانِ

صَوْتُ الشَّعْبِ

من قصيدة له يُخَاطَبُ الخديو عباس الثاني وَيُطَالِبُهُ بِالدِّسْتُورِ:

رُدِّ الْوَدِيعَةَ لَا مَالًا وَلَا شَانَا	لَمْ نَرْجُ فِي جَانِبِ الدِّسْتُورِ إِحْسَانَا
لَوْلَا وَلَاؤُكَ لَمْ نَبْسُطْ إِلَيْكَ يَدًا	مِنَ الرَّجَاءِ وَلَمْ نَسْأَلْكَ غَفْرَانَا

يُنَاجِي الحَريَّة

من قصيدة له في مناجاة الحرية سنة ١٩١٠:

حلا لها البَيْنَ فانجابت عن المُقَلِّ ولم تودَّع قُبَيْل السَّير من رَجَلٍ
كأنما لم يُضِفْها القوم في بلد ولم يؤهَّل بها في منزلٍ حَفِلٍ

إلى أن قال:

عُودي أَطْلِي علينا إِننا نَفَرُ
إِنْ حَلَّتْ عَنَا فَإِنا عَنْكَ لَمْ نَحِلِ
الدَّهرُ غَيَّرَنا حَتَّى إِذا بَصَرَتْ
بنا الدِّيارُ غَدَّتْ مَنا عَلى دَخِلِ
رَدِّي عَلَينا عَهودًا مَنا نَاضِرَةً
يا رَبِّ عَهدٍ تَوَلَّى ثُمَّ لَمْ يَوَلِّ
كنا وَكُنْتَ وَكان الدَّهرُ فَانقَرَضَتْ
أَيامُنا وَتَوَلَّىنا عَلى عَجلِ
أَصَبَحْتَ في غَير وادى النَيلِ ثاويَةً
والشَّمسُ في الحوتِ غَيرُ الشَّمسِ في الحَمَلِ
أَيَسْجَنونَ يَراعًا لَمْ يُثِرِ فِتنًا
وَيَعقَلونَ لَسانًا غَيرَ مُنْعِقِلٍ^١

وختمها بقوله مُخاطبًا المَواطِنين:

أتى زَمانٌ نَهوِضُ واثقُضى زَمَنُ كان البَكاؤُ يُرى فيه مِنَ الحَيلِ
فراقِبوا اللَهِ يَومًا في كِنانتِهِ إِنَّ الكِناةَ أَضَحَّتْ مَطَمَحَ الدُّولِ

^١ يُشير إلى تقييد حرية الصحافة.

عزیز فہمی شاعر الحرية والشباب

١٩٥٢-١٩٠٩



هو الدكتور عزیز فہمی، من أعلام الحرية والأدب، وأبطال الوطنية والجهاد. وُلِدَ سنة ١٩٠٩ بطنطا، وهو نجل الأستاذ عبد السلام فہمی رئیس مجلس النواب السابق ومن المجاہدين في الحركة الوطنية.

تلقى علومه الابتدائية والثانوية في المدرسة الابتدائية ثم في المدرسة الثانوية بطنطا، ثم انتقل إلى مدرسة الجيزة الثانوية حيث نال منها شهادة البكالوريا. وبدأت عليه منذ أن كان يتلقى التعليم الثانوي ميوله نحو الحرية والأدب والشعر، وأنشأ وهو في مدرسة الجيزة الثانوية مجلة أدبية كان ينشر فيها آراءه وأشعاره. وانتقل إلى التعليم العالي بالقاهرة، وجمع بين دراسة الحقوق في كلية الحقوق ودراسة الأدب بالانتساب إلى كلية الآداب، فنال ليسانس الآداب سنة ١٩٣٢، والحقوق في سنة ١٩٣٣، وكانت رسالته التي قدّمها إلى كلية الآداب في المقارنة في الشعر العربي بين العصر الأموي والعصر العباسي.

وكان طموحاً إلى الاستزادة من العلوم والآداب، فسافر إلى باريس سنة ١٩٣٣، والتحق بجامعة وحصل منها سنة ١٩٣٨ على الدكتوراه في القانون، وكان موضوع رسالته «الامتيازات الأجنبية في مصر ومعاهدة مونترلو»، وكانت أول رسالة من مصري عن هذه المعاهدة، والتحق في الوقت نفسه بالسوربون للحصول على الدكتوراه في الأدب. وقد شبّت الحرب العالمية الثانية وهو في باريس، فعاد إلى مصر سنة ١٩٤٢ مملوءاً وطنية وتضحية، مُستكملاً دراساته العلمية والأدبية.

وشغل منصب وكيل نيابة بالمحاكم المختلطة وقتاً قصيراً، ثم ضاق صدرًا بالقيود الحكومية، فاستقال مؤثراً العمل الحر، والجهاد الحر، واشتغل بالمحاماة والصحافة، ووقف قلمه ولسانه، وقلبه وجنانه، على الجهاد في سبيل الحرية، ومكافحة الاستعمار والطغيان والفساد.

كان أديباً شاعراً، وخطيباً مفعّوهاً، يجمع بين بلاغة العبارة وسلاسة الأسلوب، وقوة التفكير وغزارة المادة، والشجاعة الأدبية، كان يدافع عن الحرية بقلمه ولسانه على صفحات الجرائد، وبلسانه فوق المنابر، وفي ساحات القضاء، وتحت قبة البرلمان. وقد اعتُقل وحُقق معه غير مرة بتهمة العيب في الذات الملكية، أو التحريض على الإخلال بالنظام، وكان في المحاماة يدافع عن الحرية وعن المُتهمين في جرائم الرأي، ويهاجم الطغيان والقلم السياسي والإجراءات التعسفية.

دخل البرلمان سنة ١٩٥٠ نائباً عن دائرة الجمالية بالقاهرة، فكانت صفحته في دار النيابة أقوى صفحات حياته التي قضّاها في الكفاح الوطني، وعلى أنه انتُخب مرشحاً من الوفد، فإنه لم يتقيّد بسياسة الحكومة الوفدية، وعارضها فيما يستحق المعارضة من تصرفاتها، وله في ذلك المواقف المشرفة، وظهرت مواهبه البرلمانية كخطيب ومُناضل

برلماني من الطراز الرفيع، كان يُناضل عن الحرية في كل مناسبة، وله المواقف المشهودة في معارضة نظام الاشتباه السياسي، ومعارضة القانون المعدل لنظام مجلس الدولة؛ وهو القانون الذي قدّمته الحكومة الوفدية إلى البرلمان للانتقاص من سلطات المجلس واستقلاله، ودوّى صوته مُجلّلاً مُعارضاً مشروعات تقييد حرية الصحافة سنة ١٩٥١، وكان لمعارضته لهذه المشروعات دويٌّ كبير وصدى استحسان عظيم في الرأي العام، وبلغت مكانته الوطنية والبرلمانية ذروتها في معارضته لهذه المشروعات حتى انتهت بسحبها من البرلمان، فكانت هذه النتيجة أعظم انتصار للفقيد في حياته السياسة والوطنية.

ولما شَبَّت معركة القنال بين الفدائيين والإنجليز عقب إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ في أكتوبر سنة ١٩٥١، سافر إلى منطقة القنال، وساهم في حركات المقاومة ضد القوات البريطانية واستُهدف للقتل غير مرة، فكان ذلك منه غاية البذل والتضحية.

وكانت وفاته يوم أول مايو سنة ١٩٥٢ في حادثة فاجعة، بل مأساة أليمة؛ إذ كان يعتزم السفر إلى الفشن في صبيحة ذلك اليوم ليترافع أمام محكمتها في إحدى القضايا، وكان ينوي السفر بالقطار، ولكن مواعيد السفر كانت قد تغيّرت ابتداءً من أول مايو لحلول الصيف، وقد فاته أن يعرف الموعد الجديد للسفر، فلم يُدرِك قطار الصباح، فاستأجر سيارةً ركبها قاصداً الفشن، وفيما هي تسير في الطريق الزراعي وقع لها قبل العياط ببضعة كيلومترات حادثٌ فجائي، قلبها رأساً على عقب وهوى بها في التربة المحاذية للطريق، فمات الفقيد غريقاً، وكانت وفاته فجيرة للوطن وبنية؛ إذ فقدوا بوفاته مجاهداً صادقاً بين المجاهدين الأحرار.

كانت وطنيته فوق حزبيته، وعقيدته أساس شخصيته، كان يرى في الحياة السياسية رسالةً يؤديها، لا يبتغي منها لنفسه مَغْنَمًا ولا نفعاً، ولا يقصد إلا وجه الله والوطن، فلا غَرُو أن حزنّت الأمة لوفاته حزناً عظيماً.

اسلمي مصر

قال رحمه الله من قصيدة له سنة ١٩٣١ بعنوان «اسلمي مصر»:

اسلمي مصر على مرّ القرون	حسبك الله نصيراً ومُعين
لن تُضامي أنت يا مهد الخلو	د وهذا بعض أشبال العرين
مَنْ تكن ليلاه مصر لا يَهِن	ساعة البذل ولو ذاق المنون

إلى أن قال:

لا رعاك الله يا عهدًا مضى
محنةً لا عهد للناس بها
عصفت بالحرث والنسل معًا
ونضت سيفًا بتوكًا كُلُّما
دولة الحجاج إن قيسَت بها
عهد بغى وافتتات وأفون
جزع الصبر لها والصابرون
وأعادت عهد كسرى ونرون
هَبْ ذُقْنَا بَيْنَ حَدَّيه المنون
مثلٌ في الرفق عند المُنْصِفِين

وهوى الأوطان للأحرار دين

إلى أن قال في تمجيد التضحية:

في يمين الله ما ضحيتُم
في هوى مصر يضحي عن جِبا
لن يضيع العُرف عند الله إن
هو عند الناس جوْدٌ ووفاء
ولبانات الهوى شتَّى كُنا
فهوى ليلى بقيس متعة
هي ليلانا جميعًا فانظروا
هل جمعنا من أفانين المُنَى
ليتني أحيأ إلى يومٍ أرى
لا أبالي أعظامي بعده
لا سقاك النيل يا مصر إذا
ونُعد مجدًا سليبًا غابرًا
لا يُضيع الله أجزَ المُخلصين
ورضاء كلُّ مُستبِقِ ضنين
ضيّع الخيرَ أصيلٌ وهجين
وهو عند الله إيمان ودين
ر سلِّ التاريخَ عنها والمنون
وهوى الأوطان للأحرار دين
هل قسطنا ما علينا من ديون؟
ما تمنَّته على مرِّ السنين؟
فجرَ مصر فيه وضَاء الجبين
في سهوب^١ من ثراها أم حزون
لم نقرب من أمانيك الشطون^٢
ونغيّر بلواك العالمين

^١ السهوب (كالسهول): الأراضي المستوية. والحزون: جمع حزن، وهي الأرض الصلبة.

^٢ الشطون: البعيد.

لا يخشى الموت

كان رحمه الله يتنبأً بالألا يطول به العمر وأنه سيموت في ربيع الحياة، فكان يستعد للقاء الموت، ولا يهابه ولا يخشاه، وينشد الخلود.
قال في هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٣٣ بعنوان «لحن الموت»:

سرُّ هذا الكون أو عند المنون؟	أيها العرَّاف هل عند النجوم
حرْتُ والله ولجَّت بي الظنون	كاذبٌ علمُك ما لم تُنبِني
وجهلنا فوق جهل الأولين	جهلَ السرِّ أناسٌ قبلنا
أُمٌّ من قبلِ عادٍ و«أمون»	حملوا العبء وقد ناءت به
حيرة الساري بليلٍ ذي دجون:	ولكم ساءلت نفسي حائرًا
ما جهادي؟ ما مصيري بعد حين؟	ما وجودي؟ ما سبيلي؟ من أنا؟

* * *

وغداً يجمعني وإِ شطون ^٣	يا بني أُمي لقد جدَّ نوى
ذلك الحق تجلَّى واليقين	لا تقولوا مات في شرخ الصُّبا
لن يردَّ الدمعُ محتومَ المنون	ليس مِنِّي مَنْ بكاني فارعوا

* * *

فارق الأصفادَ عصفورٌ سجين	لا تقولوا ليته عاش! فقد
سلسبيلٌ في عقابٍ وقرون ^٤	شاقني الخلد كما شاق القطا

يا قارئ الكف!

وقال في هذا المعنى سنة ١٩٤٤ من قصيدة له بعنوان «يا قارئ الكف»:

يا قارئ الكف ماذا أضمر القدرُ؟ ولا عليك إذا لم يصدُق الخبرُ

^٣ الشطون: البعيد.

^٤ العقاب: جمع عقبة؛ طريق في الجبل وعر. وقرون: جمع قرن؛ القطعة من الجبل.

وما اهتمامك باسمي؟ هَبْهُ عُنْتَرَةً وَهَبْهُ زَيْدًا وَجَدِي عَمْرُو أَوْ عَمْرُ
عليك بالكف فاقراً بين أسطرها ماذا يدل عليه الخط والأثر؟

* * *

أَطَالِعِ الْيُمْنُ أَنْ الْخَطُ مُتَّصِلٌ وَآيَةُ النُّحْسِ أَنْ الْحَدُّ مُنْبَتِرٌ؟
وما الشَّيَاتُ^٥ عَلَى جَنْبِي ثَمَانِيَةٌ تَبْدُو كَوْشَمٌ وَتُخْفِي حَوْلَهَا غُرُرٌ؟

* * *

خَبِّرْ عَنِ الْفَالِ لَا تَجْفَلْ فَسَانِحَةً عِنْدِي كِبَارِحَةٌ وَالشَّرُّ يَنْتَظِرُ
هَلْ أَنْسَأَ اللَّهَ فِي عَمْرِي إِلَى أَجَلٍ يُلْحُ فِيهِ عَلَيَّ الْهَمُّ وَالْكَبَرُ؟
وَهَلْ أَبْلَغُ آمَالِي؟ وَأَبْعَدُهَا عِنْدِي كَأَقْرَبِهَا نَاءٌ وَمُحْتَضِرُ
هَبْنِي ظَفَرْتُ بِآمَالِي عَلَى ظَمَأٍ إِذَا ارْتَوَيْتَ فَمَاذَا يَعْقِبُ الظَّفَرُ؟
وَهَلْ أَوْسَدُ حَزَنًا حَرَةً وَحَصَّى فِي جَوْفِ هَاوِيَةِ أَغْوَارِهَا حَجَرُ
أَمْ هَوَجَلًا^٦ قَذْفًا^٧ تَنْبُو بِرَاكِبِهَا لَا الْبَيْدُ عَبَّهَا يَوْمًا وَلَا الْحَضَرُ
قَفَرَاءَ جَرْدَاءَ لَمْ تَكَلَّأْ حَشَائِشَهَا إِلَّا السَّوَاكِي وَلَمْ يَعْلَقْ بِهَا مَطَرُ
أَمْ تُقَدِّحُ النَّارَ مِنْ حَوْلِي فَتُطْعِمَنِي حَيًّا وَأَشْوَى بِهَا أَيَّانَ تَسْتَعْرِ
«أَمْ أَنْ فِي مَسْبَحِ الْحَيْتَانِ مُنْقَلَبِي يَوْمَ الرَّحِيلِ إِذَا نَادَانِي السَّفَرُ؟»^٨

* * *

قُلْ مَا بَدَأَ لَكَ وَاهِرَفَ غَيْرَ مُبْتَدِعٍ فَالْجَرَمُ بِالْغَيْبِ — لَوْ تَدْرِي — هُوَ الْهَذَرُ
الْلَحْدُ كَاللَّحْدِ وَالْأَكْفَانُ وَاحِدَةٌ وَلَا خِيَارَ لِمَيْتٍ حِينَ يَدْتَرُ
وَالْمَالُ كَالْعُدْمِ لَوْلَا أَنَّهُ أَمَلٌ إِنْ الْغَنَى إِلَى الْأَمْوَالِ مُفْتَقِرُ
وَالسَّعْدُ حَالٌ عَلَى الْإِنْسَانِ طَارِئَةٌ «وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدْرُ»

^٥ الشَّيَات: جمع شَيْة؛ العلامة.

^٦ الهوجل: المفازة البعيدة لا علم بها.

^٧ القذف: البعيد.

^٨ كأنه في هذا البيت كان يتنبأ بموته غرقاً، وقد تُوْفِي رحمه الله غريقاً سنة ١٩٥٢.

لولا التشابه في الأقدار ما صدقت عَرَافَةُ الحي مَنْ تُوفى لها النذرُ

الشورى

وقال من قصيدة له سنة ١٩٤٣:

بَنِي مصرَ هذا الحق أبلُج واضح
إذا شتّم الشورى فذلك حُكمها
«تولّى زمان الحاكمين بأمرهم
«تولّى زمان الفرد لا عاد عهده
وهذا صراطٌ يستوي عنده القصْدُ
وإن شتّم الفوضى فليس لها حدُّ
ولم يبقَ في الدنيا مَسودٌ ولا عبدُ»
وبُدِّل بالدستور سلطانه الفردُ»

الضمير

وقال يصف الضمير من قصيدة له سنة ١٩٤٤:

صاحبٌ وَسنان من طول السهرِ
كُلّما غافلته في سكرة
فإذا كَفّرت عن وزر عفا
ليس ملموسًا فتدري كنهه
وتُواريه فيُغضي ساعة
ليس عقلًا أو شعورًا خالصًا
فهو عقل باطن أو مُلهم
كم جرعت الصاب من ترياقه
أنتما الدهرَ طريدٌ أبْق
أينما ولّيت أحصى مُرجئًا
إن تَم ناداك أو تنسَ أدكرُ
من أمانيك تجنّى أو عذرُ
وإذا عُدتَ إلى إثم ثار
وهو ما كَتَمَت يدري ما تُسر
ثم يستيقظ في لمح البصر
بل تراثًا من شعور وفكر
وهو إحساس قديم مدّخر
واستسغت الشهد مما قد هصر
وغريمٌ طاردٌ أو منتصر
موعِدًا حتمًا فأَيّان المَفر؟

* * *

يتراءى شاحبًا أو إمعًا
وهو جبارٌ عنيفٌ تارة
وهو إعصار وريح صرصر
فهو كالظل إذا الظل انتشر
وهو أحيانًا ضعيفٌ يَأتمر
وهو كالسيل إذا السيل انهمر

وهو كالبحر إذا البحر طغى	وهو كالبحر إذا البحر طغى
وهو كالسيف إذا السيف رمى	وهو كالسيف إذا السيف رمى
وهو الأمر وهو المزدجر	وهو الأمر وهو المزدجر
فترقبها وبالغ في الحذر	فترقبها وبالغ في الحذر
عُدت كالمخمور أو كالمُحتَضِر	عُدت كالمخمور أو كالمُحتَضِر
وترفّق وتجلّد واستعر	وترفّق وتجلّد واستعر
وإذا نحن أنبنا فاعتذر	وإذا نحن أنبنا فاعتذر

ومصر تُناديهم وصوتي يردُّ

وقال في يونيو سنة ١٩٤٦ وهو مُعتقل في سجن الأجانب:

وقد يسكن الغمد الحسام المجردُ	كفأك عزاءً أنك اليوم أوحَدُ
ويُذهب عنك الحزن فيه تجلُّدُ	يهون عذاب السجن والليل مُوحِشُ
ويُرهب منه الصوت وهو مصفدُ	وقد يُوسر الليث المنيع عرينه
وما زلتُ أدعوهم وما زلتُ أشهدُ»	«أهبتُ بقومي أن يذودوا عن الحمى
تُلّمُ بهم طورًا وطورًا تهددُ	أهبتُ بقومي والخطوب زواحفُ
ومصر تُناديهم وصوتي يردُّدُ»	«وأنذرت حتى بُح صوتي ولم أزلُ

نذرت نفسي قربانًا لفاديها

ومن قصيدةٍ أخرى نظمها وهو في سجن الأجانب سنة ١٩٤٦:

وعاث غاصبها في أرض راعيها	شكّت إلى الله من عدوان أهليها
يكاد لولا بقايا الصبر يُرديها	وا حرّ قلباه من يأس يُصارعها
ورُضت نفسي على نسيان ماضيها	فزعت من غدها علمًا بحاضرها
فشاب منها ومن عدوان ساليها	وقفت قلبي عليها في شببيته
نذرت نفسي قربانًا لفاديها	لما أفقت من الماضي بلا أمل

* * *

ذكرت مصر فهاجتني مَواجعها وعزّني الدمع حتى كدتُ أبكيها
يا لائمي وأنا الجاني على كبدي دع عنك لومي فإن اللوم يُغيرها
كلُّ يغني ليُشجي سامراً وهوى وقد يغني لأوطارٍ يرجيها
وليس لي سامر فيها ولا وطرٌ ولا زعمت جوادي من مذاكيها
وإنما هي ألامي أكتّمها حتى يضيق بها صدري فأحكيها

* * *

نزحت عنها فلم أعدل بها وطنًا وبات قلبي أسيرًا في مغانيتها
وصُنتُ شعري إلا عن مفاتنها وهمتُ في الأرض مسحورًا بواديتها
ورقٌ شعري كما رقت جداولها وراق وصفي كما راقَت مجاليتها
وما رأيت كناسًا فيه جؤذره إلا ذكرت غزالًا في مراعيها

* * *

لما رُددتُ إليها رُد لي ألمي عند اللقاء وأحياني تدانيها
وقد طويت إليها اليم واقتربت بي السفينة من أولى موانيتها
فكاد يطفر قلبي من توثبه وقد تنسّم ريحًا من نواحيها
وحال قلبي دموعًا عندما اتأدت فرُحتُ أنثر دمعِي في ضواحيها
سجدت لله عرفانًا لنعمته لما حللتُ رفيقًا من روابيها
فكيف حالت حياتي عندها سقرًا وكيف أُوليت نارًا من سواقيها!

* * *

جارت عليها صروف الدهر واختلفت أيدي الرماة فأها من أعاديها!
راشوا لها السهم مسمومًا فشَتَّتْها وكاد لولا يد الرحمن يُصمّيها
وأثخنوها جراحًا في مقاتلتها يا للجرّيمة من عدوان آسيها

إلى أن قال:

فزعْتُ من شركٍ يُلقيه غاصبها قبل الجلاء لعل «الوعد» يُغيرها

وما الجلاء إذا شُدَّتْ^٩ بسلسلة
تشعَّبَ الرأي والأحزاب سادرة
وكيف تنهض من أسرٍ يكبِّلها
من القيود و«شرط الحلف» يُملِها
ومصر صابرة والصبر يُضنِّها
والقيد أمرها والقيد ناهيها

بني وطني أهبت بكم زماناً

وقال في نوفمبر سنة ١٩٤٦ يندد بالإنجليز على أثر الاعتداءات الدامية التي وقعت منهم في القاهرة والإسكندرية، ويدعو المواطنين إلى البذل والتضحية:

سلُّوا مَنْ سامها^{١٠} هذا العذابا
سلُّوا جَلَّادها تَبَّتْ يداها
أما ينهاه عقلٌ أو ضمير
ضلالٌ أن يعاتَّبَ مستبِدُّ
وجهلٌ أن يُخاطَبَ غيرُ أهل
يصعِّرُ خده صلفًا وحمقًا
وكم أسَدَتْ إليه وكم تجنَّى
بأي جريرة وبأي عدل
ولولا مصر ما غنِموا فلاة
ومن شرع الأسنة والجِرابا
بأيّ شريعةٍ فرض العقابا
يرد له المَحْجة والصوابا
وأولى بالمسود أن يُعابا
فلا تحزن عليه إذا تغابى
ويُوردها على ظمًا سرايا
ولم يحسب لعاقبة حسابا
تجرَّع مصر كأس النصر صابا؟
ولولا مصر ما غلبوا ذبابا

* * *

سلُّوا «دنكر» هل نهضوا بعبء
سلُّوا «الصحراء» عنهم كيف طاروا
سلُّوا «العلمين» هل ثبتوا بأرض
فكيف تعاظَموا بعد انكسار
سلُّوا «الميثاق»^{١١} هل وأدوه صبًا
وقد غنِموا السلامة والإيابا
وهل تَخَذُوا النعام لهم ركابا
وقد سبقوا مع العدو السحابا
وكيف تبدلوا أسدًا غضابا
وهل نسجوا من الكفن الإهابا

^٩ الإشارة هنا إلى مصر.

^{١٠} يقصد الإنجليز.

^{١١} ميثاق الأمم المتحدة.

وكيف جرى على فمهم كذاباً
وكيف استبدلوا شرعاً بشرع
كذلك تلدغ الأفعى كريماً
وبين الناس رقطً وابن آوى
وسال على سواعدهم خضاباً
فأضحى الحق عندهم اغتصاباً
جزاء صنيعه وتمدُّ ناباً
وذؤبانٌ ومَن غلب الذئاباً

إلى أن قال:

ويا وطني فديتك من جراح
وهل يأسو الجريح سوى جريح
وكم من قسور ورد المنايا
إذا كرت عليه الخيل فرّت
روى دمه ثراك ففاح مسكاً
وأخر في «الجنوب» ثوى شهيداً
لحى الله الخوارج والمطايا
ولا كان الجلاء إذا أحلّوا
وطوبى للألى ذهبوا فداءً
إذا نكأت حملناها عذاباً
يُشاطره الفجيعة والمُصاباً
يروع ببطشه السبع السغاباً
وإن سام الجياد حمى العراباً
وأينع روضةً وزكا تراباً
فضجّ النيل واجتاح الرحاباً
ومن أضحت نفوسهم خراباً
مع الحلف المرافق والرقاباً
إلى الرضوان واستبقوا الثواباً

* * *

بني وطني أهبت بكم زماناً
ولو نطق الجماد كما نطقنا
فلما بُح صوتي قيل هاباً
لأسمعه الصدى عنكم جواباً

علي الغاياتي



من شعراء الوطنية ومن المجاهدين القدامى، اعتنق مبادئ مصطفى كامل منذ أن استمع إلى خطبته الكبرى التي ألقاها بالإسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧، وصار من تلاميذه وأنصاره الأوفياء الحافظين لعهد طوال السنين.

انضم إلى أسرة الصحافة منذ صباه، وعمل في صحف الحزب الوطني المتعاقبة واتجهت نفسه إلى الشعر، فنظم قصائد تفيض وطنية وإخلاصًا، وقد جمعها في ديوان أصدره سنة ١٩١٠ بعنوان «وطنيّتي» وله مقدمتان؛ إحداها بقلم محمد فريد، والثانية بقلم عبد العزيز جاويش، وكان لهذا الديوان قضية أثّرت في مجرى حياة الشاعر؛ فقد أُقيمت عليه الدعوى العمومية وحُوكِم على قصائد من هذا الديوان عدّتها الحكومة وقتئذٍ عيبًا في ذات ولي الأمر (الخدّيو عباس الثاني) وتحريضًا على كراهية الحكومة والازدراء بها، وتحبيدًا للجرائم (السياسية)، وحُكِم عليه من محكمة جنايات القاهرة في أغسطس سنة ١٩١٠ بالحبس سنة، وقد صدر الحكم عليه في غيبته؛ إذ كان قبل محاكمته قد ارتحل إلى الآستانة، ثم إلى سويسرا حيث أقام في «جنيف»، وأصدر بها سنة ١٩٢٢ جريدة «منبر الشرق» بالفرنسية، وجعلها وقفًا على الدفاع عن قضية مصر وقضايا الشرق عامة، وظل في منفاه حتى عاد إلى مصر سنة ١٩٣٧ واستأنف فيها إصدار صحيفته «منبر الشرق» بالعربية حتى اليوم — مد الله في حياته — وهي صحيفة وطنية شرقية إسلامية أخلاقية، تُدافع عن القضية الوطنية وقضايا العروبة، وتُناضل عن الحرية والاستقلال للشعوب الشرقية جمعاء.

إلى مصطفى في حياته

من أول شعره الوطني قصيدةً نظمها سنة ١٩٠٧ وقَدَّمها إلى مصطفى كامل عقب خطبته بالإسكندرية، قال فيها مخاطبًا الفقيد:

اصدع بقولك إن أردت مقالاً	فالقوم جندك إن دعوت رجلاً
لم تدرِ مصر سوى جِماك تؤمُّه	فترى به آلامها آملاً
أقبل على الوطن العزيز بصارمٍ	لا تُدرك الأعداء منه كلالاً

وختمها بقوله:

فادأب على إنهاض أمتك التي ترجو وراء خُطاك الاستقلالاً

وطنٌ ينجي ربه

قال من قصيدة له بهذا العنوان:

ربِّ إن البلاد أرهقها الظلـ
ربِّ إن الصدور أخرجها الوجـ
م وحاقت بأهلها البأساء
د وأودت بحلمها الأرزاء
لا تُجاري حياةَ مصر دماءً
فتداركْ بلطفك النيل حتى

قصائد حُوكِم من أجلها سنة ١٩١٠

من قصيد له بعنوان «طيف الوطنية»:

وعُدَاةٌ مَلَكُوا الأمر ولم
وولادةٍ أقسموا أن يسجدوا
ربُّ ماذا يصنع المصري إن
طال يوم الظلم في مصر ولم
هل يرى المحتل أنا أمة
أو يرى الظالم فينا أننا
زعموا زورًا فما من أمة
كُتِب النصر لشعب ناهض
يحفظوا للشعب في حقٍّ ذماما
كلما رام العدى منهم مراما
جاوَز الصبر مدى الصدر فقاما
ندرِ بعد اليوم للعدل مقامما
مذ عرفنا السِّلْم لا ندري الخصاما
نحمل الخسف ولا نبغي انتقاما
سامها العسفَ ظلومٌ ثم داما
في سبيل المجد لا يخشى الجماما

ومن قصيدة له يندد بالخديو عباس الثاني:

أعبَّاسُ هذا آخر العهد بيننا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة
ونيئس من آمالنا فيك كلما
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها
رويدك يا عباسُ لا تبلغ المدى
فما يبتغي «جورست» إلا مكيدة
وها قد رمى حرية القول رمية
فلا تخشَ منَّا بعد ذاك عتابا
ننال إذا رُمنا الحياة عِقابا
قضيتَ علينا أن نكون غُضابا
وأصلَّيتنا بعد «الوفاق» عذابا
ولا تستمع للظالمين خطابا
تحوِّل أقلام السلام جرابا
بسهمك تجني للبلاد خرابا

يُهاجم الوزارة

وقال في هذه القصيدة يُهاجم وزارة بطرس غالي التي كانت تتولى الحكم وقتئذٍ:

ألا أمطر الله الوزارة نقمة	ولا بلغت مما تروم مراما
تُحاول أن تقضي علينا بإثمها	ولكن ستلقى دون ذاك أثاما
وزارة خداع أقامته بيننا	يد الحاكمين الآثمين فقاما

ومن قصيدة أخرى له يندد بهذه الوزارة على أثر امتناعها عن حضور جلسات مجلس شورى القوانين فرارًا من مناقشات الأعضاء:

يا أيها الوزراء ماذا نابكم حتى هجرتم صورة النواب

إلى أن قال:

فتزلزلت أقدامكم من هولها	وهرعتم فزعًا إلى الأبواب
ورضيتم الهرب المَعيب لأنه	خيرٌ من الإفلاس عندَ حساب
عارٌ عليكم أن يُقال وزارة	لم تدرِ إن سئلت بيانَ جواب

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٠:

طال ليل البلاد والشعب سار	لا يرى غيرَ هذه الظلماتِ
ظلماتٌ من المظالم أودت	بضياء الحياة بعدَ الحياةِ
يشتكي الشعب والقضاة خصوم	فلمن يشتكي خصامَ القضاةِ

ومن قصيدة له يُخاطب الشيخ عبد العزيز جاويز عندما حُكم عليه لأول مرة سنة ١٩٠٩، ونشرها في ديوانه «وطنيتي»:

يا ساكن السجن الكريم	م وأنت نعم الأكرم
ما السجن للشرفاء إلا	رفعةً وتنعم
أنت البريء ومن يخا	لك مُجرمًا هو مُجرم

علي الغاياتي

هذا ما وَعَتَه الذاكرة وما وسعني الجهد في استقصاء الشعر الوطني، ولعلي بإخراج هذا الكتاب أَحَقُّ أَمْنِيَّةً كانت تجول في خاطري منذ عدة سنوات، ولا زِلْتُ أَكْرِّرُ اعتذاري عما عسى أن يكون قد فاتني تدوينه من الشعر الوطني، وإني لَمُتَدَارِكٌ هذا النقص في المستقبل القريب إن شاء الله.

